الثقافة الجديدة

فكر علمي . . . ثقافة تقدمية

352
2012

مقالات

رائد فهمي
كاوه محمود
لطفي حاتم
عبد الكاظم ماجود
موحان لعيبي

نصوص قديمة

ماهر الشريف

نصوص مترجمة

ليو ماير

حوارات

حوار مع الناقد إسماعيل إبراهيم عبد

ادب وفن

فاضل ثامر
صبيحة شبر
جاسم العايف
قاسم العزاوي
حسينة بنيان
بلقيس خالد
رائدة جرجيس
نضال القاضي
جواد وادي
علي السباعي
مختار لوبس

الثقافة الجديدة

فكر علمي- ثقافة تقدمية

تأسست عام 1953

المواد المنشورة تعبّر عن آراء اصحابها

352

اغلق تحرير العدد في 15 آب 2012

السعر : 2000 دينار

الاشتراك السنوي : (6 أعداد) : 50 دولاراً أو ما يعادلها و 100 دولار للمؤسسات.
إيميل رئيس هيئة التحرير:
thakafajadida@hotmail.com
إيميل سكرتارية هيئة التحرير :
thakafajadida4u@gmail.com
عنوان الموقع على شبكة الانترنت :
http://www.althakafaaljadeda.com
عنوان المجلة : بغداد – شارع أبو نؤاس، والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع في المكتبة الوطنية :781
يمكن تحويل مبالغ الاشتراك على الحساب المصرفي للمجلة :

ALJADID
Lloyds TSB Bank plc
Sort Code 30-93-89
Account No: 1871659
UK

ترجو هيئة التحرير المساهمين في المجلة مراعاة ما يأتي في ما يرسلون للنشر:
*أن تكون المقالة مستوفية لشروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
* ألا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة.
* ان تكون المادة معدة أصلا للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن أخرى.
* يفضل ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج. أما المكتوبة باليد فنرجو إرسال نسختها الأصلية. وارتباطاً بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير، في ما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو أن ترسل مع المقال أو الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود 50 كلمة إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال أو الدراسة.
* لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة إعلام صاحبها بذلك.
* بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الالكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
* للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والاعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد :

مقالات:

8-ملاحظات حول سياسات الإسكان في العراق .....رائد فهمي
17-العلاقة بين الحكم الرشيد والمواطنة الفاعلة وتحقيق التنمية المستدامة.....كاوه محمود
25-الفكر السياسي الناظم لمراحل تطور الدولة العراقية .....لطفي حاتم
35-اليقينية والاحتمال في الديالكتيك الماركسي في ضوء ميكانيك الكم..... عبد الكاظم ماجود
43-العنف المدرسي وآثاره الضارة على الطلبة والمدرسة في المرحلة المتوسطة.....موحان لعيبي

نصوص قديمة:

56- فلسطين والمشرق العربي في نقاشات المؤتمر العالمي السابع للأممية الشيوعية..... ماهر الشريف

نصوص مترجمة:

79- غرامشي: الأزمة، الهيمنة والتحوّل: بقلم: ليو ماير.....ترجمة: رشيد غويلب

حوارات:

91- حوار مع الناقد إسماعيل إبراهيم عبد.....حاوره: سعدون هليل

أدب وفن:

دراسة نقدية

100- صناعة الطاغية ميتا سردياً (قراءة في رواية الخائف والمخيف لزهير الجزائري).....فاضل ثامر

مقالات

107- رثاء النفس في القصيدة العربية.....صبيحة شبر

114- (مقهى الدَكَّة) في البصرة.. فضاء ثقافي.. وزمن سبعيني.....جاسم العايف

119- تجوال في (كلمات متقاربة المدى).. لجمال العتابي.....قاسم العزاوي

شعر

124- قصائد مختارة .....حسينة بنيان

127- لا هديل في ذلك الغروب.....بلقيس خالد

130- مساء المواويل.....رائدة جرجيس

131- القطعة الخامسة من "بينالي عواء وبسكويت".....نضال القاضي

133- شارات لا تعرف الغياب..... جواد وادي

قصص قصيرة

140- شهرزادُ: قدري .....علي السباعي

قصة مترجمة

147- الطير السعيد: مختار لوبس .....ترجمة: نزار محمد سعيد

الغلاف الاول : لوحة للفنان فيصل لعيبي
الغلاف الأخير: لوحة للفنانة زينب عبد الكريم

تنويه:

نود الاشارة الى أن لوحة الغلاف الأخير للعدد 350 - 351 كانت للفنان التشكيلي عماد حاتم محمد الطائي المقيم في لندن.. في حين ورد اسمه كالآتي: عماد محمد لذا اقتضى التنوية.. مع الاعتذار للفنان الطائي ..

يوم أسود في مسيرة الديمقراطية الهشّة في بلادنا

بحضور 230 نائباً من أصل 325 نائباً صوّت مجلس النواب العراقي بالأغلبية، يوم الأربعاء،1 آب 2012، على مقترح التعديل الثاني لقانون انتخاب مجالس المحافظات والأقضية والنواحي رقم (36) لسنة 2008.

وفور إعلانه فجّر هذا التصويت عاصفة قوية من النقد والاعتراضات جاءت من أوساط مختلفة من داخل البرلمان وخارجه، من الأوساط السياسية والثقافية ومن مؤسسات المجتمع المدني. ويكمن السبب في ذلك، أن البرلمان صوّت على إحدى فقرات التعديل الثاني للقانون المذكور في أعلاه، والتي تخص احتساب عدد المقاعد من دون الأخذ بالتعديلات الضامنة لتمثيل حقيقي لإرادة العراقيين، (والمناقض لقرار المحكمة الاتحادية) بتاريخ 2010/6/14، بعدم دستورية النظام الانتخابي المعمول به سابقاً، والذي يعتمد توزيع المقاعد المتبقية للقوائم الحاصلة على القاسم الانتخابي فقط، وليس إلى الباقي الأقوى، مما يتسبب بإجحاف كبير لقطاعات واسعة، وستكون له آثار سلبية عديدة في مقدمتها عزوف قطاعات واسعة من المواطنين عن المشاركة في الانتخابات، لعلمهم مسبقا أن أصواتهم في ضوء الآليات التي أقرها هذا القانون، ستذهب لقوائم لم ينتخبوها وأشخاص لم يصوتوا لهم، بسبب القواسم الانتخابية وقوة الأصوات الانتخابية التي حصلت عليها هذه القائمة أو تلك. علماً أن التجارب الديمقراطية تشير الى أن فعالية النظام السياسي تقوم على مبدأ المشاركة الواسعة للمواطنين والعكس صحيح.

ومن المفيد التذكير أيضا أن هذا "التوافق الصلد" بين الكتل الكبرى المتنفذة قد ارتبط بتوافقها أيضا على تشكيل مجلس المفوضية العليا المستقلة للانتخابات على أساس المحاصصة الطائفية – الإثنية والحزبية الضيقة، وهو ما يعد انتهاكاً فضاً لاستقلالية المفوضية، الأمر الذي يطرح أسئلة حارقة عن حقيقة نزاهة الانتخابات القادمة، وأيضا مدى صدقية "الاصلاحات" التي يجري الحديث عنها اليوم؟

وبالمقابل، يجيء هذا التصويت والبلاد تواجه أزمة بنيوية متعددة الصعد، باتت تشكل تهديدا لمآل العملية السياسية واستعصاءاتها المستديمة، إلى جانب عواقبها الأخرى المتمثلة في تعاظم مظاهر الفساد، وتفاقم التردي في الخدمات العامة، واشتداد معاناة المواطنين في هذا الصيف اللاهب، هذا إضافة الى وضع إقليمي ملتهب ومفتوح على احتمالات عدة، وأزمة اقتصادية عالمية تتفاقم باستمرار وتلقي بحممها على مختلف المناطق والبلدان، مما يجعل من قرار الكتل

المتنفذة بالإقدام على هذا التعديل موضعَ تساؤلات عدة وعلامات استفهام.

إن ما ينبغي التأكيد عليه هنا أن هذا التعديل غير دستوري لكونه يُصادر أصوات الناخبين وإراداتهم ويتعارض مع مبادئ الدستور ومواده في بناء دولة ديمقراطية عصرية. كما أن إقراره هو انتهاك لحق المواطنين في اختيار من يمثلهم. كما أن هذا التعديل يشكل خرقا لقرار المحكمة الاتحادية الذي اعتبر التعديل في الفقرة المماثلة الموجودة في قانون انتخابات مجلس النواب خرقاً للدستور والديمقراطية.

نحن إذن أمام اعتداء صارخ على قواعد الممارسة الديمقراطية. فقد راهنت الكتل المتنفذة على التوافقات في ما بينها على مقتضى إعادة تقسيم مواقع السلطة والنفوذ، واعتماد حلول ترقيعية للقضايا الكبرى. وبـ "توافقها" على تشريع القانون المذكور تكون هذه الكتل قد أقرت "شرعية السرقة" والتجاوز على حقوق الآخرين ومصادرة الأمل ببناء عراق جديد ودولة عصرية. وبذلك تكون هذه الكتل قد ساهمت مرة أخرى بإخراج الديمقراطية الناشئة عن مسارها الصحيح، قاطعة الطريق مرة أخرى – وكعادتها – على بناء دولة المواطنة المتساوية، التي من دونها يصبح الحديث عن الديمقراطية محض هراء.

ويهمنا هنا التأكيد الخاص والاستثنائي في هذه المرحلة المضطربة على أهميّة دور المثقفين والمبدعين، إضافة الى القوى الديمقراطية ومنظمات المجتمع المدني، في الدفاع عن الديمقراطية وتثبيت التوجهات والخيارات الوطنية الكبرى، وفي مقدمتها بناء الدولة المدنية الديمقراطية العصرية. إن تحقيق ذلك فيتطلب من ضمن ما يتطلبه استنهاض القدرات الكامنة في صفوف شعبنا وتوظيف الإمكانات الإبداعية لمنتجي الثقافة والإبداع بشكل عام، وإعادة الاعتبار لدور المثقف، ومكافحة كل محاولات تهميش الثقافة والمثقفين والمبدعين بشكل عام. ولا شك في أن حضور سؤال المستقبل في أية ثقافة هو دليل حيويتها، فبقدر حضوره في تكوينها تتحدد قابليتها للتطور، وقدرتها على التقدم، ورغبتها في الإبداع.

إن المأزق الذي تعانيه الديمقراطية الناشئة في بلادنا، ينبغي ألا يجعلنا نلين فنحكم متشائمين بحسم الصراع لصالح القوى المتنفذة. والحق أن الوعي التاريخي بمشكلاتنا يُحَتِّمُ علينا التحلّي بالأمل ومضاء العزيمة، لمواجهة كل محاولات تأبيد الراهن والاعتداء على الديمقراطية وترسيخ الطغيان.

ختاماً، من حقنا أن نقول بعد ما جرى بشأن قانون انتخابات مجالس المحافظات إن اليوم الذي تمت فيه المصادقة على هذا القانون، بصيغته الجديدة، هو يوم أسود في مسيرة الديمقراطية الهشة التي تعاني حالات استعصاء مستديمة. فهذا القانون بصيغته الحالية سيعزز هيمنة القوائم الكبيرة على واقع المحافظات ويبخس حق القوائم الصغيرة والمستقلين. وفي الممارسة ستتنامى النزعات الاقصائية ومحاولات تهميش الآخرين من طرف الكتل الكبيرة المتنفذة وهذا يتنافى مع أبسط قواعد الديمقراطية.

مقـــــالات

ملاحظات حول سياسات الإسكان في العراق ❖

رائد فهمي
وزير العلوم والتكنولوجيا السابق

أهمية قطاع الإسكان في العراق

● السكن الملائم حق أساسي من حقوق الإنسان، وهو في العراق حق دستوري.

● الافتقار إلى السكن الملائم يمثل عنصراً رئيساً في مؤشر الفقر والحرمان في العراق.

● الاستثمار في مجال السكن ينطوي على محتوى استيرادي قليل نسبياً، ويساهم بصورة كبيرة في تنشيط العديد من القطاعات الاقتصادية .

● قطاع البناء يلعب دوراً كبيراً في امتصاص البطالة (كثيف العمالة المحلية، ومنتج كبير لفرص العمل).

● العجز الإسكاني يتسع باضطراد وبمعدلات متسارعة منذ أوائل عقد الثمانينيات من القرن الماضي.

حجم وأبعاد مشكلة السكن في العراق

● تتباين تقديرات العجز السكني والحاجة السكنية المستخلصة من مختلف الدراسات ونتائج المسوحات الاقتصادية والاجتماعية التي أجريت خلال السنوات الماضية.

● تراوحت تقديرات العجز السكني ما بين (1- 3,5) مليون وحدة سكنية لغاية عام 2015، تختلف التقديرات باختلاف الفرضيات المعتمدة لمعدلات النمو الديموغرافي، ومتوسط حجم الأسرة، ونسبة الوحدات السكنية الواجب استبدالها وترميمها ونسب انجاز المشاريع الإسكانية الموضوعة ومدى شمولية التقديرات للمناطق الحضرية والريفية وغيرها.

تتجاوز العجوزات المقدرة، على اختلافها، ما يمكن فعله بشكل منطقي لمعالجتها.

● تترتب على هذا العجز معدلات إشغال للوحدات السكنية غير مقبولة، إذ تقدر بـ 37،1 أسرة لكل وحدة سكنية، و34،2 فرد لكل غرفة (المصدر –خطة التنمية للأعوام 2010 -2014). وتعكس هذه المؤشرات اضطرار الأسر العراقية إلى شطر الوحدات السكنية وتقسيمها لإسكان اسر الأبناء والأقارب او للتأجير بحثاً عن مصادر دخل

إضافية.

● ومن تداعيات وردود الفعل الاجتماعية لغياب أو ضعف الفعل الحكومي لمعالجة أزمة السكن، تفاقم ظاهرة التجاوز على الأراضي والممتلكات العامة والخاصة، وخصوصاً من ذوي الدخل المنخفض والفقراء، لإقامة وحدات سكنية تفتقر إلى ابسط الخدمات وشروط ومواصفات السكن الملائم واللائق. وهكذا اتسعت ظاهرة السكن العشوائي ونشأت أحياء كاملة (أحياء ومدن صفيح او عشوائيات)، خارج المدن وفي محيطها، وفي السنوات الأخيرة، مؤخراً داخل المدن.

● وينجم عن كل ذلك زيادة الضغوط والأحمال على البنى التحتية المتهالكة وعلى الخدمات العامة، الضعيفة أصلاً، فضلاً عن تعطيل التنفيذ والالتزام بالتصميم الإسكاني.

● تؤكد البيانات أن مشكلة السكن هي أعمق وأكثر شدة في الريف مما هي في المناطق الحضرية.

● مشكلة السكن متعددة الأبعاد ولها جوانب ترتبط بمجمل الوضع الاقتصادي والاجتماعي، فهي تتعدى عدم توفر المسكن الملائم، لتشمل مشكلة عدم توفر او تردي البنى التحتية، وغياب أو نقص الخدمات العامة.

سياسات الإسكان في العراق

● ثمة اتفاق واسع بين المتخصصين في شؤون ومشاكل الإسكان، بما في ذلك المنظمات الدولية المتخصصة. أن العديد من البلدان النامية صاغت سياسات واستراتيجيات إسكان شاملة، ولكنها لم تتحول إلى أفعال وتطبيقات ملموسة إلا جزئياً.

● والعامل الرئيس المسؤول عن هذا الضعف أو الفشل في مجال الإسكان يعود إلى ضعف الإرادة السياسية اللازمة لمواجهة هذه المشكلة بطريقة منهجية متناسقة ومستدامة وعلى نطاق شامل، وتجربة العراق لا تخالف هذا الاستنتاج العام.

● بدأ الاهتمام في العراق بوضع دراسات ومخططات إسكانية ذات طبيعة شاملة لعموم البلاد أوائل خمسينيات القرن المنصرم، وابرز هذه الخطط والدراسات هو:

■ دراسة المؤسسة اليونانية دوكسيادس Doxiadis في عام 1956، (ومن أهم أعمالها وضع مخططات وتصاميم مدينة إسلام آباد في باكستان 1965، وتصميم مدينة الرياض عام 1972). وكان هدف الدراسة وضع تصميم حديث شامل لمدينة بغداد، وقد وضعت المؤسسة تصميماً لبرنامج سكن وطني National Housing Programme، وجرى الأخذ به وتطبيقه بعد ثورة تموز 1958 في تحديث مدينة بغداد، ومن أهم مشاريع هذا البرنامج بناء دور مدينة الثورة التي وزعت لسكنة الصرائف التي تمت إزالتها.

■ وفي أوائل السبعينيات تم التعاقد مع مؤسسة بول سيرفس البولندية Polservice للقيام بدراسة شاملة لواقع السكن في العراق واتجاهات تطوره واقتراح السياسة المناسبة لمواجهة احتياجاته الآنية والمستقبلية. وأنجزت المؤسسة عملها في النصف الثاني من عقد السبعينيات بتقديم مخطط الإسكان العام.

■ في عـــام 1986 وضع بـــاحثـــون عـراقيون، دراسة الـسياسة السكنية وإستراتيجية التنمية المكانية الشاملة لغاية 2000 التي أعدت عام 1988.

■ سياسة الإسكان الوطنية في العراق التي وضعتها وزارة الإعمار والإسكان عام 2010، بالتعاون مع برنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية .UN- Habitat

● تعتبر خطة التنمية الوطنية للأعوام 2010 – 2014 مخطط الإسكان العام لمؤسسة بول سيرفس، الدراسة الوحيدة التي ترقى إلى مواصفات سياسة وطنية شاملة او إستراتيجية للإسكان، إذ احتوت على العديد من المرتكزات والعوامل التي تضعها في موقع أقرب إلى إستراتيجية إسكانية شاملة.

● ومع أن هذه الدراسات والمخططات الإسكانية لم تكن ترقى جميعاً إلى استراتيجيات شاملة للإسكان، ولكن الالتزام بها كان سيرتقي حتما بواقع السكن في العراق ويحول دون تفاقم أزمته إلى المستويات المقلقة الراهنة.

● لقد فشلت الحكومات المتعاقبة، وبدرجات متفاوتة نسبياً، في تحقيق نسب معقولة من الأهداف والمشاريع التي تضمنتها الدراسات والمخططات الإسكانية. وارتباطاً بذلك تفاقمت أزمة السكن، إذ أشرت جميع الدراسات في أعلاه وجود عجز سكني متزايد (453 ألفاً حسب دراسة دوكسيادس عام 1956، 3.38 مليون وحدة حسب دراسة بول سيرفس سكنية ودراسة فريق الباحثين العراقيين بـ 4.2 مليون وحدة سكنية، أما وثيقة سياسة الإسكان الوطنية لعام 2010 فتقدر العجز بحوالي 2 مليون وحدة سكنية في المناطق الحضرية بحلول عام 2016).

ملامح سياسات السكن التي طبقت عملياً

● اعتمدت الحكومات المتعاقبة منذ مطلع الستينيات سياسات جزئية وتركزت على المناطق الحضرية فقط في جميع محافظات العراق، ويمكن تلخيص ابرز ملامحها بما يأتي:

1- تأمين قطع أراضٍ سكنية بأسعار مدعومة وخاصة لفئة الموظفين وبعض الشرائح الأخرى.

2- تقديم التسهيلات الائتمانية (القروض) لتنفيذ الوحدات السكنية بشروط ميسرة جداً تستمر لفترة (20 – 30) سنة، وتغطي حوالي (80 ٪) من كلفة الوحدة السكنية.

3- إعفاء الدور السكنية لأغراض الإيجار من الضرائب لفترات زمنية محدودة ومن ثم فرض ضرائب متدنية وكذلك في ما يخص ملكية تحويل العقارات السكنية.

4- توفير مواد البناء بأسعار مدعومة.

5- تأمين الخدمات الارتكازية المحيطة بالسكن بأسعار رمزية أو مدعومة بشكل كبير.

● عندما توفرت إرادة سياسية واضحة في التصدي لمشكلة السكن وتنفيذ المشاريع الإسكانية، تحققت بعض النجاحات الملموسة، وتنعكس هذه الإرادة في الموارد والأموال المكرسة لهذا القطاع، وفي مدى الحرص

والجدية في متابعة المشاريع وتذليل الصعوبات أمام انجازها من قبل القيادات السياسية.

● أهم النجاحات المحفورة في الذاكرة الجمعية، المشاريع الإسكانية العديدة التي أنشأت خلال السنوات الأولى التي أعقبت ثورة تموز 1958 رغم الأوضاع السياسية غير المستقرة. ولا شك في أن الاهتمام والمتابعة الشديدة من قبل الزعيم عبد الكريم قاسم وأعضاء حكومته كانا عاملاً أساسياً في تنفيذ هذه المشاريع.

● وثمة نجاح نسبي آخر تؤشره خطة التنمية إذ نجحت منظومة الإجراءات التي تمت الإشارة إليها في ما تقدم في رفع مستويات الإنتاج السكني للفترة من (1975-1985) إلى حوالي (50) ألف وحدة سكنية سنوياً وبمعدل نمو سنوي (0.75٪) أكثر من المعدل السنوي لنمو سكان العراق.

● تكشف تجربة العراق وبلدان نامية أخرى، أن إدارة ملف الإسكان غالباً ما يستخدم من قبل السلطات الحاكمة لخدمة أهدافها السياسية ولمنح المكافآت وكسب الولاءات. وفي ظل نظام البعث المباد، تمت ممارسة هذه السياسة بصورة منتظمة ومنهجية، حيث وزعت قطع الأراضي مع أشكال مختلفة من الدعم إلى القيادات الحزبية والأمنية والحكومية، وخضعت سياسة الإسكان إلى الاعتبارات الأمنية للنظام.

● وبعد التغيير، استخدم توزيع الأراضي في إطار إجراءات العدالة الانتقالية، اي إعطاء أولوية للشرائح والفئات والأسر التي لحق بها الظلم والغبن جرّاء سياسات النظام السابق، كما وزعت أيضاً على كبار المسؤولين في الحكومة الاتحادية والحكومات المحلية.

● توقفت سياسات الدعم والتحفيز منذ منتصف الثمانينيات، حيث انخفضت حصة قطاع البناء من إجمالي الناتج المحلي الإجمالي من (6.5 ٪) عام 1989 الى (0.47 ٪) عام 1996 وتحول العجز الإسكاني إلى مشكلة ثم إلى أزمة خلال فترة الحصار الاقتصادي (1999-2003) واستمرت حتى الوقت الحاضر. حيث تقلص عدد الوحدات السكنية المنجزة بين عامي (1989- 1996) بـ(97.5٪) عما كانت عليه في فترة الذروة (1975-1985)، ولم يتجاوز إجمالي انجاز الوحدات السكنية بضعة آلاف وحدة سنوياً.

● وبعد التغيير لم يشهد الاهتمام بقطاع السكن تحسناً، فانه على الرغم من العجز السكني الكبير إلا أن حصة القطاع من الاستثمارات الفعلية للسنوات 2004-2009 انخفضت من (5.5٪) إلى (1٪) عام 2009. ومؤخراً شكا وزير الإعمار والإسكان من ضآلة تخصيصات وزارته والتي لا تتراوح ما بين 1٪ - 2٪ من الموازنة العامة، والتي لا تسمح له سوى بتنفيذ بضعة آلاف من الوحدات السكنية، أي قطرة ماء في بحر الوحدات السكنية المطلوبة لسد جزء من العجز السكني.

● بناء على هذه المعطيات استخلصت خطة التنمية استنتاجاً يستحق الوقوف عنده ومناقشته، وهو عدم قدرة الاستثمار الحكومي على مواجهة المشكلة، وبالتالي

تأكيد ضرورة الاعتماد على القطاع الخاص المحلي والأجنبي في التصدي لهذه المشكلة الكبيرة.

● ويجدر الذكر أن إحصائيات وزارة التخطيط تشير إلى أن القطاع الخاص يلعب الدور الأساس في توفير المساكن، إذ بلغت نسبة ما أنجزه القطاع الخاص 84.4٪ من الوحدات السكنية في حين أن القطاع العام قد أنتج 15.6 ٪ فقط من الوحدات السكنية في منطقة وسط العراق.

● ولكن سنوات الحرب والحصار وتداعياتها أدت إلى انخفاض هائل في قابلية القطاع الخاص الوطني على إنتاج المساكن، ما يلقي مسؤولية أساسية على الدولة في زيادة مساهمتها في قطاع الإسكان، ولا سيما إزاء الشرائح الاجتماعية ذات الدخل المحدود والفئات المهمشة.

التحديات التي تواجه رسم سياسة إسكانية سليمة في العراق

1- اختلال التوازن بين العرض والطلب كما تؤشره مستويات العجز المرتفعة في الوحدات السكنية.

2- تعدد الجهات الحكومية المعنية بقطاع الأراضي والإسكان ما يؤدي إلى ظهور مشاكل مترتبة على ضعف التنسيق في ما بينها، وتوزع المعلومات والبيانات بينها ما يعيق توافرها لصانع السياسة ومتخذي القرار، وإضافة مزيد من التعقيد والأثقال والروتين على الإجراءات، ويجعل عملية رسم السياسة الإسكانية ومتابعة تنفيذها أكثر صعوبة.

3- فشل نظام إدارة وتوزيع الأراضي المعتمد في المناطق الحضرية، ما أدى إلى وجود نقص شديد في الأراضي الصالحة للبناء، في الوقت الذي توجد فيه نسبة عالية من الأراضي الموزعة أو التي في ملكية الدولة غير مبنية، بما في ذلك في المناطق المخدومة.

4- ضعف التمويل الحكومي لقطاع الإسكان وتخلف النظم والآليات والتشريعات والمؤسسات التي تعنى بتمويل البناء والاستثمار العقاري، وبما يشجع الاستثمار الخاص وتأمين مصادر تمويل لأعمال صيانة وتوسيع المساكن.

5- تحقيق الوضوح في السياسة إزاء الدور الذي يجب أن ينهض به القطاع العام في هذا القطاع، خصوصاً على صعيد الاستثمار والتنفيذ والإنتاج المباشر، وكذلك الوضوح في إستراتيجية تدخل الدولة ووجهة وآليات الدعم للقطاع.

6- سبل تمكين فئات الدخل المحدود والشرائح المتوسطة الدخل من امتلاك سكن، وتلبية حاجة الفئات العديمة والضعيفة الدخل والفئات المهمشة إلى السكن.

7- عدم التناسق والتوافق بين انجاز مشاريع البنى التحتية والخدمات والتوسع في البناء السكني ما يؤدي إلى وجود مناطق سكنية كثيرة غير مخدومة أو مخدومة جزئياً.

8- دعم صناعة مواد البناء المحلية، في القطاعين العام والخاص واعتبار ذلك ركنا أساسياً في إستراتيجية الإسكان الوطنية.

9- وضع سياسات وإجراءات قانونية واضحة لمعالجة مشكلة التجاوز وتحسين أوضاع المستوطنات العشوائية، واعتبار ذلك من الأولويات.

من تجارب السياسات الإسكانية الناجحة في البلدان المتقدمة

● مرت السياسة الإسكانية في معظم البلدان الأوروبية بمراحل مختلفة منذ الأربعينيات :

1- في الأربعينيات وبعد الدمار الذي خلفته الحرب العالمية الثانية، كان التركيز على إعادة بناء الإسكان المدمر باستخدام الأدوات القانونية والاقتصادية، وفي مقدمتها التحكم بالإيجارات والمحافظة على الأطر المؤسسية والتنظيمية القائمة.

2- أما في الخمسينيات والستينيات، وعندما كان العجز الإسكاني كبيراً، انتقل الاهتمام إلى التركيز على التمويل والاستثمار في إنشاء الإسكان الاجتماعي (المدعوم) الجديد. واوجد كل بلد هيكلية تنظيمية خاصة به لتحقيق هذا البناء، وكان للسلطات المحلية دور أساسي في ذلك، وأنشأت بعض البلدان مؤسسات متخصصة، تعتمد صيغ شراكة متنوعة بين القطاعين العام والخاص تتولى إدارة هذه عملية البناء الواسعة بجميع جوانبها، اي توفير الأراضي، تأمين التمويل، التنفيذ ووضع أسس ومعايير توزيع الوحدات، بيعاً أو تأجيراً. وفي هذه المرحلة كان التركيز على جانب العرض.

3- في السبعينيات والثمانينيات، وفي أجواء تحرير الأسواق والخصخصة ونمو القطاع الخاص، تحولت السياسة الإسكانية نحو دعم قطاع مالكي المساكن التي يشغلونها بدلاً من القطاع الاجتماعي. فتحوّل التركيز في سياسات الإسكان إلى الإجراءات التي تدعم جانب الطلب على السكن وليس العرض، وجرى التخلي عن التوفير والإنتاج المباشر للوحدات السكنية لصالح توسيع نطاق الشراكات مع القطاع الخاص، كما تم تشجيع الانتقال من التمويل بواسطة المصارف العقارية المتخصصة إلى نظام التمويل بواسطة المصارف الشاملة.

● يمكن استنتاج من العرض أعلاه، أن دور الدولة والقطاع العام يكون اكبر عندما تكون الحاجة إلى السكن كبيرة وملحة، وعندما يكون القطاع الخاص والمؤسسات المالية والأطر التنظيمية ضعيفة أو غير متطورة بالدرجة الكافية.

● إضافة الى ذلك، لا بد للدولة من تأمين حاجة الفئات والشرائح الاجتماعية التي لا تمتلك القدرة المالية الدنيا الضرورية لتأمين حاجتها في سوق السكن.

● بعض الاستنتاجات المستخلصة من التجارب الناجحة في مجال توفير السكن الاجتماعي المدعوم للفئات الضعيفة والمتوسطة الدخل يشير إلى الآتي في ما يتعلق بدور الدولة:

1- تخصيص الموارد اللازمة في الموازنة العامة للحكومة المركزية وللحكومات والإدارات المحلية بحيث لا تقل عن ٥٪ من الناتج المحلي الإجمالي، إضافة إلى إيجاد أدوات مالية مناسبة لاجتذاب مدخرات المواطنين لصالح المؤسسات المالية المتخصصة للقطاع العقاري وللاستثمار في مجال السكن.

2- إيجاد الهياكل والأطر المؤسسية التي تضم القطاعين العام والخاص، من مستثمرين ومستفيدين، والتي تأخذ على

عاتقها إدارة عملية تنفيذ المشاريع الإسكانية وتمكينها من تذليل القيود والمعوقات الإدارية والتنظيمية والتشريعية، ولا سيما في مجال إدارة وتوفير الأراضي اللازمة للبناء.

3- تأمين ذراع حكومي للتنفيذ المباشر، وخصوصاً للمشاريع السكنية لذوي الدخول الواطئة وللسكن الواطئ التكلفة.

مناقشة بعض مبادئ واتجاهات سياسة الإسكان الوطنية

● وضعت سياسة الإسكان لتحقيق الأهداف الآتية:

1- تيسير عملية الحصول على سكن لائق لجميع العراقيين.

2- زيادة كفاءة الإنتاج السكني.

3- زيادة خيارات العراقيين بالنسبة لنوع السكن والموقع وخصائص الحيازة.

4- زيادة قدرة الحكومة على تلبية احتياجات الفئات الخاصة.

5- تحسين كفاءة المنتجات السكنية.

6- رفع قدرة أصحاب المنازل لتحسين وتوسيع المأوى الحالي.

واعتمدت سياسة الإسكان خمسة مبادئ في صياغة توجهاتها:

1- توضيح دور القطاع العام والتركيز عليه. وتتحدد عناصر الدور المختصر للحكومة في قطاع الإسكان بالتوجيه وتحليل الطلب في السوق والتدخل التنظيمي والرقابي من اجل ضمان مستويات الجودة والخدمة والتكلفة للإنتاج السكني، ومعالجة الأطر القانونية والإدارية والفنية التي تعيق نمو المخزون السكني، والياء اهتمام خاص لاحتياجات الفئات المعوزة وبعض ذوي الاحتياجات الخاصة.

2- مساهمة جميع المجاميع المعنية بهذا القطاع (فئات شركات الاستثمار والتشييد المختلفة) وتمكين الأسر من بناء وحداتهم السكنية، والتركيز على شرائح السكان المحرومة.

3- إعادة بناء نظام تمويل الإسكان عبر التطوير والتوسع في مؤسسات التمويل الرئيسية، وضمان تدفق الموارد للقطاع، وتامين استرداد أموال المقرضين.

4- تفضيل العمل بمبدأ اللامركزية وتفويض الحكومات المحلية صلاحيات الحكومة المركزية في مجالات استعمالات الأراضي والبنية التحتية.

5- اعتماد أساليب جديدة للإسراع في توفير المنتجات الإسكانية عبر إيجاد مناهج ريادية محددة للتنفيذ.

واستناداً إلى هذه المبادئ، يتم تحديد السياسات التفصيلية في سبعة مجالات :

1- إدارة الأراضي.

2- إنتاج الوحدات السكنية.

3- تمويل الإسكان .

4- البنية التحتية للإسكان.

5- إدارة وصيانة المساكن.

6- الإسكان ومواد البناء.

7- السكن العشوائي (غير المنظم).

ملاحظات عامة حول السياسة الموضوعة:

● تضمنت السياسة المقترحة عدداً من التوجهات والمعالجات السليمة، من أهمها:

■ مقترحات الإصلاح المؤسسي وضرورة معالجة التعدد والتشتت في

الجهات المعنية بقطاع الإسكان، عبر تفعيل هيئة المجلس الأعلى للإسكان، المعطل حالياً، كمرجعية عليا للقطاع.

■ اعتماد اللامركزية، عبر تفويض صلاحيات الحكومة المركزية إلى المحافظات في مجال إعداد وتنفيذ وإدارة الأراضي وجمع المعلومات وفرض ضرائب لتمويل أنفاقها على بناء وصيانة البنى التحتية ومشاريع الإسكان للفئات الضعيفة الدخل.

■ مراجعة الأطر القانونية والتنظيمية لتذليل المعوقات وتجاوز الاختناقات.

■ التأكيد على إنشاء وإدامة برنامج الكتروني وطني لتسجيل الملكية.

■ التوجه نحو بناء شراكات بين القطاعين العام والخاص وإحياء حركة الإسكان التعاوني.

■ اقتراح إجراءات لمعالجة ظاهرة قطع الأراضي الشاغرة في المساحات المفروزة.

■ تحديث نظام التمويل الإسكاني، وبشكل نظام الرهن العقاري. ولكن من المبكر التعويل على البنوك التجارية لتلعب الدور الرئيس في تمويل المشاريع الإسكانية بسبب ضعف رؤوس أموال المصارف الخاصة وضعف قدرتها على إدارة المخاطر.

● بالمقابل اعتمدت السياسة الإسكانية المقترحة منطقاً ليبرالياً انعكس في تقليص دور الدولة، وبشكل خاص، في المجال الإنتاجي في الوقت الذي لا يمثل فيه سوى 15٪ من الإنتاج السكني، وكذلك في التأكيد على تحويل الدعم والتدخل الحكومي من جانب العرض إلى جانب الطلب، في الوقت الذي يقتضي فيه حجم الأزمة المتفاقمة حلولاً قابلة للتنفيذ في آماد زمنية قصيرة نسبياً وتلبية حاجة ماسة لفئات وشرائح واسعة ضعيفة الدخل لا تمتلك طلباً فعالاً. ويجدر التأشير إلى أن ضعف أداء مؤسسات القطاع الحالي لا يعود في جزء كبير منه إلى طبيعته العامة وإنما إلى السياسات الحكومية المعتمدة وغياب التوجهات الجدية لإصلاحها، وفي محاربة الفساد.

● ومن جانب آخر تؤكد التجارب التي استعرضنا بعضها آنفاً، أن القطاع العام لعب دوراً مهماً في المراحل التي تقترب من وضع العراق، وتم الانتقال إلى منطق سياسة الإسكان في مراحل لاحقة.

● إن تحقيق النهضة المطلوبة في قطاع الإسكان، وفي ضوء قدراته التنفيذية المحدودة والضعيفة الحالية، يتطلب الارتفاع بمعدلات الاستثمار في القطاع السكن إلى أكثر من 5٪ من الناتج المحلي الإجمالي ومضاعفة قدرات الإعمار الوطنية عدة مرات، وتشمل هذه القدرات صناعة المواد الإنشائية وتطوير أساليب البناء وإدارته وتوفير يد عاملة ماهرة وتشكيل شركات بناء كبيرة الحجم وغيرها. ولا يمكن تحقيق ذلك دون توفر إرادة سياسية قوية وتدابير خلاقة تقع مسؤوليتها بالأساس على عاتق الدولة، ويتطلب ذلك تحديث وإصلاح المؤسسات والشركات العامة ومواجهة هيكلتها وأنظمتها وأساليب عملها.

● إن الاستثمار في العراق لا يزال بالنسبة للشركات الأجنبية محفوفاً بمخاطر عالية ما يدفعها إلى المطالبة بتسهيلات ومعدلات ربح أعلى من اجل المجيء، وليس خافياً على احد أن تخلف أنظمتنا الإدارية

والمالية والروتين وتعدد الجهات الرسمية والفساد الإداري تشكل معوقاً رئيسياً أمام استقدام الشركات الكبرى الرصينة، وهذا ما أكدته المشاريع الكبرى التي كانت تتفاوض هيئة الاستثمار مع شركات ومطورين أجانب، والاتفاقات لم تنجز كلياً بعد مرور سنتين أو ثلاث. ويطرح كل ذلك أسئلة جدية حول فعالية الإستراتيجية المقترحة لمعالجة أزمة السكن الحادة في غضون فترات زمنية معقولة.

● إن افتراض وجود وعمل آليات السوق في الاقتصاد العراقي على غرار فعلها في الاقتصادات المتقدمة لا أساس له في الواقع، فلا تزال آليات السوق يعوزها التنظيم الضروري ويحد من فاعليتها غياب شروط المنافسة الحقيقية.

● أهملت الخطة معالجة سكن الفئات المهمّشة، ولم تشر إلى المضاربات في سوق السكن، كما لم تتطرق إلى التنمية المستدامة في مجال الإسكان، ولا توجد إشارة إلى الدراسات السابقة في مجال سياسة وتخطيط الإسكان.

● تشير التجارب إلى أن مفتاح النجاح في تنفيذ سياسات الإسكان يكمن في توفر إرادة سياسية مقترنة بحس الامتلاك المحلي وقيادة فعّالة مع تعبئة قدرات وإمكانات جميع ذوي العلاقة والشأن، وبشكل خاص الناس أنفسهم، وقد انتبهت الدراسة إلى ضرورة إشراك شركات ومؤسسات القطاع الخاص، ولكنها لم تشر إلى كيفية إشراك الناس، أي المستفيدين من عملية رسم وتنفيذ سياسة الإسكان.

المصادر:

1- خطة التنمية الوطنية للأعوام 2010- 2014، وزارة التخطيط والتعاون الإنمائي، 2009
2- طاولة حول الإسكان في العراق،الثقافة الجديدة، العدد 346، تشرين الأول 2011.
3- سياسة وزارة الإعمار والإسكان، "سياسة الإسكان الوطنية في العراق"، تشرين الأول 2010.
4- وزارة الإعمار والإسكان، "سوق السكن في العراق، التقرير الرئيسي"، كانون الأول 2006.
5- د.احمد بريهي العلي، "السكن وإمكانية الإعمار في العراق"، 2011.
6- د.صباح العزاوي، "مقاربة للإسكان، بغداد العاصمة أنموذجاً"، ورقة غير منشورة، مايس 2011.
7- موفق الطائي،" ملاحظات حول مخطط الإسكان العام"، ورقة غير منشورة.
8- Housing policy and vulnerable social groups, Council of Europe publishing, May 2008
9- Urban Housing challenges and opportunities in Develping countries, UN Habitat,

* ورقة قدمت في الطاولة المستديرة حول "مشكلة الإسكان، الواقع والتحديات" التي نظمها في بغداد مركز الدراسات العلمية المتخصصة في 2012/6/22

العلاقة بين الحكم الرشيد والمواطنة الفاعلة وتحقيق التنمية المستدامة

(تجربة إقليم كوردستان)

د.كاوه محمود
وزير الثقافة والشباب في حكومة اقليم كوردستان

في البداية علينا أن ننطلق من قناعة مفادها أن بناء الحكم الرشيد والمواطنة الفاعلة لا علاقة مباشرة بالعمل من أجل التنمية المستدامة. وهذه المسألة قضية مجتمعة، وهي ليست مهمة وزارة أو مؤسسة واحدة، فهي تتعلق بعمل جملة من وزارات حكومة الإقليم، إضافة الى عمل مؤسسات المجتمع المدني من خلال وجهة سياسية واضحة وفهم عميق لمفهوم الحكم الرشيد ولمفهومي المواطنة والتربية أو التنشئة السياسية والتعليم المدني، وارتباط الموضوع بمفهوم التنمية المستدامة ووضع خطط واستراتيجيات قطاعية، إضافة الى خطة التنمية، وبلورة الأمور ضمن آليات مرنة تتوفر فيها مجالات المتابعة والتدقيق والتقييم، لتشخيص العراقيل والثغرات من اجل تجاوزها وتصحيح مساراتها.

كما ينبغي القول بأن العمل في هذا المجال يتطلب التحلي بالنفس الطويل، وإشراك الجهة المستهدفة في وضع الخطط والاستراتيجيات وتنفيذها ومتابعتها، من خلال الشراكة الحقيقية، والإيمان بأن العمل ضمن هذه الوجهة يتطلب تحقيق تراكمات كمية وخطوات تلو الخطوات وان كانت في بعض الحسابات متواضعة، لكي تتحول تلك التراكمات الكمية إلى حالة نوعية جديدة تستجيب لسنن التطور والتقدم الاجتماعي.

إننا نواجه مسألة سوسيولوجية حساسة تأتي ضمن نظريات التغيير الاجتماعي، والتي تعتبر مادة أساسية في السوسيولوجيا. فالعلاقات التقليدية التي ظهرت ما قبل الحداثة الرأسمالية لا تتحول من خلال الرغبة أو الارادوية إلى علاقات مدنية، إلا ضمن سياق التطور التأريخي وتوفير مستلزماته، لبلورة فكرة المواطنة في بلدنا، والتي هي حتى الآن فكرة تحمل معها التباساتها أو إشكالياتها بسبب طبيعة الدولة والأنظمة الحاكمة السابقة، وحالة عدم التوازن في التعامل بين الهويات الثقافية المحلية والهوية الوطنية في الوقت الحاضر.

وانطلاقا من هذه النقطة علينا مراعاة مسألة الحقوق الفردية كأساس للمواطنة ضمن منطلقات الفكر الليبرالي، إضافة إلى كون الفرد جزءاً من مجموعة تمتلك مكوناتها الثقافية، إضافة الى الجانب السياسي والولاءات الإيديولوجية.

وعموما يجب أن نقر بأن عملية التربية المدنية وترسيخ قيم المواطنة في بلدنا يتمان ضمن إطار التناقضات المجتمعية والصراعات الدائرة، وقدرة قوى التغيير الاجتماعي من خلال توسيع تحالفاتها وتحييد خصومها، وواقعية برامجها والتركيز على الحامل الاجتماعي لمشروع التمدن، لتتحول من سياسات فوقية إلى إجراءات عملية، لا تكون محصورة في مجال تفكير النخب السياسية فقط. فالعمل في هذا المجال يتعلق بالصراع حول طبيعة هوية المجتمع ورسم تجلياتها، ويجب التعامل مع هذه الهوية وفق منطق الحركة لا السكون، وضمن هذا التوجه أود أن أشير إلى المجالات الأساسية التي ركزت عليها حكومة إقليم كوردستان في عملها خلال السنوات السابقة، آخذا بنظر الاعتبار التناقضات المجتمعة، وحماية التجربة الكوردستانية التي انبثقت بعد انتفاضة آذار/1991، ومراعاة طابع المرحلة الانتقالية في عموم العراق، تلك المرحلة التي تعتبر حساسة في مسيرة الشعوب، وعلى حد قول المفكر الايطالي كرامشي: فان المرحلة الانتقالية تكون صعبة دائماً لان القديم يموت، والجديد لم يولد بعد.

إنجازات تشريعية

ففي المجال التشريعي، أنجز برلمان إقليم كوردستان جملة من التشريعات التي تعتبر أساسية في مجال التربية المدنية وترسيخ قيم المواطنة، وفق وجهة سياسية أساسية بهدف بناء نظام حكم ديمقراطي مدني في الإقليم، على أساس مفهوم دولة القانون والمؤسسات الدستورية وحقوق المواطنة، والتساوي بين أبناء كوردستان بغض النظر عن الانتماءات القومية والدينية والمذهبية، وصيانة حقوق الإنسان المنصوص عليها في المواثيق الدولية.

كما عدل البرلمان جملة من القوانين العراقية باتجاه المزيد من التمدن وتجاوز آثار سياسات الديكتاتورية.

وضمن هذه الوجهة نشير على سبيل المثال لا الحصر إلى جملة من القوانين والتعديلات:-

- إجراء تعديلات على قانون العقوبات العراقي بما يخفف من جهة القسوة في العقوبات، واعتبار جرائم الشرف جرائم عادية لا تستوجب تخفيف العقوبة في الجهة الثانية.
- إصدار قانون الهيئة المستقلة لحقوق الإنسان، حتى لا تكون هذه الهيئة تابعة للحكومة.
- إجراء 26 تعديلا على قانون الأحوال الشخصية المرقم 188/لسنة 1959 في عام 2006.
- إصدار قانون رقم 8 لسنة 2011، حول مناهضة العنف الأسري.
- تعديل قانون انتخاب البرلمان الكوردستاني بما يضمن الكوتا للنساء وخفض سن الترشيح للبرلمان إلى 25 عاما.
- إصدار قانون رقم 1 لسنة 2011،

قانون منظمات المجتمع المدني ووفق هذا القانون يتم تشكيل منظمة المجتمع المدني بمجرد التسجيل في دائرة منظمات المجتمع المدني.

– إصدار قانون الجمعيات والأحزاب.

– إصدار او تشريع قانون رقم 35 حول العمل الصحفي، ووفق هذا القانون ليست هناك ضرورة لأخذ الموافقة من الحكومة لإصدار الجرائد والمجلات، بل الاكتفاء بتسجيل الجرائد والمجالات لدى نقابة الصحفيين.

– يناقش في الوقت الحاضر في البرلمان مشروع قانون الحصول على المعلومات على أساس تمكين المواطن وتوفير مستلزمات ممارسة حق الحصول على المعلومات.

– إصدار قانون تنظيم التظاهر.

الدولة... المواطن... التباسات في العلاقة

أتت هذه التشريعات ضمن مستلزمات استكمال المرحلة الانتقالية من الديكتاتورية إلى بناء الديمقراطية في الإقليم. وانطلاقاً من التعقيدات الموجودة في الوضع الكوردستاني وما تتميز به أغلب مجتمعات المنطقة من إشكاليات حول العلاقة بين الدولة والمواطن، وبسبب الخلفية التاريخية لتلك العلاقة كون الدولة متمثلة بالأنظمة الحاكمة من خلال ممارساتها أفرزت نموذجا قمعياً وكرّست القمع وانتهاك الحريات، وفي النتيجة النهائية لم تحقق الديمقراطية وفشلت في التنمية، طرحت من جديد في الأجندة السياسية على صعيد المنطقة عموما، محاور أساسية تتعلق بالعلاقة بين الدولة والمجتمع من حيث أبعادها وحدودها، ومن خلالها علاقة المواطنين بالأقاليم التي يقطنون فيها.

وقد ساعدت عوامل وتطورات على الصعيد الدولي في الحديث عن إعادة صياغة هذه العلاقة، منها: الاستقلالية النسبية لوظيفة الدولة، وتطور مفهوم الدولة من خلال إعادة النظر في وظائفها، بغض النظر عن طبيعة الحكومة التي تأتي وتذهب عن طريق الانتخابات، وساهمت في شيوع مفهوم الدولة الليبرالية الجديدة التي تدعو إلى الحد من تدخل الدولة في التنمية، وفرض برامج التكييف الهيكلي، ومن ثم انتقاد تلك البرامج بسبب نتائجها، في إنتاج استراتيجيات جديدة للتنمية بالاعتماد على فاعلين أساسيين في المؤسسات الحكومية وفي القطاع الخاص، إضافة إلى ضرورة وجدود مجتمع مدني فاعل لتنفيذ تلك الاستراتيجيات. وبالتزامن مع هذه التطورات أضافت العولمة حالة جديدة وهي كسر احتكار الدولة للمعلومة.

التنمية البشرية المستدامة بديلاً عن النمو الاقتصادي

أنتجت كل هذه التطورات مفهوم التنمية البشرية المستدامة والتي تعني حسب

برنامج الأمم المتحدة الإنمائي "توسيع الخيارات المتاحة لجميع الناس في المجتمع.. وأن تتركز عملية التنمية على النساء والرجال.. والفقراء والفئات الضعيفة.. وحماية فرص الحياة للأجيال المقبلة والنظم الطبيعية التي تعتمد عليها الحياة" (1).

وضمن هذه الوجهة جرى التأكيد على أن هدف التنمية: "خلق بيئة تمكينيّة يمكن أن يتمتع الجميع فيها بحياة طويلة وصحية ومبدعة.. وان النمو الاقتصادي ليس غاية في حد ذاته بل وسيلة لتحقيق التنمية البشرية المستدامة" (2).

ركزت جوانب التنمية المستدامة على التمكين، التعاون، الإنصاف، الاستدامة والأمن. أما العناصر الأساسية فتتجسد بالقضاء على الفقر، خلق الوظائف واستدامة الرزق وحماية التنمية، النهوض بالمرأة.

اعتمدت حكومة إقليم كوردستان على وجهة التنمية المستدامة، والتي تستند في تحقيق أهدافها الى تنمية القدرة على الحكم الرشيد، وتتطلب هذه الوجهة إعادة صياغة العلاقة بين الدولة والمواطن، من الدولة الراعية إلى الدولة الشريكة في التنمية. وهذه العلاقة بمثابة عقد اجتماعي جديد، ولكن يجب أن نقر بأن هذا العقد غير منجز في مجتمعنا، لكننا بدأنا به ولسنا في نقطة الصفر، ويتطلب هذا العقد مفهوما جديدا للحكم.

الحكم الرشيد
أساساً للتنمية المستدامة

أشار البنك الدولي في تعريفه الى الحكم الرشيد ارتباطا بمفهوم الحكم الذي يعني ممارسة السلطة السياسية والاقتصادية والإدارية في تصريف شؤون البلد على جميع المستويات، من خلال مجموعة آليات وعمليات وعلاقات، إضافة إلى المؤسسات المركبة التي يعبر من خلالها المواطنون عن مصالحهم. أما الحكم الرشيد فيعني "توزيع الموارد وإدارتها من زاوية الاستجابة للمشكلات الجماعية ويتميز بالمشاركة، سيادة القانون، الشفافية، الاستجابة، التوجيه نحو البناء، توافق الآراء، الإنصاف، الفاعلية والكفاءة، المساءلة أمام الجمهور، الرؤية الإستراتيجية" (3). وبالتالي نحن أمام صياغة مفهوم جديد للحكم أو للدولة من خلال وظيفتها.

أدركت حكومة الإقليم بأن المجتمع القائم على حكم رشيد شرط مسبق لتحقيق التنمية العادلة الكفوءة والفعالة، وبالتالي يأتي مفهوم الحكم الرشيد ضمن أسس التنمية المستدامة.

ومن البديهي بأن العلاقة الجديدة بين المواطن والدولة تتطلب توفير الثقة. فالمواطنة تعني تمتع الشخص بحقوق وواجبات وممارستها في بقعة جغرافية معنية لها حدود معينة تعرف بالدولة او الكيان السياسي الذي يستند إلى حكم القانون.

وتتطلب المواطنة المشاركة في الحياة العامة، المشاركة في الانتخابات وفي المجتمع المدني وصفوف الأحزاب. وتأتي مسألة الثقة التي تعني مدى القبول الشعبي لشرعية المسؤولين الحكوميين، أساساً للتواعد التي تنظم النظام السياسي، والقناعة بأن المسؤولين يعملون من اجل تحقيق المصلحة العامة.

إن ما نحتاجه في كوردستان تجاوز مفهوم الثقة العمياء الى الثقة الذكية التي تخلق قدرا من الشك المسؤول وتساهم في خلق الرقابة وتفعل آليات المساءلة. وأرى ضرورة التمييز بين الثقة السياسية في الحكومة والأحزاب وبين الثقة بالعمل المؤسساتي للسلطات والأجهزة الرسمية، فالأخيرة بحاجة إلى نوع من الديمومة، وتساهم في خلق الأمن المجتمعي ويكون بديله الفوضى وتقويض ما أنجز من خطوات في المشروع الديمقراطي المدني، أما الثقة السياسية التي تكون أكثر عرضة للتغيير والتبدل، فتعتمد على مخرجات الحكومة من قرارات وسياسات تتفق مع رغبات الناس في الأمن والرفاهية.

تتوفر الثقة السياسية بالحكومة من خلال وفاء الحكومة بالبرنامج المعلن، وتمثيل المجتمع بكل مكوناته دون تمييز، وتوفير ظروف معيشية كريمة، إضافة الى تحسين القدرات وتنمية المهارات البشرية. المواطنون يريدون من الحكم الفعل لا القول والحديث عن قرارات لا تتحول إلى واقع ملموس.

وأعتقد بأن تعزيز الثقة بالعمل البرلماني في كوردستان يتطلب توفير حرية أوسع لعضو البرلمان في التعبير عن رأيه الشخصي كونه ممثلاً للشعب، وعدم موافقة الكتلة البرلمانية الأكبر على مشاريع قوانين الحكومية بالإجماع أو ما يشبه الإجماع، دوماً.

ترسيخ القيم والمسؤولية المدنية أساساً للمواطنة الفاعلة

تعتمد إستراتيجية الحكم الرشيد والمواطنة الفاعلة في خطوطها الأساسية على الترويج للقيم المدنية والمسؤولية المدنية، وعقد شراكات مدنية بين منظمات المجتمع المدني والمؤسسات الحكومية العامة والقطاع الخاص، وتمكين الارتباط المدني المسؤول. أما إستراتيجية المواطنة الفاعلة فهي دعوة للعمل ودعوة إلى أدوار وفرص ومبادرات جديدة في العمل المدني والمسؤولية المدنية.. وتعني مسؤولية اجتماعية اكبر.. وقدر اكبر من الشفافية والقابلية للمحاسبة واحترام حقوق المواطنين ومشاركتهم.

إن المواطنة الفاعلة "تعني الانخراط النشط في عملية التغيير الاجتماعي، في التعليم المدني والفعل المدني والممارسات المدنية، وقدر اكبر من مشاركة المواطنين وتأثيرهم في الحكم، وتعزيز القدرات على التعبير وتمكين المواطنين ولا سيما النساء والشباب والفقراء" (4).

ومن الناحية العملية فان لدينا في كوردستان نقصا واضحا في تجربتنا في مجال توفير الشراكات المدنية التي هي عملية عامة لصنع القرار وتنفيذه ومن خلالها يجري إعلام المواطنين والاتصال بهم والاستجابة لهم ومشاركتهم في إدارة ومراقبة الموارد العامة. وحسب مبادئ الحكم الرشيد وحسب المواطنة الفاعلة فان الحكم الرشيد ليس منتدى لتنافس الأفكار المتعارضة أو مجلسا لتلقي الشكاوى.

تنطلق سياسة الحكم الرشيد في إقليم كوردستان على أساس أن دور المؤسسات العامة في عملية صنع القرار مبنية على أساس اتصالها بالمواطنين ومن خلال الاستجابة لهم، وتوفر الموارد العامة والالتزام بحقوق الإنسان، ومشاركة المجتمع المدني واحترام حكم القانون والشفافية في تخصيص الموارد، ومراعاة مبدأ اللامركزية في الإدارة ومراعاة الخصوصيات المحلية. وعلى هذا الأساس تأسست مؤسسة الحكم الرشيد (الحوكمة) في كوردستان.

مكتب الحوكمة والشفافية في حكومة إقليم كوردستان

تم الإعلان في الكابينة الخامسة عن إستراتيجية الحكم الرشيد والشفافية رسميا في تموز/2009، وركزت على مبادرة تطوير الآليات التي تجعل حكومة الإقليم أكثر انفتاحا وكفاءة وتحملا للمسؤولية وقادرة على ضمان استخدام الأموال العامة للأهداف التي رصدت من اجلها.

جرى تأسيس مكتب الحكومة والنزاهة في الكابينة السادسة شباط /2010، كهيئة مسؤولة عن الإستراتيجية والعمل مع الوزارات والإدارات نحو حكومة أكثر شفافية ولتحسين حقوق الخدمات الحقوق المواطنين.

ركزت إستراتيجية الحوكمة في الإقليم على أربعة مبادئ أساسية وهي:

"مبدأ سيادة القانون.. الخدمة العامة أمانة عامة... يجب أن تكون الوظائف الحكومية منفتحة وشفافة.. استخدام الأموال العامة للأغراض التي رصدت من اجلها" (5).

لقد كانت حصيلة العمل خلال السنوات الماضية ما يأتي:

"تأسيس مكتب الحكومة والنزاهة.... مدونة القواعد السلوكية والمعيشية لجميع موظفي حكومة الإقليم.... اقتراح تشريعات حول النزاهة ومكافحة الفساد.... برامج تدريجية حول مكافحة الفساد والنزاهة... التعاون مع خبراء دوليين في مجال الحوكمة.... إصلاحات في الخدمة العامة.... تقوية ممارسة الإدارة المالية.... إصلاح السياسات في مجال العقود.... مشاركة المجتمع المدني" (6).

ورغم الانجازات فان المكتب ركز فقط على أربعة مبادئ أساسية للحكم الرشيد،

في حين أن مفهوم الحكم الرشيد ومبادئه أشمل من النقاط الأربع التي تمت الإشارة إليها. كما لم تربط تلك المؤسسة في عملها بين مفهوم الحكم الرشيد ومفهوم التنمية المستدامة. كما يمكن تلمس ضعف الشراكة في عمل المؤسسة مع منظمات المجتمع المدني، وعدم وجود العلاقة بين هذه المؤسسة والمؤسسات التي تعمل من أجل المواطنة الفاعلة أو التربية المدنية.

وعلى الرغم من الانجازات المتحققة في مجال التشريعات وفي مجال السياسيات ورسم استراتيجيات قطاعية وإستراتيجية التنمية 2012 – 2016، فان لدينا نقصاً في مجال رسم إستراتيجية المواطنة الكوردستانية الفاعلة التي توفر أساساً وحاملاً اجتماعياً لمشروع التغيير الاجتماعي ولتحقيق التنمية والحكم الرشيد. وبخلاف ذلك فان ظاهرة التهميش الاجتماعي سواء على صعيد الأفراد أو المكونات أو المناطق، من شأنها نسف كافة الانجازات في مجالات التنمية والحكم الرشيد والتي بذلت لها جهودا كبيرة خلال الأعوام الماضية.

ولأجل متابعة ما جرى تحقيقه والاستمرار في المضي لا بد من تفعيل دور المواطن من خلال وضع منظمات المجتمع المدني أمام مسؤوليتها، عبر إشراكها للتأكيد على القيم المدنية في العلاقات الشخصية، والترويج لتجديد الاهتمام بالمسؤولية المدنية وشرعيتها. والترويج لقيمة المبادرة الفردية، والنماذج الايجابية، وتربية مواطني المستقبل على القيم المدنية وأخلاق المواطنة.

كما ينبغي التركيز على إعطاء الفرصة للمواطنين المهمشين وذوي الاحتياجات الخاصة عند رسم السياسات، والتعبير الواضح عن مصالح المواطن، وطرح الحلول البديلة للإشكاليات، وتوفير إعلام أفضل للمواطنين بخطط المؤسسات العامة وأولويتها، وحث منظمات المجتمع المدني على تعزيز الشراكة مع الحكومة، والاستمرار في تحسين أداء المؤسسات الحكومية.

إن إستراتيجية ناجحة لإقليم كوردستان في مجال المواطنة الفاعلة يجب أن تركز المساواة الجندرية، ورسم السياسات الكفيلة بالحد من الفقر، والترويج والتثقيف والالتزام بالمبادئ الأساسية لحقوق الإنسان.

معوقات أمام فكرة المواطنة الفاعلة

وفي مجال هذا العمل يمكن تشخيص المعوقات الآتية:

– الإرث السابق وضرورة الاستمرار في تصفية آثار ونتائج الصراعات الداخلية.

– ضعف التنسيق بين الجهات الحكومية نفسها وعدم الاهتمام بفكرة التربية المدنية في أولويات اهتمام عمل الوزارات.

– إشكاليات الحياة الحزبية المبينة على أسس تقليدية، وتأثير القوى تقليدية في المجتمع والقوى المحافظة، إضافة الى القوى التي توظف الدين من اجل أهداف سياسية مما ينتج هويات دينية ضعيفة ومنعزلة.

– استمرار المرحلة الانتقالية وما يترتب عليها من تناقضات وصراعات حول الهوية المستقبلية للمجتمع الكوردستاني.

– عدم التوازن بين الهويات المحلية والهوية الكوردستانية التي نسعى إلى بلورتها وتعميقها.

– استغلال بعض المنظمات المدنية في صراعات حزبية من خلال عدم الدقة في المعلومات.

معالجات ضرورية

1– ضرورة تشكيل مجلس حكومي يضم وزارات التربية، الثقافة، التعليم العالي، التخطيط، الداخلية، المجلس الأعلى للمرأة، هيئة حقوق الإنسان، باسم بورد التربية المدنية وتعزيز المواطنة ـ وتعزيز مكتب الحوكمة وتحويلها إلى مؤسسة الحكم الرشيد.

2– حث منظمات المجتمع المدني العاملة في هذا المجال على تشكيل شبكة خاصة بهذا المجال على هامش العمل الحكومي.

3– التركيز على قيم الحكم الرشيد والمواطنة.

4– التعامل مع المفهوم (مفهوم المواطنة أو الدراسة المدنية) كونه مفهوما يتطور بتطور المجتمع وحاجته والمكتسبات في مجال العلم والتطور في مجالات المعرفة.

5– تعزيز قيم الحريات الدستورية وإيجاد آليات وقوانين ونظم تمكن المواطن من ممارسة هذه الحقوق.

6– توسيع دائرة التخطيط عند اتخاذ القرارات في المشاريع الاستثمارية ومراعاة الفئة المستهدفة بشكل مباشر أي التشاركية.

7– الاستمرار في الاستعادة من البرامج الحوارية بين السياسيين ورجال الحكومة مع المواطنين والشباب بشكل عام.

الهوامش:

(1) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي 1997.

(2) المصدر السابق.

(3) المصدر السابق.

(4) الوكالة الكندية للتنمية الدولية/ الوثيقة الخاصة بإستراتيجية الحكم الرشيد في مصر.

(5) إستراتيجية الحوكمة والشفافية لحكومة إقليم كوردستان.

(6) المصدر السابق.

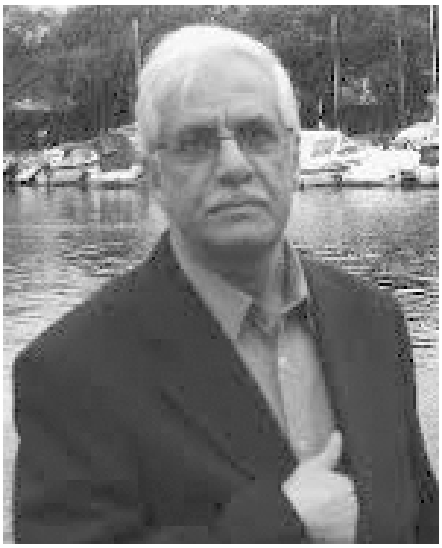

الفكر السياسي الناظم لمراحل تطور الدولة العراقية

لطفي حاتم
عميد كلية القانون والعلوم السياسية في الجامعة العربية المفتوحة في الدنمارك

تتمتع دراسة الفكر السياسي الناظم لمراحل تطور الدولة العراقية بأهمية بالغة في الظروف التاريخية المعاصرة وذلك بسبب حدة السجال الدائر بين القوى السياسية العراقية حول آليات وأساليب تنفيذ النصوص الدستورية الضامنة لبناء شكل الدولة الفدرالي، فضلاً عن ترسيخ مبدأ التداول السلمي لسلطة البلاد السياسية. وبهذا المسار يتعين طرح بعض الموضوعات الفكرية الضرورية الهادفة إلى تأطير السجال الفكري في لوائح منهجية يراها الباحث بالموضوعات الآتية:

الموضوعة الأولى: سعى الفكر السياسي الكولونيالي البريطاني إلى بناء شكل الدولة العراقية بناءً مركزيا موحداً رغم تعدد الأعراق والقوميات في تشكيلة العراق الوطنية، وبهذا المنحى حافظت الدولة حتى انهيارها بعد الاحتلال الأمريكي على شكل بنائها المركزي الموحد .

الموضوعة الثانية: ترافق بناء شكل الدولة العراقية الموحد مع نظام سياسي فاقد للشرعية السياسية بسبب غياب الآليات الديمقراطية الضامنة لتداوله بين القوى الوطنية. وبهذا المعنى جرى اختزال الدولة العراقية إلى سلطة سياسية استبدادية مغتربة عن مكوناتها الاجتماعية والقومية .

الموضوعة الثالثة: انتقال الدولة العراقية من بنائها الموحد إلى شكلها الفدرالي أرسى حقا دستوريا للشعوب الأخرى بالانفصال وتشكيل دولها القومية رغم أن حق تقرير المصير يتطلب وحدة البلاد الوطنية المرتكزة على ميول الاتحاد بين الدول التي يشترطها الطور المعولم من التوسع الرأسمالي.

الموضوعة الرابعة: بناء دولة عراقية فدرالية ديمقراطية تتطلب عقلا سياسياً استراتيجياً جامعاً بين المصالح الوطنية

للدولة العراقية وبين توازن مصالح مكوناتها الاجتماعية والقومية.

استناداً إلى تلك الموضوعات الفكرية فان دراسة مراحل تطور الفكر السياسي الناظم لمراحل تطور الدولة العراقية تتطلب الإيجاز والتكثيف ساعين جهد الإمكان إلى تناول البحث بمواضيع عامة مكثفة عبر الحقب التاريخية الآتية:

أولاً: العقل السياسي الناظم لنشوء وتطور الدولة العراقية.

ثانياً: الفكر السياسي الناظم لسياسة الجمهورية الأولى.

ثالثاً: الفكر السياسي المتحكم في الجمهورية الثانية.

رابعاً: الفكر السياسي المتسيد في مسار الجمهورية الثالثة.

قبل البدء بتناول العقل السياسي الموجه لتطور الدولة العراقية التاريخي يتعين تقديم بعض الموضوعات الفكرية/ الاجتماعية التي تشكل أساساً منهجياً فاحصاً لذلك العقل السياسي عبر المداخل الآتية:

المدخل الأول: ترابط الفكر السياسي لمنظومة العراق السياسية – السلطة والمعارضة – وطبيعة أسلوب الإنتاج السائد والموصوف بأنه شبه إقطاعي شبه رأسمالي ورأسمالي تابع في مرحلتي الملكية والجمهورية، مشيراً إلى أن منظومة العراق السياسية في المرحلة الملكية تأثرت بالوافد الكولونيالي من حيث بناء شكل الدولة وطبيعة نظامها السياسي.

المدخل الثاني: من خلال توصيف أسلوب الإنتاج السائد في المرحلة الملكية نرى ان هناك شرائح وطبقات اجتماعية سائدة تحكمت في مسار البناء الوطني للدولة العراقية، فضلا عن سيادة رؤيتها السياسية لطبيعة نظام الحكم وكيفية إدارته.

المدخل الثالث: عدم اكتمال البناء الطبقي للبرجوازية الوطنية بسبب طبيعة التوسع الكولونيالي المتسم بالهيمنة على الثروات الوطنية وتصدير البضائع، وما نتج عن ذلك من تشوه طبقي في تشكيلة العراق الاجتماعية، الأمر الذي أفضى الى سيادة الطبقة الوسطى في الحياة السياسية.

المدخل الرابع: أدى احتكار السلطة السياسية من قبل الأقلية الحاكمة وسيادة العنف والاستبداد في الحياة السياسية إلى اغتراب الدولة العراقية عن قاعدتها الاجتماعية.

استنادا إلى تلك المداخل الفكرية، نحاول متابعة البحث ضمن الحقب التاريخية المشار إليها.

أولا : العقل السياسي الناظم لنشوء وتطور الدولة العراقية

من المعروف أن نشوء وبناء الدولة العراقية جاءا بسبب تفكك الإمبراطورية العثمانية نتيجة للتوسع الكولونيالي المرتكز على اقتسام العالم بين الدول الرأسمالية المتنازعة ونتيجة لذلك نرصد حزمة من

الوقائع الاقتصادية، الاجتماعية والسياسية أهمها:

ـ ارتكاز الدولة العراقية الناهضة على ثلاث كتل اجتماعية متمثلة بما يأتي:

1- الضباط الذين قاتلوا مع الشريف حسين بجانب بريطانيا العظمى ضد الخلافة الإسلامية وقد غلب الفكر القومي العروبي على شريحتي الضباط ومنتسبي الجهاز الإداري العراقي المتبقي من الإمبراطورية العثمانية.

2- رغم انقسامها المذهبي شكلت شريحة التجار في مدن العراق الرئيسية سنداً اجتماعياً للوافد الخارجي وسلطته الكولونيالية/ الكمبورادورية. إن التعارض المذهبي الناشئ بين الطبقة التجارية العراقية اثر لاحقا على مسار بناء الدولة العراقية ونظامها السياسي.

3- أما القوة الثالثة فكانت الطبقة الإقطاعية التي اتسعت مواقعها الاقتصادية وتأثيراتها الاجتماعية بعد توزيع أراضي الأمير على شيوخ العشائر لتشكل ركيزة اجتماعية جديدة من ركائز القاعدة الاجتماعية للدولة العراقية.

ـ يتحدد الفكر السياسي الفاعل في حقبة نشوء الدولة العراقية في تيارين أساسيين أولهما الفكر القومي الذي حمله الضباط الأشراف، فضلا عن الفئة المثقفة البيروقراطية التي انسلخت عن الجهاز الإمبراطوري العثماني. وبهذا المسار يلاحظ أن هذا الفكر ارتبط بالشعارات الذي بشر بها الشريف حسين الداعية إلى بناء دولة عربية مركزية تحت قيادة الفئات التجارية وكبار الإقطاعيين، حيث شكل هذا الفكر ورؤاه المركزية المتمثلة بالدولة العربية الواحدة أسس الفكر السياسي القومي. ثانيهما الفكر الهادف إلى بناء دولة عراقية قوية تابعة للهيمنة البريطانية.

ـ ارتكز بناء الدولة العراقية على مبدأ ازدواجية السلطة داخلية/ خارجية المتجاوب ومصلحة الوافد الأجنبي الذي حملته القوى الكمبورادورية بعد أن طورت مكانتها الاقتصادية من خلال وكالتها للبضائع الأجنبية إضافة إلى ترابط مصالحها مع طبقة الإقطاعيين الذين تنامى دورهم الاجتماعي والسياسي (1).

ـ اتسم فكر القاعدة الاجتماعية الحاملة لنظام ازدواجية الهيمنة كولونيالي/ كمبورادوري في الدولة العراقية الجديدة بكثرة من السمات:

أولها: إن الهيمنة السياسية اعتمدت على العقل السياسي للوافد الكولونيالي الذي حاول بناء الدولة على غرار الفكر السياسي البريطاني ـ ملكية دستورية، برلمان، وديمقراطية تتجاوب ومصالح التكتل الحاكم.

وثانيها: غياب الطبقة الاجتماعية الموحدة القادرة على تبني مصالح بلادها الوطني.

وثالثها: عدم تبلور الهوية الوطنية بسبب انقسام التشكيلة العراقية إلى كتل

سكانية طائفية وقومية.

ـ ترسخت السمات المشار إليها في الطور الثاني من المرحلة الملكية حيث ساهم الفكر الكولونيالي وبناؤه السياسي بتبلور كثرة من القوى السياسية التي عبرت بهذا الشكل أو ذاك عن التشكل الطبقي لمكونات التشكيلة العراقية الناهضة.

إن نشوء الحياة الحزبية في العراق الملكي المنبثقة من طبيعة النظام السياسي وديمقراطيته الشكلية عبرت عن تطلعات سياسية لقوى اجتماعية ناهضة في التشكيلة العراقية. ورغم ذلك يمكن القول أن بناء الأحزاب السياسية الناهضة في حياة العراق السياسية تأثر بفكر ازدواجية خيار التطور الاجتماعي رأسمالي / اشتراكي الناظم لحركة تطور العلاقات الدولية. لذلك يمكن القول إن نشوء الأحزاب السياسية، كما الدولة العراقية، جاء بتأثيرات خارجية وليس بالضرورة تعبيراً عن نضوج طبقات اجتماعية في تشكيلة العراق الوطنية.

إن التوصيف المشار إليه لا ينفي أن الأحزاب الجديدة الليبرالية، اليسارية والقومية نتجت عن تبلور ملامح طبقات اجتماعية ساعد في تشكيلها بناء مؤسسات الدولة البيروقراطية وقطاعا النفط والخدمات.

إن التبلور الاجتماعي المشار إليه لم يمنع من القول أن الطبقة الوسطى شكلت الحامل الاجتماعي للأحزاب الجديدة المعبرة سياسياً عن تطلعات الطبقات الاجتماعية.

إن الفكر السياسي الناظم لمسار التطور الوطني في المرحلة الملكية يمكن تحديده من خلال الموضوعات الآتية:

1- تمحور الفكر السياسي لقوى سلطة الدولة حول مفهوم التبعية للكولونيالية البريطانية بينما ارتكز فكر معارضيها حول مفهوم الوطنية التي عنيت في الجوهر قضيتين مترابطتين: التحرر الوطني من الهيمنة الكولونيالية، وبناء السيادة الوطنية للدولة العراقية.

2- اعتمد الفكر السياسي السلطوي والمعارض على البناء المركزي لشكل الدولة العراقية رغم أن الفكر السياسي المعارض تبنى موضوعة الحقوق القومية للشعب الكردي في إطار الديمقراطية وسيادة الوحدة الوطنية، وبهذا المنحى لم تسعَ أية قوة سياسية الى تبني حق تقرير المصير ما عدا اليسار العراقي انطلاقا من رؤيا أيديولوجية .

3- اعتمد الفكر السياسي المعارض على الشرعية الديمقراطية لغرض الوصول الى السلطة السياسية ولم يطرح طريق العنف لتسلم سلطة الدولة إلا في السنين الأخيرة من المرحلة الملكية.

ـ لقد شكلت الشرعية الديمقراطية لبناء منظومة البلاد السياسية محورا هاماً في الكفاح الوطني إلا أنها ـ الشرعية الديمقراطية ـ أخضعت للفكر الايديولوجي وأهدافه الإستراتيجية حيث وضعها الفكر الاشتراكي في إطارها الطبقي، بينما

وضعها الفكر القومي في مسار بناء الدولة العربية الواحدة وبهذا المعنى فان الشرعية الديمقراطية شكلت في الفكر السياسي الاشتراكي إطارا سياسيا للكفاح الطبقي وفي الفكر السياسي القومي دعوة مؤجلة حتى بناء الدولة العربية الواحدة.

ـ شكل بناء سلطة الدولة على أساس الشرعية الديمقراطية نهجاً سياسيا للأحزاب والمنظمات الاجتماعية الجديدة الناهضة في المرحلة الملكية إلا أن موضوعة سلطة الدولة خضعت في الطور الأخير من الملكية للموقف الايديولوجي من قبل التيارين الفاعلين في التشكيلة الاجتماعية العراقية التيار القومي وتيار اليسار الاشتراكي وذلك لكثرة من الأسباب الفكرية منها:

أ. تماهي مفهوم الدولة مع السلطة حيث جرى اختزال الدولة بالسلطة السياسية.

ب. موقع السلطة السياسية في التشكيلة الاجتماعية باعتبارها القوة القانونية والاقتصادية القادرة على إحداث تغيرات جوهرية في التشكيلة العراقية .

ج. تطور العلاقات الدولية على قاعدة ازدواجية خيار التطور الاجتماعي بعد الحرب العالمية الثانية والذي دفع بموضوعة التحرر الوطني إلى واجهة العمل السياسي الهادف الى تحقيق الاستقلال الوطني والسيادة من خلال تسلم سلطة الدولة السياسية.

أخيرا لا بد من القول أن ظهور التيارات السياسية في الحقبة الملكية وتبلور أدوات كفاحها الوطني لم يحدا من هيمنة المجتمع الأهلي على الحياة السياسية حيث احتلت مؤسسات أهلية مثل العشيرة والطائفة مراكزَ مهمة في التعبئة السياسية المعارضة والموالية وبات المجتمع الأهلي يتقاسم الحياة السياسية مع الدولة وسلطتها السياسية.

ثانياً: الفكر السياسي الناظم للجمهورية الأولى

شكّل انهيار النظام الملكي والتحرر من الكولونيالية البريطانية نقلة تاريخية في بناء الدولة العراقية وفكر حياتها السياسية، حيث أنتجت الإطاحة بالطبقات الاجتماعية القديمة وتبوأ الطبقة الوسطى المشهد السياسي دفعا لنشاط الحياة السياسية وأغنت ركائز الفكر السياسي في العراق، الأمر الذي يشترط إبداء بعض الملاحظات الضرورية والتي يمكن تحديدها في الآتي:

– أشّر انقلاب تموز الثوري عام 1958 (ثورة 14 تموز 1958 – المحرر) عدم اكتمال القدرة التنظيمية والقوة الشعبية للأحزاب الناشطة في الحياة السياسية، الأمر الذي دفع المؤسسة العسكرية إلى تسلم سلطة الدولة السياسية باعتبارها – المؤسسة العسكرية – القوى الوحيدة المنضبطة والمسلحة في التشكيلة العراقية.

– اعتمد الفكر السياسي لحركة الضباط الأحرار على بناء الدولة العراقية على قاعدة الاستقلال والسيادة الوطنية والحفاظ على الثروات الوطنية .

– انطلق الفكر السياسي لقادة الثورة من إعادة بناء التوازن الاجتماعي في تشكيلة العراق الاجتماعية بهدف خلق هوية وطنية وصولا إلى اكتمال مستلزمات بناء الثقة بين الدولة ومواطنيها .

– حاولت الثورة القيام بإجراءات اقتصادية اجتماعية هادفة إلى خلق التوازن بين طبقات التشكيلة العراقية، وبهذا المسار أعارت الثورة اهتماماً خاصاً إلى البرجوازية الوطنية بهدف تقوية فصيلتها الصناعية، فضلا عن اهتمامها بباقي الطبقات الاجتماعية الكادحة منها والفقيرة .

– أفضت فكرة المساواة الوطنية والتوازن الاجتماعي التي شجعتها القيادة الجديدة إلى إشراك قوى سياسية متنوعة في السلطة السياسية بهدف منع احتكارها، فضلا عن محاولة بناء جهازها البيروقراطي على قاعدة المواطنة وذلك بهدف منع اختلال التوازنات الاجتماعية والسياسية.

– شكلت مركزية الدولة العراقية وصيانة وحدتها الجغرافية عاملا أساسيا في فكر الجمهورية الأولى وما نتج عن ذلك من مطالبة الشعوب العراقية الأخرى بحقوقها القومية الأمر الذي أدى إلى نزاعات عسكرية بين الجمهورية الأولى ومكوناتها القومية.

– أفضى انتصار الثورة وإجراءاتها السياسية والاجتماعية إلى اندلاع نزاعات سياسية وطنية بين الأحزاب العراقية انطلاقاً من أسس أيديولوجية ذات شعارات إستراتيجية ففي حين انطلق التيار القومي من شعار تحقيق الوحدة الفورية مع الجمهورية العربية المصرية تبنى التيار الاشتراكي شعارات فدرالية مشروطة بصداقة الكتلة السوفيتية.

– أدى صراع الكتل السياسية إلى انحياز قادة المؤسسة العسكرية إلى هذا التكتل الاجتماعي السياسي أو ذاك الأمر الذي أنتج كثرة من التأثيرات السلبية على منظومة البلاد السياسية تمثلت في:

أ. تفكك وحدة القيادة العسكرية وتمرد بعض أطرافها.

ب. انهيار الديمقراطية السياسية واشتداد النزاعات العنفية بين الكتل السياسية.

ج. تبلور النزعة الاستبدادية الفردية لضبط النزاعات الوطنية.

إن الإجراءات الاجتماعية والسياسية التي أنتجتها الجمهورية الأولى أطلقت روح الكفاح السياسي لدى الكتل الاجتماعية المتنازعة في التشكيلة العراقية الأمر الذي أدى إلى وأد الجمهورية الأولى وظهور الجمهورية الثانية عبر سلسلة من الانقلابات والانقلابات المضادة توجت بتسلم الحركة القومية لسلطة الدولة في محاولة لتطبيق شعاراتها القومية.

ثالثا: الفكر السياسي المتحكم في الجمهورية الثانية (2)

معالجة الفكر السياسي الناظم لحياة الجمهورية الثانية السياسية والاقتصادية تشترط فحص الركائز الفكرية لقوى التيار

القومي في العراق وبالتحديد (حزب البعث العربي الاشتراكي) الأمر الذي يتطلب الوقوف عند كثرة من الموضوعات التي تساعدنا على تحليل ركائزه الفكرية وممارسته السياسية أهمها:

– نشأ هذا الحزب على قواعد أيديولوجية مثالية ذات أهداف إستراتيجية وقد شكلت النخب المثقفة رغم ضبابية أهداف الحزب قاعدته الاجتماعية.

– احتلت قضية السلطة السياسية وتسلمها عبر الانقلاب العسكري محورا أساسيا في الكفاح القومي للحزب، معتبراً أن السلطة السياسية جهاز سياسي قادر على تحقيق أهدافه القومية.

– تمحورت الأهداف الإستراتيجية لحزب البعث حول ثلاث ركائز أساسية:

● الوحدة العربية المنطلقة من بناء دولة قطرية مركزية.

● الاشتراكية المتمثلة بتأميم الثروات الوطنية واحتكار التجارة الخارجية والداخلية وتحويل الدولة إلى مالك فعلي لوسائل الإنتاج.

● الحرية التي كانت عبارة عن شعار هلامي لا تربطه بالواقع أي ممارسة فعلية.

– أعاقت الأهداف القومية الإستراتيجية لحزب البعث تشكيل رؤية واقعية لبناء وتطوير دولته الوطنية، وبهذا المعنى اصطدم فكره بالدولة العراقية وتشكيلتها الاجتماعية حيث وجد الحزب المذكور نفسه أمام بلد متعدد التيارات السياسية، الأعراق والأديان. وإزاء هذه اللوحة الاجتماعية السياسية المعقدة التركيب استطاع وانسجاماً مع نزعاته العسكرية بناء منظومة سياسية للدولة تتسم بالخصائص الآتية:

● انطلق الفكر السياسي لحزب البعث من مبدأ احتكار السلطة السياسية، عاملا على بناء دولة بوليسية لقمع مطالبات القوى الوطنية ببناء الدولة على أسس الشرعية الديمقراطية، مرحلا مسألة التعددية السياسية و قضايا العراق الوطنية إلى مستقبل بلا تخوم تاريخية.

● اعتمر فكر البعث السياسي خوذة عنصرية حينما رفض بناء توازن سياسي بين قوميات الدولة العراقية منطلقاً من فكرة بناء دولة قطرية مركزية تشكل قاعدة محورية لبناء الدولة العربية الواحدة.

● تزامن بناء دولة مركزية جاذبة مع النزعة التوسعية وروحها العسكرية التي تطورت إلى سياسة عدوانية على الصعيد الإقليمي.

● بسبب التركيبة الطائفية للعراق وغلبة نسبة الطائفة الشيعية في تكوينها تزايدت الروح الطائفية في فكر البعث السياسي متجلية بالعداء السافر للمكون الشيعي العراقي مع عداء مستحكم مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية التي أصبحت سياستها تشكل تهديدا للقومية العربية.

● شكل العداء للمكون الشيعي العراقي والجمهورية الإسلامية الإيرانية إحدى السمات الأساسية للفكر القومي وبهذا

السياق يمكن القول أن فكر البعث السياسي ورث هذا العداء بعد رفعه إلى مستوى التناقض الرئيسي في سياستي العراق الداخلية والخارجية (3).

إن ركائز الفكر القومي البعثي في العراق تدرجت من شعارات الوحدة العربية إلى موضوعة بناء الدولة المركزية المقتدرة التي انحدرت إلى احتكار العشيرة للثروة والسلطة وما نتج عن ذلك من حروب داخلية، وغزوات خارجية، فضلا عن حصارات اقتصادية أدت إلى الغزو الأميركي للعراق وانهيار دولته الوطنية.

رابعاً: الفكر السياسي المتسيد في مسار الجمهورية الثالثة

أدى الغزو الأميركي للعراق إلى انهيار الدولة العراقية وتشكيلتها الاجتماعية وما افرزه ذلك من انهيار المنظومة الفكرية السياسية لحزب البعث العربي الاشتراكي بعد أن تحولت بعض منظماته إلى فصائل عسكرية عشائرية تتلحف بأردية طائفية.

وبالمقابل، ساهم انهيار الدولة العراقية ومنظومتها السياسية المتمثلة بحزب البعث ومنظماته الاجتماعية بتفعيل النشاط السياسي لتيارات الحركة السياسية ممثلة بتيار الإسلام السياسي الذي تمكن من الهيمنة الفعلية على شرائح واسعة من التشكيلة العراقية، فضلا عن التيارين اليساري والديمقراطي.

تطور الفكر السياسي الناظم للتيارات السياسية الثلاث بشكل تدريجي تبعاً لمسار المرحلة الانتقالية، لهذا فإن تحديد ركائز الفكر السياسي الناشط في المرحلة الانتقالية يعتمد على كثرة من المحددات يمكن حصرها في الآتي:

المحدد الأول: استند الفكر السياسي السائد في المرحلة الانتقالية إلى ركائز الفكر السياسي المعارض للدكتاتورية المنطلق من شعارات عامة أهمها إسقاط الديكتاتورية وبناء الدولة الديمقراطية . وبهذا المعنى يمكن القول أن الأحزاب السياسية المعارضة للنظام الاستبدادي والناشطة في الحياة السياسية بعد الاحتلال لم تمتلك رؤية فكرية / سياسية إزاء الواقع الجديد قادرة على استقطاب شرائح اجتماعية ساندة لفعاليتها السياسية.

المحدد الثاني: ارتكز الفكر السياسي الناشط في المرحلة الانتقالية بخطوطه العامة على توجهات سلطة الاحتلال وإجراءاتها (الدستورية) و(قراراتها) الإدارية خاصة تشريع القانون الأساس الهادف الى بناء شكل الدولة العراقية وطبيعة نظامها السياسي، الأمر الذي شكل (الدستور) بأطره العامة أفكاراً خارجية للمرحلة الانتقالية سرعان ما أصبحت تلك الأفكار والقوانين أسسا فكرية لأغلب القوى السياسية .

إن اعتماد الفكر السياسي للمحتلين الأمريكان في إعادة بناء الدولة العراقية أعاد

ذاكرة العراق التاريخية إلى المرحلة الكولونيالية حيث جرى بناء وتشكيل الدولة العراقية بمساعدة بريطانية (4).

المحدد الثالث: إن فكرة اقتسام السلطة بين الكتل الاجتماعية العرقية والطائفية التي عمل خبراء السياسة الأمريكية على تثبيت شرعيتها السياسية سرعان ما جرى اعتمادها من قبل القوى السياسية المتنفذة حيث جرى تثبيتها في الدستور الجديد وما نتج عن ذلك من نزاعات متواصلة بين الكتل الاجتماعية العرقية والمذهبية.

المحدد الرابع: تراجع الفكر السياسي للقوى الديمقراطية اليسارية منها والليبرالية أدى إلى هيمنة الفكر السياسي الطائفي/ العرقي على الحياة السياسية. وبهذا المسار لا بد لنا من فحص النتائج الاجتماعية السياسية لتلك الهيمنة على مسار تطور التشكيلة العراقية وبناء منظومتها السياسية والتي يمكن تلخيصها بالآتي:

ـ أنتجت موضوعة اقتسام السلطة بين الطوائف والأعراق حياة سياسية تتسم بالفوضى وانعدام الأمن، ناهيك عن غياب الأداء المركزي لسلطة الدولة بسبب التفسيرات المتعددة لصلاحيات المركز والإقليم (5).

ـ أبعدت العقلية الطائفية/ العرقية المتنفذة في الحياة السياسية إعادة بناء الدولة على أساس الهوية الوطنية الأمر الذي أدى إلى تغييب الحدود بين النزاعات الطائفية والتناقضات الاجتماعية.

– أدى غياب البرامج السياسية والأهداف الاجتماعية عند الأحزاب المتنفذة إلى ارتكاز نشاطها السياسي على الضبط الطائفي/ العرقي باعتباره الإطار الأيديولوجي الضامن لإدامة الهيمنة السياسية.

ـ أفضى بناء الأحزاب السياسية والمنظمات الاجتماعية المتسيدة في الحياة السياسية على قواعد طائفية عشائرية، إلى تحويل التشكيلة العراقية إلى كتل سكانية متعارضة.

ـ تنامي النزعات الاستقلالية لإقليم كردستان وتطورها لدى المحافظات يهددان الدولة العراقية وتشكيلتها الاجتماعية بصراعات طائفية عرقية لا يمكن حصر حدودها الكارثية .

خلاصة القول، إن هيمنة الفكر السياسي لاقتسام السلطة أصبح عرفا دستورياً في الحياة السياسية لا يمكن تخطيه إلا بظهور كتلة اجتماعية وطنية ديمقراطية قادرة على إلغاء البناء الطائفي / العرقي الذي بات كابحا أمام تطور الدولة العراقية وتشكيلاتها الاجتماعية واستبداله بالشرعية الديمقراطية المرتكزة على تبلور البرامج الاجتماعية للأحزاب السياسية المتنافسة .

الاستنتاجات

أولاً: هيمنة الموضوعات الإيديولوجية على الفكر السياسي العراقي أبعدته عن تحليل الحاجات الفعلية لقواه الاجتماعية المتنازعة وحدت من قدراته على بناء سياسة وطنية

تتجاوب ومصالح تشكيلته الاجتماعية.

ثانياً: احتلت موضوعة تسلم السلطة عبر النزعة الانقلابية أهمية مركزية في الفكر السياسي العراقي وما نتج عنها من سيادة العنف وتجذره في منظومة العراق السياسية.

ثالثا: لم تنتج القوى والأحزاب السياسية فكرا نظرياً سياسيا هادفا إلى بناء الدولة العراقية بما يتلاءم ومصالح تشكيلتها الوطنية.

رابعاً: تحول الفكر السياسي العراقي من شعاراته الأيديولوجية التي ميزته في الحقب المنصرمة الى نزاعات عبثية في المرحلة الراهنة، يؤشر عدم قدرة القوى السياسية المتنفذة على بناء دولة ديمقراطية.

خامسا: الانتقال إلى الدولة الوطنية الديمقراطية يشترط تحرر الفكر السياسي السائد من حاضنته الطائفية/العرقية وتخليه عن موضوعة اقتسام السلطة التي أفرزها الاحتلال الأميركي للعراق.

الهوامش:

(1) لم أتطرق إلى موقف التيار الإسلامي لسببين، الأول يكمن في أن القوى التجارية السنية شكلت قاعدة اجتماعية لازدواجية الهيمنة، سلطة الاحتلال / والسلطة الداخلية. أما الإسلام السياسي الشيعي فلم يتبلور بشكل واضح في تلك الحقبة واتخذ كثرة من الإجراءات منها مقاطعة الحكومة باعتبارها فاقدة الشرعية السياسية بسبب موالاتها للوافد الخارجي ومنها التركيز على أدوات الضبط الطائفي من خلال الفتاوى والمناسبات الدينية الهادفة إلى تكريس نهج العزوف عن السلطة ورفض الدعوة لتسلمها .

(2) اعتمدت كما في السابق تقسيم جمهوريات العراق استنادا إلى طبيعة القوى الحاكمة فيها لذلك عنيتُ بالجمهورية الثانية هو حكم التيار القومي من انقلاب 1963 إلى عودة البعث للسلطة عام 1968 وحكمه وصولا إلى الاحتلال الأمريكي للعراق ونهوض الجمهورية الثالثة.

(3) وبهذا المسار ورث فكر البعث السياسي في العراق موضوعة عائدية الجارة الكويت للعراق وضرورة ضمها بالقوة العسكرية.

(4) شكلت العوامل الخارجية مرتكزات أساسية لبناء الدولة العراقية، الأمر الذي تجلى بمرحلتين: الكولونيالية وما نتج عنها من حكم الأقلية الطائفية ومرحلة الاحتلال الأمريكي وما نتج عنها من اقتسام السلطة على أسس طائفية / عرقية.

(5) المتتبع للحياة السياسية يصاب بالتوتر والإرهاق بسبب كثرة التصريحات والاختلاف المستمر على تفاصيل التفاصيل، فضلا عن إطلاق العنان لنواب الكتل السياسية بالإدلاء بتصريحات حزبية متعارضة والروح الوطنية تنم عن فقر وفوضى الحياة السياسية.

اليقينية والاحتمال في الديالكتيك الماركسي في ضوء ميكانيك الكم

أ.د.عبد الكاظم ماجود

الدكتور عبد الكاظم ماجود عون باحث وأكاديمي، أستاذ في الفيزياء، حاصل على درجة الدكتوراه في فيزياء البصريات والليزر من جامعة مينسك عام 1981. عمل أستاذا في العديد من الجامعات الجزائرية والليبية والعراقية. كتب العديد من الأبحاث إضافة إلى تأليفه كتباً منهجية عدة في موضوع اختصاصه من بينها: دراسة في النظرية الاهتزازية (الجزائر 1985)، تمرينات في الضوء الهندسي (الجزائر 1987)، مقدمة في ميكانيك الكم (الجزائر 1992)، البصريات (ليبيا 2002)، الليزر في النظرية والتطبيق (ليبيا 2002).

هذه القراءة المتواضعة في ديالكتيك الطبيعة في ضوء اختصاصي واشتغالي على ميكانيك الكم في ما يعرف عند الباحثين في هذا المجال بـ"فلسفة الكم"، قصدت منها، وبعلمية مطلقة، أن تكون قراءة نقدية خالصة لأساس الفلسفة الماركسية، للبحث فيها عن اليقين والاحتمال، عن المرونة الفكرية الخلاقة والجمود العقائدي، عن استجلاء الفكر من تاريخ التطور المتلازم للطبيعة والإنسان وتأثيرهما المتبادل الواحد بالآخر.

عند كتابته لـ"ديالكتيك الطبيعة"، رسخ (انجلز)، بثقافته العميقة، أهمية العلاقة بين الأساس الفلسفي للماركسية وبين العلوم الطبيعية المعاصرة، ومن هنا خرج بكتابه الرائع، ديالكتيك الطبيعة أو المادية الديالكتيكية، مستلهما في ذلك ما كشفت عنه النظرية الخلوية لـ (شيلدن وشفاي) عامي 1838 و 1847 ونظرية حفظ الطاقة وتحولها لـ (ماير واخرون) بين عامي 1842 و 1847. حيث تمكن من صياغة الأساس الفلسفي لهاتين النظريتين من وجهة نظر الديالكتيك الذي يربط بصورة منطقية بين الفلسفة وعلوم الطبيعة. خلص انجلز إلى"أن ثمة تجسيدا وإثباتا لبعض موضوعات الديالكتيك الهيغلي في هاتين النظريتين"، منقادا بذكائه غير العادي، إلى أن يسعى لتقديم تأويل مادي للديالكتيك، للمنطق الهيغلي ولفلسفة الطبيعة الهيغلية على أساس التحليل الفلسفي لأحدث

الانجازات العلمية، طارحا في الوقت نفسه ضرورة التعميم النظري والتحليل الفلسفي لمنجـزات العلم. بمعنـى أن انجلـز في الديالكتيك الماركسي كان يسعى إلى صياغة ثنائية تلازمية بين المادية الديالكتيكية وبين العلوم الطبيعية المعاصرة، بين الحداثة، بين ديالكتيك الطبيعة العقلاني، الحداثوي، ممثلا بمنجزات العلم المعاصر في عهد التنوير، وبين ميكانيك الكم اللاعقلاني، الما بعد حداثوي.

إن المضمون الجوهري للديالكتيك الماركسي هو التزامه وبحثه الدائمان في أن تنعكس الانجازات العلمية على طابع التفكير العلمي وعلى بنيته لا أن تبدو هذه الانجازات انعكاسا لعبارات مسبقة كما أراد لها هيغل. فهو"الديالكتيك الماركسي" يرى أن العلوم الطبيعية، بمسيرتها ومضمونها، تبين الانتقالات والارتباطات بين مختلف ميادين الكون، ما دفع التفكير الديالكتيكي الماركسي أن يخوض صراعا نظريا ضد التفكير الميتافيزيقي، الغيبي، العاجز عن الاستجابة لمتطلبات العلوم الطبيعية، ومن ثم أصبح عائقا جديا على طريق تقدمها.

من أهم الثنائيات بين الديالكتيك الماركسي والعلوم المعاصرة هو نظرتاهما المتطابقتان إلى وحدة الطبيعة وارتباطها الشامل وتطورها المشترك، وتشديدهما على وحدة بنية وأصل العالم العضوي كله، مستشهدا بما كشفت عنه الداروينية من ربط بين كافة أشكال العالم العضوي، وما بينته النظريات الفيزيائية بشأن تحولات الطاقة من شكل إلى آخر، وعن الصلة الداخلية بين العلوم التي تدرس مختلف أشكال الطاقة في الطبيعة غير الحية وارتباط أشكال العالم العضوي في الطبيعة الحية. في الديالكتيك الماركسي لم يعد هذان الميدانان الأساسيان، الطبيعة الحية والطبيعة غير الحية، معزولين عن بعضيهما كما أراد لهما أنصار اللاأدرية ومحدودية المعرفة، بل أصبح من البديهي النظر إلى ظواهر الطبيعة نظرة شاملة، كل ظاهره ترتبط بالأخرى وتتطور معها بصورة متوازية وصولا إلى"فكرة التطور العامة". وهذا ما كشفت عنه الدراسات الحديثة من تشابهات عديدة بين ميكانيك الكم، بوصفه علم اجتماع المادة، علم اجتماع الطبيعة غير الحية، وبين علم اجتماع الطبيعة الحية.

من المدهش أن انجلز، وهو غير الفيزيائي، استطاع أن يصوغ أهم مفهوم لشكل الحركة، وهو من أهم قوانين الطبيعة على الإطلاق، سواء في مجال الفيزياء الكلاسيكية، التي تعنى بأشكال حركة عناصر، أجسام العالم المرئي، أو في مجال ميكانيك الكم، الذي يعنى بحركة عناصر، جسيمات، العالم غير المرئي. فمفهوم شكل الحركة يتضمن مفهوم أشكال الطاقة، الميكانيكية، الالكترونية، الكيميائية،...، في الطبيعة غير الحية، ومفهوم العملية البايولوجية في الطبيعة الحية. وبمساعدة مفهوم شكل الحركة استطاع انجلز تتبع تحولات أشكال الحركة إحداها في الأخرى، ومن خلال ذلك صاغ استنتاجا رصينا عن كيفية ظهور الحياة، مستجليا حقيقة وجود عملية تطور ديالكتيكية موحدة تتخلل الطبيعة كلها وتربط بين مختلف مجالاتها في نسق معين.

إن الفكر النظري لكل عصر، يقول انجلز" هو نتاج تطور تاريخي يتخذ في أزمنة مختلفة أشكالا مختلفة ومضامين مختلفة أيضا". وهذا معناه أن الديالكتيك الماركسي، وبالتالي، الماركسية كفلسفة وكمنهج للحياة، لا تفرض صيغة معينة للتفكير، بل هي نظرية وفلسفة غير يقينية، تعطي الفكر البشري حرية الرأي والاستنتاج واستخلاص العبر ومن ثم الإجابة على سؤال الشعوب في جميع مراحل نضالها من اجل الحياة الحرة الكريمة: ما العمل؟ إن علم الفكر، يقول انجلز،" كأي علم آخر، هو علم تاريخي، علم التطور التاريخي للفكر البشري". انه علم يتطور ويتغير مع تغير الطبيعة والإنسان، بثنائية خالدة غير ثابتة ولا جامدة وقوانينها ليست بأي حال، مطلقة. فالسكون في الطبيعة نسبي والحركة، التي هي أصل الحياة، هي وحدها المطلقة. ومن هنا، ليس من الصعب الاستنتاج، أن الفكر الذي يستمد جذوره من الماضي، من الثبات او من المطلق، لا يمكن ان يبني حياة الشعوب، وهو عاجز تماما عن حل مشاكل البشر، والتعامل مع الطبيعة على أساس التأثر المتبادل، و ليس على أساس التسليم للقدر والمكتوب. إن مثل هذا الفكر ليس فقط سلبيا ومظللا وعاجزا عن تغيير حياة الإنسان نحو الأفضل، بل هو ليس إلا عقبة كأداء أمام التطور التاريخي للإنسان والطبيعة. ولكي يصنع الناس سلاما ايجابيا مع الطبيعة لابد من إبعاد وتحييد الفكر الغيبي، الميتافيزيقي من حياتهم ويرتقون بوعيهم وعلاقتهم بالطبيعة الى مرتبة التفكير المنطقي الجدلي. إن الديالكتيك الماركسي هو الوحيد الذي يقدم النظرية العلمية والفكر العلمي المبدع، وبالتالي، يقدم منهج التفسير الصحيح لعمليات التطور التي تجري في الطبيعة، ويشير بوضوح الى الروابط الشاملة فيها ويحدد الانتقالات من ميدان معركة بناء الى آخر، على أساس الوقائع العينية الملموسة دون التقيد بصيغ مجردة معزولة. ولتحقيق هذه المهام الصعبة، يجب الالتصاق بالناس، أصحاب القضية الشرعيين، وانجاز مهمة بناء الكتلة البشرية التاريخية والانطلاق من ضرورياتها تحت الشعار المحرك لغضبها لتحويل طاقتها الكامنة الى طاقة حركية خلاقة. في هذا الصدد يؤكد انجلز انه" في كل ميدان علمي، سواء في الطبيعة أم في التاريخ، يجب الانطلاق من الوقائع التي بأيدينا، رغم ان الواقع ليس صحيحا كما يؤكد ماركس، والقائد هو الذي يختار اللحظة المناسبة والشعار المناسب". وهنا يحذر انجلز من الدوغمائية من خلال وصفه لمضمون المذهب الهيغلي، قائلا" إن منطق هيغل مثالي، وبناء المنظومة الهيغلية هو بناء اعتباطي ومناقض للطبيعة". اذن كل حركة ثورية تنشد التغيير نحو الأحسن، يجب أن تصوغ إستراتيجية عملها من وسط الناس، بما يلامس همومهم اليومية ويعبر عن موقفهم الجمعي ويرفع من وعيهم وتطلعاتهم الإنسانية نحو المستقبل الأفضل، دون الاستخفاف بمحركات وعيهم البسيط، بل دفعهم للإمام والاندفاع معهم، على قاعدة مقولة لينين:" كن معلما للجماهير وتلميذا لها"، محافظين على المنطق الديالكتيكي في الالتحام مع الجماهير،

بعيدا عن الغيبية والخرافة. ان الغيبية لا تجلب نفعا لعملية التغيير الثوري للشعوب. علينا تعليم الناس التفكير العلمي الصحيح والانتقال بهم تدريجيا الى الفعل المباشر.

يقول ماركس بهذا الصدد عن ديالكتيك هيغل، ان ما تعرض له الديالكتيك من صوفية على يد هيغل – هيغل ليس أول من درس المنطق أو الديالكتيك، فقد سبقه إلى ذلك أرسطو – لم يمنع مطلقا من إن يكون هيغل بالذات، أول من عرض الأشكال العامة للحركة عرضا واعيا شاملا. إن الديالكتيك عند هيغل، يقول ماركس: يقف منتكسا على رأسه ويجب إيقافه على رجليه لكي يتسنى اكتشاف النواة العقلانية تحت القشرة الصوفية. إذن علينا أن نفهم الديالكتيك بطريقة ماركس العلمية لا بطريقة هيغل الصوفي.

قوانين الديالكتيك مقابل قوانين ميكانيك الكم

ثمة ديالكتيكان أو منطقان للطبيعة، يقول انجلز، ديالكتيك موضوعي يهيمن على الطبيعة بأسرها، وديالكتيك ذاتي أو ديالكتيك الفكر، وهو انعكاس للحركة السائدة في عموم الطبيعة، التي تتم من خلال الأضداد، والتي في صراعها المستمر وانتقالها النهائي احدها في الآخر او إلى أشكال ارفع، تتحدد حياة الطبيعة. في الديالكتيك الذاتي يبدأ الاستقطاب مع المغناطيسية ويتجلى في الجسم ذاته، وفي الكهربائية يتوزع بين جسمين بشحنتين مختلفتين. من هذا الاستقطاب تنشا حركة المجالات المغناطيسية والكهربائية. وحتى تشكل النواة الخلوية هو تجلي لاستقطاب مادة البروتين الحي.

الأكثر قربا وإقناعا لدور صراع الأضداد هو نظرية التطور" النشوء والارتقاء" لداروين. التي تبين بمنطق علمي رصين، أن" كل خطوة إلى الأمام، بدءا من الخلية البسيطة وانتهاء بأشد النباتات تعقيدا، من جهة، وبالإنسان . من جهة ثانية، تتم من خلال الصراع الدائب بين الوراثة والتكيف" . هذان المتضادان" الوراثة التي تمثل المحافظة على السمات، والتكيف الذي يمثل التغيير والانتقال الى شكل ارفع من الحياة" هما أصل الحياة وتطورها بلا منازع. الشيء نفسه يحصل في التاريخ أو التطور التاريخي في الطبيعة، حيث يظهر التغيير أو الانتقال الى شكل ارفع للحياة، يظهر على شكل نفي لما هو فاسد قائم. إزاء تحليل كهذا لأصل الحياة وتطورها يغدو منهج التفكير الميتافيقي، الغيبي عاجزا عن استيعاب مفاهيم الطبيعة الديالكتيكية التي صاغها انجلز.

إن الديالكتيك الماركسي، مثله مثل ميكانيك الكم، لا يعترف بحدود صارمة لا يمكن تجاوزها، ولا بـ" إما الكل أو لا شيء"، أو بـ" أما و أما" غير مشروطة تصلح في كل مكان . فهو فكر خلاق، مبدع، متغير، لا يعرف السكون،" يحول الاختلافات الميتافيزيقية الساكنة" الى اختلافات ديناميكية تؤول احدها في الآخر، ويعترف، في بعض الحالات بـ" هذا وذاك" معا، الى جانب" هذا وذاك" ويمد جسرا بين الأضداد. انه منهج فكري في غاية المرونة

والملائمة مع متطلبات تغيرات الطبيعة والإنسان.

لمجابهة الميتافيزيقا كان لزاما أن يتطور الطابع العام للديالكتيك بوصفه علم ترابط الظواهر الطبيعية، الحية وغير الحية. ومن هنا تطلب أن تستنتج قوانين الديالكتيك من تاريخ الطبيعة وتاريخ المجتمع البشري، وهي القوانين الأكثر عمومية لمراحل التطور التاريخي وكذلك للفكر ذاته.

قوانين الديالكتيك تعود في الأصل الى ثلاثة قوانين إغريقية ارسطوية هي:

- قانون تحول الكم الى الكيف وبالعكس: في مبحث الوجود.
- قانون تداخل الأضداد: في مبحث الجوهر.
- قانون نفي النفي: القانون الأساسي في بناء مذهب هيغل بكامله.

هذه القوانين، يقول انجلز، بسطها هيغل بطريقته المثالية على أنها قوانين للفكر. إن الخطأ في هذه القوانين، بطابعها الارسطوي الهيغلي، كونها لم تستخلص من الطبيعة والتاريخ، بل فرضت عليها من فوق، وهذا هو مصدر الإنشاء المصطنع لدى هيغل. في الديالكتيك الماركسي، يرى انجلز، أن" على الكون، شاء ذلك أم أبى، أن يتوافق مع نظام منطقي، ليس هو نفسه إلا نتاج مرحلة معينة من تطور الفكر البشري. على هذا الأساس فقط أصبح الديالكتيك الماركسي واضحا، وأصبحت قوانين الديالكتيك الغامضة جدا في الفلسفة المثالية واضحة هي الأخرى. إن قوانين الديالكتيك هي القوانين الحقيقية لتطور الطبيعة، أي أنها تسري على العلوم الطبيعية النظرية أيضا.

يعبر انجلز عن قانون تحول الكم الى كيف، وبالعكس، بقوله" ان التحولات الكيفية في الطبيعة لا تحدث الا بإضافة كمية او طرح كمي للمادة او الحركة". ولدينا في ميكانيك الكم، الذي يعني بدراسة حركة الجسيمات المجهرية، الذرات، وما دون الذرات، أن الإضافة لـ أو الطرح من كتلة الذرة، عن طريق انتزاع أحد الكتروناتها الخارجية او أكثر، او إكسابها إلكترونا خارجياً أو اكثر من ذرة أخرى، تؤدي إلى تغيير الصفات الفيزيائية للذرة، وهو تغيير كيفي لها نتج عن زيادة او إنقاص لكتلتها.

الى أكثر من ذلك يذهب انجلز في (ديالكتيك الطبيعة)، الى" أن مختلف الحالات التأصلية او التجميعية للأجسام، والتي تعود الى اختلاف تجمعات الجزيئات تقوم هي الأخرى، على كميات أكثر أو اقل من الحركة المعطاة للجسم". بمعنى، أن الحالة الموجود فيها الجسم في زمن ما معين وفي مكان ما معين، ما هي الا تعبير عن كمية حركة هذا الجسم في تلك اللحظة المعينة من الزمن و في ذلك المكان المعين. وفي ميكانيك الكم لدينا، يحصل الاختلاف في الحالة الجمعية للذرات أو الجسيمات عندما تتغير كميات حركة هذه الذرات او الجزيئات او زخمها الجمعي عن طريق زيادة او إنقاص سرعتها او تغيير موقعها. هذه التغيرات والتحولات لحالة المادة بفعل زيادة او إنقاص كمية حركتها هي أساس تطور الطبيعة والإنسان. وهو الذي صاغه الديالكتيك بمقولة غاية في الرصانة:" إن قانون تحول الكم الى كيف، وبالعكس، هو قانون تطور الطبيعة والمجتمع والفكر".

في مجال تحليله لقانون تبادل الأضداد يدهشك انجلز بتحليله عندما يكتب قائلا:" إن الشكل الأساسي لكل حركة هو الاقتراب والابتعاد، التقلص والتمدد، وباختصار هو التضاد القديم ما بين الجدب والدفع. إن اية حركة هي نتاج انتقال مكاني ما، سواء انتقال الأجرام السماوية او الكتل الأرضية او الجزيئات او الذرات. إن كل الطبيعة التي بمتناولنا، يقول انجلز:" تشكل منظومة مترابطة من الأجسام". وفي ميكانيك الكم لدينا أن الطبيعة تتشكل من كل ما في كوننا، من ذرات او جزيئات، التي هي الوحدات الأساسية لبنية الكواكب، ومن ضمنها الأرض وما عليها من أحياء، ومن بحار وأشجار وجبال، والشموس والمجرات والحشود وما بينها من مادة مظلمة. وترابط هده المكونات يعني أنها تتبادل التأثير في ما بينها، والحركة هي نتاج هدا التأثير المتبادل. وعلى هذا الأساس، فان الحركة ليست مخلوقة وليست فانية. بمعنى أن كمية الحركة في الكون، التي هي حاصل جمع كميات حركات موجوداته كلها تبقى منخفضة، وفقط شكلها او أشكالها هي التي تتغير.

يرى الديالكتيك الماركسي" أن الحركة، أياً كانت أشكالها، تنشأ عن التأثير المتبادل بين الدفع والجذب، وهي لا تكون ممكنة الا عندما يوازن كل جذب منفرد بدفع مقابل في مكان آخر. وألا يرجح، ألا يفوق، احد الجانبين بمرور الزمن على الجانب الآخر، وعندها ستتوقف الحركة في آخر الأمر". بمعنى أن شرط نشوء حركة الجسم واستمرارها هو التوازن بين الدفع المسلط عليه من قبل جسم او أجسام أخرى والجدب من قبل هذا او تلك الأجسام الأخرى. ولدينا في ميكانيك الكم: تنجز الجزيئات، سواء كانت عضوية او غير عضوية، التي تتشكل من ذرتين او أكثر، عدة حركات، أهمها الحركة الاهتزازية، ينجزها الجزيء بفعل عزمين متساويين لذرتيه او لمجموعتي ذراته حول نقطة اتزان ما، تنجز بطريقة تشابه حركة مرجوحة الأطفال، التي يجلس في كل من كفتيها احد طفلين، و في الكفة الأخرى يجلس الطفل الآخر، ويجب أن يكون عزم كل طفل حول نقطة اتزان المرجوحة معادلا لعزم الطفل الآخر حول نفس نقطة الاتزان لكي تستمر حركة الجزيء. هذا ينطبق، وبقوة، على الحياة الاجتماعية للأفراد والتجمعات البشرية، في العلاقات السياسية على وجه الخصوص. فلكي تستمر حركة المجتمع نحو تحقيق أهدافه في الحياة الحرة الكريمة وفق رؤى تجمعاته وقواه الاجتماعية المختلفة، يجب أن يكون هناك نوع من التوازن بين قوى هذه التجمعات بما يحقق التوافق حول هذه الأهداف. وفي الحالة المعاكسة، تفقد الحركة الاجتماعية الجمعية للبلد بوصلتها وينحدر الوطن بأكمله نحو الكارثة، وهذا ما هو حاصل في بلدنا تماما. يجب على القوى الوطنية العراقية، ليبرالية، يسارية، إسلامية معتدلة، شيوعية، وكل القوى التي تؤمن ببناء الدولة المدنية، القائمة على المؤسسات واحترام حقوق الإنسان والساعية إلى إشاعة الديمقراطية والعدالة الاجتماعية، أن تعدل الكفة لصالحها وتفوت الفرصة على قوى الظلام من أن تنحدر أكثر بمصير البلد نحو الهاوية.

في الديالكتيك الماركسي يتوضح قانون تبادل الأضداد في شرط تأثر، تبادل التأثير، الأضداد القطبية كافة، تأثر كل قطبين متعاكسين، ويتبين ذلك في" أن انفصال هذين القطبين او تضادهما لا يوجد إلا في إطار اتحادهما معا، وبالعكس. لا وجود لاتحادهما إلا في انفصالهما، ولا وجود لارتباطهما إلا في تضادهما". وهذا هو المضمون الفيزيائي لتداخل المتضادات. فلا قطب مغناطيسي شمالي من دون قطب مغناطيسي جنوبي، وبالعكس. فلو قطعنا المغناطيس من اية جهة، وتصورنا أننا أبقينا فقط على القطب المغناطيسي الشمالي، مثلا، لوجدنا أن هناك قطبا مغناطيسيا جنوبيا قد ظهر، وبالعكس. وهذا تأكيد لاستنتاجات انجلز المدهشة عن أن اتحاد الأقطاب المتضادة لا يتحقق إلا بانفصالها وانفصالها لا يتحقق إلا باتحادها، وهذا هو مضمون قانون تبادل الأضداد.

في تفسيره لقانون نفي النفي، متخذا مثال الهوية المجردة، يخرج انجلز في الديالكتيك المادي بإيضاحات غاية في الدقة والرصانة، وهي تتطابق تماما مع نظرية الكم. فوجهة النظر عن الهوية المجردة، التي تتناول الكائن العضوي كشيء مماثل لذاته، ثابت، لا يتغير ولا يتبدل، هي وجهة نظر خاطئة بالمطلق، لأنها تتعارض مع شرط استمرارية حياة الكائن العضوي بفعل التحولات الجزيئية المستمرة التي تنفي" تنسخ" إحداها الأخرى. في الديالكتيك الماركسي"ان الكائن الحي، نبات، حيوان، إنسان، وكل خلية حية، في كل لحظة من حياته، هو في تماثل واختلاف مع ذاته في آن، وذلك بفعل تمثل الغذاء وطرحه، التنفس، تشكل الخلايا وموتها، الدورة الدموية، وغيرها".

إن التغير المستمر، أي نسخ" نفي" الهوية المجردة لذاتها، يوجد أيضا في الطبيعة" غير الحية". فوفقا لنظرية النسبية الخاصة لاينشتاين، فان الحركة مطلقة والسكون نسبي، أي أن الكون المادي، عضوي ولا عضوي، هو في حالة حركة مستمرة. وفي ميكانيك الكم، فإن الحركة في زمن معين ما تمثل حالة مقابلة معينة ما، وتغير هذه الحركة في الزمان والمكان يعني حالة جديدة للجسيم الكمومي"الجسيم المجهري"، الحي أو غير الحي، نسخت او نفت الحالة السابقة، وهذا ما يوفر شرط تشكل الحياة. إذن الكون بكل مكوناته، العضوية وغير العضوية، هو كون حي، يستمد حياته من الأفعال الفسيولوجية للمكونات العضوية ومن التغيرات الزمكانية للمكونات غير العضوية. أما الموت، فهو ليس اللا تغير للحالة، ينجم عن تغير كمية الحركة، التي يمتلكها الجسم. وبالتالي، فان الهوية الملموسة، الحقيقية، هي تلك التي تنطوي على تباين، على تغير الحالة تبعا لتغيرات أشكال الحركة.

الصدفة والضرورة والحتمية

تخلط الميتافيزيقا بين الصدفة والضرورة، وتراهما شيئا واحدا، والاختلاف فقط بالتسمية. وهذه مجافاة صارخة لحقائق الطبيعة، فليس ثمة اشد تعارضا من هاتين المقولتين المنطقيتين. يقول الديالكتيك

الماركسي :" أن الشيء، أو العلاقة، أو العملية، أما أن تكون عرضية أو أن تكون ضرورية، ولكن لا يمكن أن تكون هذه وتلك في آن. فهما موجودتان في الطبيعة جنباً إلى جنب، والطبيعة تنطوي على مختلف الأشياء والعمليات، بعضها عرضي، وبعضها الآخر ضروري". ولدينا في الفيزياء والرياضيات، الاثنتان موجودتان، ولهما أحكامهما وقوانينهما الرياضية"للصدفة" و"البيولوجية" للضرورة. ويوضح الديالكتيك الماركسي ذلك بما معناه: تعتبر السمات التي تقرر النوع ضرورية، بينما الاختلافات بين فردين من نفس النوع عرضية. وهذا ينطبق على الكائن الحي" حيوان أو نبات" وغير الحي البلوري" الجسم المتبلور يمتلك بنية هندسية مميزة لنوع البلورات"، وهذه البلورات قد تتعرض لعوامل عرضية تغير من أشكالها الخارجية فقط، بينما تبقى الخصائص المحددة لنوع البلورة كما هي. أما الحتمية هنا، فهي الحتمية التي انتقلت إلى العلوم الطبيعية من المادية الفرنسية، وهي تنكر الصدفة كلية، وتعتبر الضرورة البسيطة، المباشرة، تسيطر بلا منازع في الطبيعة كلها. ويصف انجلز كلام هيغل عن الصدفة والضرورة بأنه"هراء لأنه ليس إلا تلاعبا بالألفاظ". فهو – أي" هيغل" – يقول أن للعرضي أساسا ما لأنه عرضي، وفي الوقت نفسه لا أساس له لأنه عرضي، وبأن العرضي ضروري، وبأن الضرورة تجد نفسها بنفسها . ... الخ".

في (أصل الأنواع)، يتطابق كلام داروين عن الصدفة والضرورة تمام التطابق مع الديالكتيك الماركسي. ففي الديالكتيك الماركسي انحياز تام ومطلق نحو التحليل والتفسير العلمي للأحداث والظواهر الطبيعية، قائم على أساس المرونة والاحتمال بعيدا عن اليقينية والمطلق والجمود. عكس الغيبية بفلسفتها المثالية الميتافيزيقية، ذات المقولات الجامدة المطلقة، التي لا تعتد بالبراهين العلمية التي تؤكد أن الأضداد الثابتة" السبب والنتيجة، العلة والمعلول، الهوية والتمايز، المظهر والجوهر، هي أساس الحركة، وبالتالي، فهي أساس الحياة. يؤكد الديالكتيك الماركسي، أن الأقطاب المتضادة هي منشأ أو أصل الحياة:"أي من القطبين يتضمن بصورة جنينية في القطب المعاكس، وانه عند نقطة معينة يتحول احد القطبين إلى الآخر، وان المنطق بأكمله لا ينشأ إلا من هذه المتضادات المتحركة إلى الأمام".

إن الديالكتيك الماركسي هو ديالكتيك العقل، المنسجم تماما مع الحداثة، فهو ليس إلا انعكاسا لإشكال حركة العالم الواقعي، للطبيعة وللتاريخ على حد سواء. وفي هذه الجزئية فقط يفترق الديالكتيك الماركسي مع ميكانيك الكم، ذو الأفكار الغرائبية، غير العقلانية أحيانا، الأقرب الى فلسفة ما بعد الحداثة غير العقلانية.

العنف المدرسي وآثاره الضارة في الطلبة والمدرسة اثناء المرحلة المتوسطة ❖

د . موحان لعيبي

د. موحان لعيبي من مواليد 1944، حاصل على شهادة الدكتوراه في فلسفة التربية عام 1991 من جامعة بودابست (أكاديمية العلوم المجرية/ هنكاريا) بدرجة امتياز. عمل مدرسا في احد معاهد المعلمين في الجزائر كما عمل في المانيا كاختصاصي للحالات الخاصة بعد حصوله على دبلوم عالٍ في هذا المجال. بعد عودته الى العراق في عام 2004 عمل د. موحان في وزارة التربية كباحث تربوي. لديه العديد من البحوث في مجال التربية.

يقصد بالعنف ذلك السلوك المقترن باستخدام القوة الجسدية وهو الفيروس الحامل للقوة، القهر، التدمير، التوبيخ، الضرب، واستخدام السلاح . ومن هذا التعريف يتبين ان العنف الأسري هو عبارة عن النشاطات والتصرفات التي تسبب أضراراً –جسمية –عاطفية ونفسية من قبل شخص آخر في الأسرة.

إن التنشئة التسلطية داخل الأسرة والمدرسة تولد كبتاً والكبت يولد عنفاً وما زالت مجتمعاتنا العربية يظهر فيها الابن يقلد والده (الزوج) ودور والده التسلطي. كل هذا يهدد الصحة النفسية للأطفال، إضافة الى الحاجة إلى الأمن والاستقرار، وهي من أهم حاجات النمو النفسي وهذا يحتاج إلى خلق بيئة آمنة، ومحيط اجتماعي مستقر وعائلة متماسكة الأفراد، إضافة الى التعاون ما بين البيت والمدرسة وتقوية الصلات بينهما من خلال مجالس الآباء والمدرسين وبصلات أخرى .

ومن العوامل التي تزيد النار اشتعالاً العامل الاقتصادي بسبب فقر الحال والإهمال المتعمد، والذي يقف حائلاً بين حاجة الأبناء وعدم القدرة على توفيرها، وهذا هو جوهر المشكلة داخل الأسرة.

ومن نظرة تاريخية لحالة المجتمع العراقي يتبين إن الإنسان يمتلك مجموعة من القيم التي تحرك سلوكه وإنها لم تولد معه بل اكتسبها من بيئته، الأسرة، والمدرسة وهي نتاج المنظور القيمي الذي خيم لعقود طويلة من دون تغيير بدعوى أنها تتلاءم وطبيعة المجتمع. لقد أصبحت هذه القيم وبالاً على الإنسان لأنها أفرزت جيلاً خاضعاً خانعاً للسلطة فهي تمنعه من إبداء

رأيه بوسائل التعبير الأخرى وتحرص على كبت حرياته وتحسسه بالدونية من خلال أدواتها التربوية .

إن العقاب البدني اواللفظي كالاستهزاء اوالسخرية بالآخرين يؤدي الى ضياع فرصة التعزيز الايجابي وانخفاض الروح المعنوية لدى التلامذة/ الطلبة وشعورهم بالإذلال والمهانة والعزلة وتدمير ممتلكات البيت والمدرسة وبالتالي ممتلكات المجتمع المادية أوالمعنوية. فالعقاب يؤدي بدلاً من انخفاضه إلى تثبيت السلوك العدواني لديهم وليس التخلص منه.

أسباب العنف المدرسي والتجربة المدرسية:

أولاً: الإدارة المدرسية

إن البيئة المدرسية أكثر ثباتاً وأتساعاً وتأثيراً على البيت وتترك آثارها على الأجيال القادمة وعاداتهم وتقاليدهم، لأنها أشد خضوعاً لتطورات المجتمع الخارجي من البيت. يتبين مما تقدم أن الإدارة الديمقراطية هي الإدارة التي ينخفض فيها توتر وقلق وخوف المدرس والطالب. وهذا يساهم في شيوع الفلسفة التربوية الديمقراطية في المدرسة وإشباع احتياجاتهم النفسية والاجتماعية بعيداً عن التسلط والتشديد مما يجعل هؤلاء من أكثر المدافعين عن الديمقراطية وكذلك يمكن للمدرسة أن تعالج مشكلاتها كالغيابات والرسوب والتسرب وكذلك العنف المدرسي والعدوان لدى بعض الطلبة وغيرها من المشكلات المدرسية.

ثانيا: العنف الأسري

يعرف العنف الأسري بأنه النشاطات والتصرفات التي تسبب ضرراً جسمياً أوعاطفياً اونفسياً من قبل شخص آخر. إن التنشئة التسلطية تولد كبتاً والكبت يولد عنفاً اذ ان الحضارة السائدة في الوطن العربي ومنها الأردن هي حضارة تسلطية ذكورية يقلد فيها الابن (الزوج) دور والده التسلطي والعنف ضده وضد أمه وأخواته فيما يرى العنف على زوجته وأولاده.

ثالثا ـ المراهقة والعنف المدرسي

المراهقة هي مرحلة العمر البشري التي يتم فيها النموعلى هيئة تبدّلات بيولوجية خاصة بالبلوغ تتجلى على وجه اخص في نفسية المراهق وسلوكه. ويرى (جان جاك روسو) في المراهقة" ولادة ثانية منظوراً إلى الانقلابات التي تحدثها". أما (ارنولد جيزيل) فيرى فيها مرحلة تبدل حاسم وسياق نضج وتطور دؤوب. ومن جانبه يضيف (جان بياجيه) العالم النفسي السويسري : إن المراهقة مرحلة نشوء كفاءات وملكات عقلية لم تعرفها الطفولة (مفهوم البعد الثالث اوالحجم التجريد الذهني والتنظير.....). غير أن (مارغريت جيد) وعلماء اجتماع آخرين يربطون تبدلات المراهقة بالتغيير البيئي وبالتنامي الثقافي متجاوزين المستوى البيولوجي فهي في مفهومهم فترة الاندراج في الحياة الاجتماعية الراشدة مع حنين إلى الطفولة وحريتها.

رابعا: الإحباط والفشل الدراسي وأثرهما في العدوان والعنف المدرسي

إن صعوبة وضعف المناهج وعدم

ملاءمتها من حيث العمر العقلي والزمني للطلبة وفشلهم دراسيا فيها تؤدي إلى انخفاض في تحصيلهم الدراسي وبالتالي يتم تقييمهم دون الآخرين الذين يحرزون نتائج عالية في الامتحانات، وهذا يؤدي إلى الإحباط والذي يكون من نتائجه العنف المدرسي. فالطالب المتكيف غالبا لا يقوم بسلوكات عنيفة في حين أن الطالب الذي يفشل والطالب غير المتكيف والمحبط يستخدم العنف كإحدى الوسائل لتأكيد الذات والتي يعبر بها عن رفضه وعدم رضاه لذلك الواقع.

خامسا: تأثير التلفاز والمشاهدات الحية في تقوية نزعة العدوان والعنف لدى الأطفال والطلبة في المدرسة والبيت

أصبح للتلفاز تأثيره الواسع مع مجال عريض في القيم والمعايير الاجتماعية وغالبية أنماط السلوك والعادات الاجتماعية لأنه يعرض بوجه خاص مواد تحتوي على مشاهد العنف والرعب والجريمة والعدوان بشكل هائل وفي زيادة مستمرة. وقد ورث المجتمع العراقي آثاراً سلبية ضارة عن الدكتاتورية المنهارة وفي مرحلة ما بعد سقوط النظام الدكتاتوري وكذلك الإرهاب البغيض الذي اندلع ما زاد النار اشتعالا وما تركه من جرائم بشعة مما انعكس على المواطن الصغير والكبير، الذكر والأنثى، بالصورة والصوت واثر باتجاه تصاعد العنف المدرسي. والمشاهدة المستمرة لمشاهد العنف الجسماني والقوة البدنية والمواقف المركبة تؤدي على المدى البعيد الى التبلد والإحساس بالخطر والى القبول بالعنف كوسيلة استجابية لمواجهة موقف الصراعات أوممارسة السلوك العنيف ذاته الأثر الذي يولده العنف على المراهقين.

سادسا: اثر الاحتلال الأجنبي والعنف المدرسي:

إن أشكال العنف السياسي تندرج تحت عنصرين رئيسين هما: العنف المباشر والعنف غير المباشر. فالعنف المباشر يشمل القتل، هدم البيوت، السجن والتعذيب وغيرها من أساليب العنف. أما العنف غير المباشر فهوالذي يقصد به الوسائل الواضحة التي استعملها المحتل لإخضاع الشعب مثل تقييد الحركة، الاهانة، الاضطهاد، الاستغلال بأنواعه (التجهيل أي تشجيع الشباب على التسرب من المدارس الانحرافات السلوكية مثل تعاطي المخدرات) تجريد الأفراد والمجموعات من حقهم في إحياء تراثهم الثقافي.

سابعا: اثر المخدرات والعنف المدرسي

من الأسباب التي تعرض حياة أعداد ضخمة من المراهقين للخطر استعمال المخدرات والذي أصبحت فيه بلادنا الممر للتهريب هذه المادة الخطرة الضارة والممنوعة بين منطقة مكان المنبع لها والمستورد لها. وللأسف الشديد انتشرت هذه المادة بين شبابنا مما يضر بقدراتهم العقلية والنفسية، وبالأسرة أيضاً حيث يكون المدمن منعزلا عن العالم.

الواقع الفعلي للعنف المدرسي في المرحلة المتوسطة حسب الصف والجنس وضمن حدود العينة

تم اختيار عينة كبيرة وواسعة شملت العديد

من مدارس الذكور والإناث والمختلطة، اختيرت العينة عشوائياً من الريف والحضر وقد وصلتنا الأعداد الآتية من العينة المختارة:

أولاً:- طرحت أسئلة متميزة على المشرفين الاختصاصيين ومدراء المدارس والمدرسين والمرشدين التربويين ولكلا الجنسين وكانت هذه العينة (27 ذكورا و20 إناثاً) للإشراف الاختصاص.

- إدارة المدرسة (45 مديرا و51 مديرة).

- عدد المدرسين (48 مدرسا و58 مدرسة).

- بينما المرشدون التربويون (32 ذكوراً و30 إناثاً).

بحيث أصبح المجموع 152 ذكوراً و159 إناثاً وبالتالي بلغ المجموع الكلي (311).

ثانياً :- طرحت أسئلة استطلاعية على المرشدين التربويين في المحافظات كافة عدا (إقليم كوردستان) وكانت أعداد العينة كالآتي:

170 مدرسة لعدد من المحافظات بلغ (10 محافظات) أو مديريات عامة للتربية (عدا محافظة بغداد) كانت:

* 14 (مدرسة للبنين و8 مختلطة و9 للبنات) في الريف أي ما مجموعه 41 مدرسة أو مرشد ومرشدة تربوية.

* أما مدارس الحضر فكانت: (9 مدارس بنين و45 مدرسة مختلطة و44 مدرسة بنات).

* اختيرت هذه العينة عشوائياً وتم استخلاص أجوبة العينتين وتبويبها وكانت أسئلة مفتوحة وقد ركزنا على الإجابات المتكررة وعدم إهمال الإجابات الصغيرة وهذا من شأنه تسليط الأضواء على ماهية المشكلة ومعالجتها ووضع صيغة استبانة لعينة الطلبة (ذكوراً وإناثاً) وتم التأكيد على الطلبة الراسبين في صفهم لأنهم أكثر استعداداً للعنف المدرسي من الناجحين من صف إلى أعلى اومن مرحلة الى أخرى. وهذا يساعدنا على الاقتراب من المحسوس للواقع والابتعاد عن التنبؤات البعيدة، إضافة الى انه يساعد في تفريغ شحنات بعض الطلبة المكبوتة من خلال إجاباتهم على الاستبيان من دون ذكر اسم الطالب عندما يعبرون عن العنف المدرسي. وكانت هذه العينة واسعة حسب الجنس والصف في المرحلة المتوسطة وبين الريف والمدينة وللإجابة (بنعم أوأحياناً أولا أوترك السؤال فارغاً) لرصد حوادث العنف ومدى تكرارها ودرجة ضررها إذ تصدرت:

أ. حوادث العنف نحو الذات.

ب. حوادث العنف نحو الآخرين.

ج. كذلك حوادث العنف نحو المدرسة وممتلكاتها التي تكون هذه الحوادث الثلاثة كمؤشرات على أضرار العنف ايضاً.

وهنا تتم الإشارة الى الإجراءات عن العنف المدرسي من وجهة نظر العينة سابقة الذكر المكونة من (152) ذكراً و(159) إنثىً والمجموع الكلي (311).

جدول رقم (1) يمثل حالات العنف نحو الذات وآثاره الضارة في المدارس المتوسطة للبنين والبنات ومرتبة ترتيباً تنازلياً من الأعلى الى الأسفل:

العنف نحو الذات وآثاره الضارة	التكرار	العنف نحو الذات وآثاره الضارة	التكرار
١- لا توجد اجابة	٧٣	١- لا توجد اجابة	٤٤
٢- يقوم الطالب بإيذاء جسده	٢٦	٢- يقوم الطالب بإيذاء جسده	١٢
٣ عدم تحضير الواجبات المدرسية	٢١	٣ عدم تحضير الواجبات المدرسية	١٦
٤- كره الطالب لنفسه	١٤	٤- كره الطالب لنفسه	١٠
٥- الانطواء والعزلة	١٣	٥- الانطواء والعزلة	٩
٦- عدم الاهتمام بالأوامر المدرسية	٦	٦- استخدام العنف لمحاولة الانتحار	٩
٧ مصاحبة اصدقاء السوء	٥	٧ التعارض لطلب الانتباه	٦
٨- إهمال الطالب لمظهره الخارجي	٥	٨- الاهتمام بمشاهدة أفلام العنف	٥
٩- الاهتمام بمشاهدة افلام العنف	٥	٩- قضم الأظافر	٥
١٠- قضم الأظافر	٤	١٠- تعاطي الطالبة من وسط الأسرة	٤
١١- رداءة الخط من الناحية الإدارية	٤	١١- القلق الانفعالي	١
١٢- القلق الانفعالي	٣		

جدول رقم (2) يمثل نسب حالات العنف ضد الآخرين وآثاره الضارة في المدارس المتوسطة والمرتبة ترتيباً تنازلياً للذكور والإناث من الطلبة:

العنف نحو الآخرين في مدارس البنين	التكرار	العنف نحو الآخرين في مدارس البنات	التكرار
١- المشاجرة والعراك بين الطالب ومعلم مع الزملاء الآخرين	٣٥	١- المشاجرة والعراك بين الطالبات ومعلمين مع الزميلات الآخرين	٣١
٢- العنف اللفظي ضد الطلاب والمدرسين	٣١	٢- العنف اللفظي ضد الطالبات والمدرسات	٣١
٣- سرقة كتب واحتياجات زملائهم في الصف	٢٧	٣- سرقة كتب واحتياجات زميلاتهن في الصف	٩
٤- تمزيق كتب ودفاتر الطلاب المجتهدين والمتفوقين	١٢	٤- تمزيق كتب ودفاتر الطالبات المجتهدات والمتفوقات	٤
٥- لا توجد اجابة	١١	٥ لا توجد اجابة	٢٤
٦- ضرب الطلاب ضد المدرسين	١١	٦- عدم الالتزام بالزي الرسمي	٢
٧- التفوق على زملائهم في الدراسة	٨	٧- التفوق على زميلاتهن في الدراسة	٢
٨- التحيز بحسب الفروق الفردية والأسرية وتأثيرها على الطلاب	٥	٨- الكتابة على جدران المدرسة ضد الطالبات	٢
		٩- عدم الالتزام الاجتماعي	٢

جدول رقم (3) نسب حالات العنف ضد ممتلكات المدرسة وآثاره الضارة للمدارس المتوسطة ولكلا الجنسين:

العنف نحو الذات للبنين وآثره الضارة	التكرار	العنف نحو الذات للبنات وآثره الضارة	التكرار
١- لا توجد إجابة	٧٣	١-لا توجد إجابة	٤٤
٢ يقوم الطالب بإيذاء جسمه	٢٦	٢ تقوم الطالبة بإيذاء جسمها	٢٤
٣- عدم تحضير الواجبات المدرسية	٢١	٣- عدم تحضير الواجبات المدرسية	٢٦
٤ كره الطالب لنفسه	١٤	٤ كره الطالبة لنفسها	١٠
٥ الانطواء والعزلة	١٣	٥ الانطواء والعزلة	٩
٦- عدم الاستجابة للأوامر المدرسية	٦	٦- [illegible]	٩
٧- مصاحبة أصدقاء السوء	٥	٧- التعارض لطلب الانتباه	٦
٨- إهمال الطالب لمظهره الخارجي	٥	٨- الاهتمام بمشاهدة أفلام العنف	٥
٩- الاهتمام بمشاهدة أفلام العنف	٥	٩- قسم الأظافر	٥
١٠- قسم الأظافر	٤	١٠- تعاني الطالبة من تفكك الأسرة	٤
١١ يعاني الطالب من تفكك الأسرة	٤	١١ القلق الانفعالي	١
١٢- القلق الانفعالي	٣		

– تم طرح هذه الأسئلة المفتوحة وعلى ضوء ذلك تم استخلاص وإعداد أسئلة استفتاء مغلقة للطلبة.

الاستبيان الموزع على الطلبة وصلنا كالآتي وحسب الصف والجنس:

	ثور			ثلج		
الصف الأول المتوسط	الصف الثاني المتوسط	الصف الثالث المتوسط		الصف الأول المتوسط	الصف الثاني المتوسط	الصف الثالث المتوسط
في محافظة بغداد	٤٠٩	٤٠٧		٧٣	٨٣	١٠٢
محافظات أخرى	٣٤٩	٣٤٤		٦٥	٨٩	١٤٨
المجموع	٧٥٨	٧٥١		١١٩	١٧٢	٢٥٠

وبلغ المجموع الكلي للعينة من الطلبة ١٢٢٧ طالباً وطالبة، موزعين حسب الصفوف كما هو واضح أعلاه وكانت نتائج هذه الأسئلة المفتوحة هي: ما هي نتائج هذه المعالجات التي تم استخدامها مع الطلبة ذوي العنف المدرسي؟

إن اغلب المدارس لم تجب عن هذا السؤال ولكن كان هناك من أجاب مشيرا إلى:

1– ازداد تفهم الطلبة وفهم أنفسهم من حيث التعاون والصداقة إذ تحول العدد الأكبر منهم من مصدر للعنف الى مصدر للتآلف والمحبة في ما بينهم وإدارة المدرسة.

2– وبعضهم ازدادت نشاطاتهم الصفية والرياضية والاجتماعية وغيرها من الأنشطة.

3- تحسن المستوى العلمي والدراسي لبعض الطلبة من ذوي العنف.

4- انخفاض معدل العنف المدرسي بنسب ضئيلة بين بعض الطلاب ذوي العنف بسبب الإرشاد والتوجيه .

5- خلق جو ودي بين الطلبة والإدارة المدرسية والمرشد التربوي من خلال إبداء التوصيات بهذا الخصوص، إذ حلت نتائج ايجابية ملحوظة لتقبل ما تطرحه الإدارة المدرسية والمرشد التربوي بروح متفائلة وتفاهم.

6- كان لتعليق البوسترات والنشرات واللوحات التي ترفض العنف المدرسي دوره الايجابي بهذا الخصوص.

7- كانت نتائج متابعة هؤلاء: جمالية المدرسة والصفوف بصورة عامة من خلال تفعيل (مبدأ الثواب والعقاب) وتخصيص سجل للحالات غير اللائقة يسمى سجل الحالة.

8- تم تقليل العنف المدرسي داخل المدرسة بعد الإرشاد والتوجيه التربوي، إذ تقبل الكثير منهم ولكلا الجنسين هذا التوجيه والنصح الذي تقدمه المرشدة أوالمرشد التربوي إلى هؤلاء الطلبة وكانت نتائج ايجابية. هذا إضافة إلى وضع النشرات التي تفي بالغرض والخاصة بالعنف المدرسي والتي استطاعت أن تحسن مستوى التزام هؤلاء الطلبة بالأنظمة والقوانين أوالتكيف الجيد ما بين هؤلاء الطلبة والمدرسة، بالرغم من أن هناك من لم يستفد ولم يستجب إلى المعالجات بعد عدة جلسات لعدم مساعدة أولياء أمورهم ولعدم اهتمامهم بأبنائهم ومتابعتهم أيضاً في داخل المدرسة بشكل مباشر أوغير مباشر لمعرفة مدى قابلية الطلبة ذوي العنف واستعداداتهم للحد من العنف.

9- وهناك من أشار (الطالبات بشكل خاص) الى أن العنف بأشكاله المختلفة قليل جداً في المدرسة عند الإناث قياساً بالذكور بسبب وعي الطالبات وشعورهن بالقيمة المادية والمعنوية لمتلكات المدرسة وتعاون الإدارة والمدرسات في متابعة ومراقبة الطالبات في كيفية الاعتناء بممتلكات المدرسة، إضافة إلى النظافة وتعاون الطالبات مع بعضهن من جهة ومع إدارة المدرسة من جهة أخرى وخاصة بعد الإرشاد والتوجيه لهن .

10- أبدت إحدى الطالبات تعاوناً ملموساً مع إدارة المدرسة وهذا كان له اثر ايجابي على اهتمام الطالبات برفع مستواهن العلمي عكس ما كان عليه سابقاً وتم الحد من ظاهرة العنف لديهن، كما أصبحت علاقاتهن مع بعضهن طيبة بعد ان كانت تتسم بالشجار والعدوان. وكذلك تكوين علاقة ودية بين الطالبات وأسرهن والمرشدة التربوية وتهذيب سلوك الطالبة داخل المدرسة.

11- كانت النتائج المتحققة جيدة جداً اثر التعاون بين المرشدة التربوية والإدارة المدرسية وأولياء أمور الطالبات وساهم ذلك في خدمة للعملية التربوية. وساهمت النشاطات اللاصفية التي تفيد الطلبة الآخرين مع بعض التخفيف من شدة الغيرة بين الطلبة المتفوقين وتعريفهم بإمكاناتهم وقدراتهم الحقيقية .

12- وظهرت أسباب العنف نحوالذات:

أسباب نفسية يعاني منها هؤلاء الطلبة ذاتياً وأخرى اجتماعية أي نتيجة إساءة معاملة أولياء أمورهم وأخرى اقتصادية ودراسية وغيرها.

13- أما من ناحية أسباب العنف نحو الآخرين من خلال بعض زملائهم الطلبة او بعض المدرسين ومن كلا الجنسين فيتحمل مرشدو الصفوف مسؤولية ذلك، إضافة الى أسباب عائلية مثل التفكك الأسري والحرمان العاطفي وسوء تربية الطفل وعدم متابعته وتعليمه عادات سيئة وعدم التمييز بين الأمور والخلط. كما ساهم الإحباط والفشل الدراسي وإهمال الطالب لواجباته المدرسية ومحاسبته من قبل الادارة المدرسية حين تحين له الفرصة.

ت	ت	[illegible]	نعم بنين	نعم بنات	أحيانا بنين	أحيانا بنات	لا بنين	لا بنات	ترك بعض الاسئلة فارغة بنين	ترك بعض الاسئلة فارغة بنات
١	١	[illegible]	%٤١	%٣٠	%٣٠	%١٣	%١٦	%٣٠	%٢٠	%١٠
٩	٩	[illegible]	%٣٦	%٣٠	%٤٠	%٣٣	%٣٠	%٣٠	%٦	%٣
٣	١١	[illegible]	%٣٣	%١٣	%٣٠	%١١	%١٠	%٣١	—	%٣١
٤	[illegible]	[illegible]	%٢٢	%١٩	%١٣	%١١	%٤٠	%٤٣		
[illegible]	[illegible]	[illegible]	%٣٠	%١٦	%٣٠	%١٣	%٤١	%١٦	%٤	%١٧
[illegible]	[illegible]	[illegible]	%٤٥	%١٧	%٢٦	%٢٦	%٤٠	%١٤	%٥	%١٧
[illegible]	[illegible]	[illegible]	%٢٢	%٤٥	%٦٦	%٣٣	%٣٧	%٢٣	%٦	%٣
[illegible]	[illegible]	[illegible]	%٢٢	%٢٣	%١٣	%١٣	%٢٧	%٥٠	%٢٠	%٤٤
[illegible]	[illegible]	[illegible]	%٢٠	%١٩	%٢٣	%١٩	%٤٦	%٥٣	%٨	%١٤
١٠	[illegible]	[illegible]	%١٨	%١٤	%٣٠	%١٦	%٤٠	%٣٦	%١٢	%٣٠
١١	١٠	[illegible]	%١٨	%١٦	%٢٥	%١٨	%٥٠	%٦٥	%٦	—
١٢	[illegible]	[illegible]	%١٥	%١٦	%٣٣	%٣٣	%٤٢	%٥٣	—	%٧
١٣	[illegible]	[illegible]	%١٣	%٥	%٢٥	%١٣	%٦٢	%٦٦	—	%١٢
١٤	[illegible]	[illegible]	%٨	%٤	%١٢	%٦	—	—	%١٠	%٩٠
١٥	١٥	[illegible]	—	—	—	—	—	—	—	—

الاستنتاجـــات

أ- في الصف الأول المتوسط ولجميع العينة في المحافظات وفي مدارس المدينة بصورة عامة فان العنف المدرسي يتسم بما يأتي:

1- نسب العنف في مدارس الذكور أعلى من نظيرتها في مدارس الإناث (سواء أكان ذلك العنف لفظيا أم عضليا). ويرجع الأمر الى العامل البيولوجي وفي انفتال العضلات والقوة الجسدية والى الهرمونات.

2- وبالمقابل فان نسب العنف في مدارس الريف اقل منه في مدارس المدينة. وهذا يرجع إلى تقارب العلاقات العائلية في الريف، فالبعض يعرف الآخر عائلياً ولكون العلاقات العشائرية والقرابة لها دور في الحد من العنف المدرسي، وكذلك تساعد على الانضباط الذاتي .

ب- أما نتائج الإحصاءات التربوية للاستفتاء فان العوامل المحركة أظهرت تقاربها إلى حد التطابق في النصف الأول من النسب المئوية للجانب النظري مع الجانب العملي كالآتي:

1- إن العامل الموضوعي المؤثر من خارج الطلبة هوأكثر من النسبة المئوية المؤثرة على الطلبة كأسباب العنف المدرسي في النسب المئوية الداخلية على الطلبة أوالعامل الذاتي وخاصة إذا وقع بعض الطلبة بأيدي المدرسين المؤهلين تربوياً ومهنياً .

2- إن كثيرا من نسب الإجابة بـ (بنعم) تشير إلى ارتفاع نسب تسرب الطلبة مثل التعرض للضرب من قبل بعض المدرسين اوالإدارة المدرسية.

أما نتائج إحصائيات الصف الثاني المتوسط في مدارس محافظة بغداد من العينة بشأن العنف الموجه ضد الطلبة الآخرين فكانت كالآتي:

1- إن ضرب الزملاء من الطلبة بالطباشير كأسلوب عدواني أثناء الدرس لغرض التشويش يعني عدم انشداد الطلبة إلى شرح المدرس وقلة الوسائل التعليمية وأن الدرس غير مشوق. ولهذا يلجأ بعض الطلبة إلى التشويش والهاء المدرس بأمور ضبط الدرس. هذا إضافة الى الأعداد المتزايدة في الصف وارتفاع معدلاتها في الصف الواحد.

2- وهذا ينسحب مع الدخول والخروج لذا يجب ضبط الخروج والدخول من وإلى المدرسة بشكل منظم وبأسلوب يخلق الاحترام بين الطلبة.

3- في حين يقع في المرتبة الثالثة الفشل الدراسي لدى الطلبة والذي يؤدي إلى العنف الجسمي واللفظي.

4- يعاني بعض الطلبة من تسلط الأقوى والأكبر على الصغار والأضعف جسمياً.

5- هناك من يقوم بإيصال أخبار كاذبة ومغرضة.

أما بالنسبة لطلبة الصف الثاني المتوسط في المحافظات المشمولة بالعينة المختارة فقد ظهر ما يأتي:

1- تأتي في المقدمة معاناة الطلبة من تسلط بعضهم، وهذا يفسر قلة الوعي العام ووجود المنافسة والغيرة من بعضهم البعض.

2- أما عند الدخول أوالخروج من الصف والمدرسة فعادة ما تحدث إصابات بين الطلبة.

3- عند الغضب يشتم الطلبة لبعضهم بكلمات نابية .

4- ضرب زملائه الطلبة بالطباشير لغرض التشويش.

5- عدم مراعاة التعليمات الرسمية والعناية بالنظافة داخل الصف والمدرسة.

6- استخدام الصوت العالي أثناء الدرس.

7- أما في حالة الفشل الدراسي يستخدم الطالب العنف الجسدي واللفظي.

إن كل هذه النقاط وإن اختلفت في الموقع من حيث التقديم والتأخير، لكنها كلها تشكل النسب الأعلى في الصف الثاني المتوسط لمدارس المحافظات.

وفي ما يخص العنف الموجه ضد ممتلكات المدرسة فأظهرت العينة ما يأتي:

1- هناك من لا يعتني بتجليد كتبه ويعرضها للتلف وهذا يجعل منه أن لا يعتني بالقطاع العام للمدرسة.

2- رمي بعضهم الأوساخ في خزان مياه الشرب في المدرسة دون الشعور بالمسؤولية والتجاوز في عدم رمي الأوساخ في حاويات النفايات والأماكن المخصصة لها.

3- سرقة محتويات المدرسة إيذاءً للآخرين .

4- تلف الأشجار وقطع الزهور في الحديقة المدرسية ومزروعاتها .

5- هناك من يقوم بإتلاف المقاعد الدراسية.

وهذا ما أكدته نتائج مدارس محافظة بغداد والمحافظات من العينة رغم الاختلاف النسبي في التقديم والتأخير.

المقترحات لمعالجة العنف المدرسي:

1- قيام المرشد التربوي بعرض آليات العمل وحسب الحالات التي يشاهدها ويتم تطبيقها على الطلبة مثل (النمذجة، التقرير الاجتماعي، والحديث الايجابي)؛ والاعتماد على الإرشاد والتوجيه التربوي والنفسي الفردي والجماعي للطلبة، وتقديم محاضرات في إرشاد الطلبة لكلا الجنسين، والتعاون بين المرشد التربوي ومدير المدرسة. ومن جانب آخر التأكيد على أهمية المحافظة على محتويات المدرسة وهي ملك الجميع ولا يجوز إتلافها. وأخيراً لا بد من استغلال اجتماعات مجالس الآباء والمدرسين وطرح هكذا مشاكل وعرضها للحوار بهدف الوصول إلى حلول ناجحة.

2- إن يضع المرشد التربوي / المرشدة التربوية جدول مراقبة يومي وأسبوعي في ساحة المدرسة والصفوف وكذلك عند إلقاء كلمة يوم الخميس التي تتضمن العنف المدرسي وأن يتم إحضار الطلبة الذين قاموا بإتلاف ممتلكات المدرسة وتوجيههم أمام الجميع، شريطة أن يتم تشخيص هؤلاء الطلبة من قبل لجنة مشكلة من المدرسين والطلبة ممن يقوموا بالتجوال أثناء فرص الاستراحة ما بين الدروس.

3- تدريب الطلبة ذوي العنف على البدائل

السلوكية ولا يمكن أن يكون العنف إلا الوسيلة الأخيرة اوالاضطرارية. ولا بد من وضع الأنظمة اللاصفية لاستغلال الطاقات الزائدة للطلبة العنيفين التي تصرف وتوجه باتجاه صحيح تفيد هؤلاء والآخرين وتعرفهم بإمكاناتهم وقدراتهم الحقيقية، ونشر مفاهيم التسامح وقبول الآخر والتحلي بروح المحبة والصداقة.

4- حث أولياء أمور الطلبة على مراقبة أبنائهم وتوضيح الآثار السلبية للعنف المدرسي ومعاملة أبنائهم معاملة حسنة بعيدة عن أساليب الضرب والقسوة والعنف الجسمي واللفظي وعدم السماح لهم وبأسلوب تربوي بمشاهدة أفلام العنف والرعب والدم في التلفزيون وكذلك مراقبة سلوك أصدقائهم (رفاق السوء).

5- التأكيد على أهمية خصائص الشباب وتوجيه طاقاتهم واهتماماتهم بشكل صحيح وفتح النوادي الرياضية والثقافية والاجتماعية بدلاً من تركهم لرفاق السوء في الشوارع، والاستفادة من مبنى المدرسة من حيث الملعب والتجهيزات وفتحها للطلبة في وقت العطل الرسمية والإجازات لاحتواء الشباب، وتفعيل ميول الطلبة الفكرية والعلمية واصطحابهم إلى المكتبة بما يعزز من قدراتهم الإبداعية والحفاظ عليها.

6- التنبيه إلى خطورة الجانب الإعلامي السلبي في تشجيع ظاهرة العنف المدرسي من خلال بث الأفلام والمشاهدة التي تشجع على نموهذه الظاهرة في مجتمعنا. ومن الممكن الاتصال بمديرية التربية / قسم الإعلام التربوي وإعلامهم بضرورة أن يكون لهذا الموضوع (أي العنف المدرسي) دور مهم في المجلة التربوية وأيضاً في موقع المديرية الالكتروني والندوات التي تعقدها المديرية بواسطة المشرفين والمسؤولين في المديرية.

7- تلعب المدرسة دوراً أساسياً في التوعية الأسرية والتنشئة الاجتماعية في رعاية أبنائهم وتوفير الجوالمناسب لهم في البيت من خلال نشر الوعي الأسري وأهمية التوافق والتفاهم بين الوالدين لضمان نموأولادهم نمواً سليماً في شتى الجوانب النفسية والاجتماعية والشخصية. ومن جانب آخر لا بد من خلق جوتربوي فعال بين الإدارة المدرسية والطلبة، ومساعدتهم على تجاوز الصعاب والمشكلات التي تواجههم في الميدان على الصعيد النفسي والاجتماعي والتعليمي المدرسي، ومعالجة مشكلاتهم بروح تربوية وتعريفهم بالآثار المترتبة على استخدام العنف المدرسي. وعلى الإدارة المدرسية أن تتجاوز استخدام العقوبة للسلوك العدواني والمكافأة للطلبة الذين يتركون العنف المدرسي وفق إجراءات قانونية لتخويفهم في المدرسة والحالات الصعبة فيها إحالة الطلبة هؤلاء إلى المؤسسات الاجتماعية الصحية، المختصة لمعرفة أسباب ذلك ولكن في الوقت ذاته تسعى المدرسة إلى توفير وسائل الراحة داخل المدرسة والاهتمام بالملاعب الرياضية والفنية.

* مباحث مختارة من دراسة أطول للكاتب.

المصادر

1- تدني التحصيل والانجاز المدرسي – عمر عبد الرحيم .

2- الجوانب السلوكية في الإدارة المدرسية – نديم عبد الرحمن/الأردن / عمان .

3- إدارة التعليم الصفي – د. طارق عبد الحميد البدري . الأردن/عمان.

4- إرشادات المجموعات الخاصة – د. عطا اللّه فؤاد /الأردن – عمان

5- المرشد التربوي ودوره الفاعل في حل المشاكل للطلبة – د. هادي مشعان وإسماعيل محمد / الأردن – عمان

6- سلوك المشاغبة في المدارس الثانوية – ماهيته وكيفية إدارته – كيت سوليفان ماري / ترجمة د. طه عبد العظيم / الأردن – عمان

7- التوجيه والإرشاد النفسي د. احمد الخطيب واحمد محمد الزيادي

8- العنف المدرسي بين النظرية والتطبيق – احمد رشيد عبد الرحيم

9- الخطيب محمد جواد (1986) رسالة دكتوراه من معهد الدراسات العليا للطفولة /جامعة عين شمس.

10- التخطيط التربوي – النظرية والتطبيق / د. محسن حسنين.

11- سيكولوجية التأخر الدراسي نظرة تحليلية علاجية/ د. يوسف ذياب عواد .

12- سيكولوجية الناظر الدراسي/ د. يوسف ذياب .

13- الإدارة المدرسية الحديثة / النظريات والتطبيقات الحديثة جودت عزت عطيوي .

14- القيادة الإدارية – د. نواف نعمان

15- سيكولوجية رعاية الموهوبين المتميزين وذوي الاحتياجات الخاصة / الأستاذ د. صالح حسن الزهري

16- سيكولوجية إدارة الأزمات / د. عبد الوهاب كامل

17- قضايا إرشادية معاصرة والعلاج النفسي / د. عطا اللّه فؤاد الخالدي .

18- اثر التلفزيون في المراهقين- نزهة الخوري / لبنان 1997.

19- تربية المراهقين / محمد عبد الرحيم.

20- علم النفس التربوي / د. ثائر عباوي .

21- الإنسان والجنون – مذكرات طبيب أمراض عقلية / د. ستيفان بنديك، ترجمة د.قدوري حنفي ولطيف نظم. بيروت 1975.

نصوص
قديمة

فلسطين والمشرق العربي في نقاشات المؤتمر العالمي السابع للأممية الشيوعية *

الدكتور ماهر الشريف
مؤرخ ومثقف يساري فلسطيني

بعد استيلاء الفاشية على السلطة في ألمانيا، بدأت الطبقة العاملة العالمية وكافة القوى الديمقراطية تتلمس الحاجة إلى انتهاج سياسة جديدة قادرة على درء خطر الفاشية وصيانة السلام العالمي. وكان من الطبيعي أن تبادر الحركة الشيوعية العالمية، ممثلة بالأممية الشيوعية، اتخاذ الخطوات الملموسة لتوحيد جهود جميع القوى الثورية والديمقراطية في النضال ضد الفاشية.

ففي الخامس من آذار 1933، أصدرت اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية بيانا دعت فيه جميع الأحزاب الشيوعية إلى السعي، ومن جديد، إلى إقامة جبهة عمالية متحدة، وبالتعاون مع العمال الاشتراكيين – الديمقراطيين، تكون قادرة على صد هجمات الفاشيين على منظمات البروليتاريا والدفاع عن المصالح الطبقية للطبقة العاملة. وقد تعهدت قيادة الأممية الشيوعية بوقف الحملة الانتقادية ضد قيادة الأحزاب الاشتراكية – الديمقراطية في حال التوصل إلى اتفاق مشترك. غير أن زعماء الأممية الثانية الإصلاحية، رفضوا الاستجابة لمقترحات الأممية الشيوعية، وأوصوا الأحزاب الاشتراكية –الديمقراطية بعدم الدخول في مفاوضات منفردة مع الشيوعيين، بحجة انه يجب التوصل إلى اتفاق مركزي بين قيادة الأمميتين قبل بدء المفاوضات (1).

كان المؤتمر العالمي الأوربي المعادي للفاشية، الذي انعقد خلال شهر حزيران 1933 في قاعة "بليل" بباريس، خطوة مهمة على طريق تقارب العمال الشيوعيين والاشتراكيين – الديمقراطيين والمثقفين التقدميين المعادين للفاشية. فقد طرح المؤتمر برنامجا شاملا للنضال ضد الفاشية وضد الحرب الامبريالية، ومن أجل الدفاع عن الحقوق الديمقراطية والمطالب الاقتصادية لجماهير الكادحين، ودعا إلى إقامة جبهة

متحدة واسعة تضم جميع أعداء الفاشية، بغض النظر عن تباين معتقداتهم السياسية والفلسفية والدينية. وقد انتخب المؤتمر، في نهاية أعماله لجنة مركزية معادية للفاشية، كان من بين أعضائها "هنري باربوس" و"رومان رولان" و"مكسيم غوركي" وغيرهم من كبار المناضلين للحركة الديمقراطية الأوربية المعادية للفاشية (2).

وكانت الحملة العالمية التي نظمت للدفاع عن القائد الشيوعي البلغاري "جورجي ديمتروف"، الذي قدم إلى المحكمة الفاشية في مدينة لايبزيغ خلال شهري أيلول وكانون الأول 1933، حافزا جديدا لتوحيد نضال جميع أعداء الفاشية. وكان "ديمتروف" قد أشار، في المحكمة إلى ضرورة قيام الجبهة العمالية لمجابهة الخطر الفاشي، ودافع عن الحزب الاشتراكي – الديمقراطي تجاه تهجمات الفاشيين، مقدما بذلك مثالا عمليا عن كيفية النضال من أجل الوحدة المعادية للفاشية. وقد أدى فضح جرائم الهتلريين، خلال محاكمة لايبزيغ، إلى تنشيط القوى المعادية للفاشية في العامل أجمع، وتحولت الحملة العالمية للدفاع عن "ديمتروف" إلى حركة جماهيرية لم تشمل العمال الشيوعيين فحسب، بل تجاوزتهم إلى العمال الاشتراكيين –الديمقراطيين والعمال المسيحيين (3).

في تشرين الثاني وكانون الأول 1933، عقدت اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية دورتها الثالثة عشرة، الموسعة لمناقشة قضايا النضال ضد الفاشية، وضد الامبريالية، وضد الحرب. وقد حددت دورة اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية، وبشكل دقيق، طبيعة الفاشية على اعتبار أنها "دكتاتورية إرهابية ساخرة تمارسها عناصر رأس المال المالي الموغلة في الرجعية الشوفينية والامبريالية"، واستخلصت نتيجة ذات أهمية كبرى حينما أشارت إلى أن البروليتاريا قادرة بنضالها على وقف الحرب ودرء خطرها (4).

1- الانعطاف التاريخي في إستراتيجية وتكتيك الأممية الشيوعية:

عندما اندلعت أحداث العام 1934. الشهيرة في أوربا، كان قد تبلور داخل الأحزاب الاشتراكية –الديمقراطية الأوربية، وبشكل خاص في فرنسا وايطاليا واسبانيا والنمسا، تيار يساري قوي، دل وجوده على أن الرغبة في تحقيق وحدة الطبقة العاملة في مواجهة الفاشية قد بدأت تشمل فئات واسعة من العمال الاشتراكيين – الديمقراطيين.

لقد كانت أحداث العام 1934 نقطة تحول في مسيرة الحركة المعادية للفاشية وفي نضال الأحزاب الشيوعية من اجل إقامة جبهة عمالية متحدة معادية للفاشية.

وكان الحزب الشيوعي الفرنسي أحد أوائل فروع الأممية الشيوعية في السير على طريق الجبهة العمالية المتحدة القائمة على أساس مكافحة الفاشية والدفاع عن مصالح البروليتاريا وحماية الحريات الديمقراطية.

فعندما حاول الفاشيون الفرنسيون، في السادس من شباط 1934 الاستيلاء على

السلطة، دعا الحزب الشيوعي الفرنسي جميع العمال من مختلف الاتجاهات، للنزول إلى الشارع والتصدي للهجمة الفاشية.

وفي الوقت نفسه ، تقدم الحزب بمقترحات عملية إلى قيادة الحزب الاشتراكي لتوحيد عمل الحزبين وتنسيق نشاطهما في النضال ضد خطر الفاشية. وقد أرغم ضغط جماهير القاعدة زعماء الحزب الاشتراكي على الوقوف مع الشيوعيين، والمشاركة في التظاهرات الجماهيرية الواسعة التي نظمت للتصدي للعصابات الفاشية. وهكذا أصبحت الجبهة العمالية المتحدة أمرا محتوما بعد أن جسدها، في الواقع العملي، النضال المشترك للعمال الشيوعيين والاشتراكيين مع مجابهة الهجمة الفاشية. وبالفعل، توصل الحزب الشيوعي الفرنسي، في شهر تموز ١٩٣٤، إلى توقيع اتفاق مشترك مع الحزب الاشتراكي حول توحيد التدابير ضد المنظمات الفاشية، وفي سبيل الدفاع عن مصالح الطبقة العاملة ومطالبها (5).

وفي شهر شباط عام 1934 خاض العمال الشيوعيون والاشتراكيون الديمقراطيون في النمسا، وخلال أربعة أيام متواصلة، معارك بطولية مسلحة لإحباط الانقلاب الفاشي. وقد دلت الهزيمة التي لحقت بالعمال المعادين للفاشية على فشل السياسة الوسطية التي كان ينتهجها زعماء الحزب الاشتراكي –الديمقراطي النمساوي، وعلى إفلاس جميع أشكال السياسة الإصلاحية تجاه الفاشية الزاحفة. كما دلت أيضاً على أن جماهير القاعدة في الاشتراكية – الديمقراطية النمساوية قد سارت، وعلى الرغم من سياسة زعمائها على طريق الوحدة مع الشيوعيين وإقامة الجبهة العمالية المتحدة (6).

وإذا كان قيام الجبهة العمالية المتحدة في فرنسا قد وضع في أيدي البروليتاريا الأوربية الوسيلة الواقعية الكفيلة بدرء خطر الفاشية وإحباط مخططاتها، فإن مثال النمسا قد أكد أن استمرار الأحزاب العمالية الإصلاحية في رفض التعاون مع الشيوعيين سيلحق أضراراً بالغة بنضال الطبقة العاملة.

وفي اسبانيا، طرح الحزب الشيوعي الاسباني، ومنذ شهر آذار 1934، شعار الجبهة المعادية للفاشية ليكون الشعار المركزي لحركة جماهيرية واسعة تضم كل من لديه الاستعداد لسد الطريق أمام الرجعية، وفي أيلول 1934، انضم الشيوعيون إلى "التحالف العمالي" الذي أقامه الاشتراكيون بعد أن أكدوا ضرورة انضمام الفلاحية إلى الجبهة المعادية للفاشية.

وقد دل الإضراب العام الذي أعلنه العمال الأسبان، في شهر تشرين الأول 1934، والانتفاضة المسلحة التي فجرها عمال منطقة (استورياس) على أن التصدي الناجح للفاشية يتطلب تحقيق وحدة عمل جميع العمال الشيوعيين والاشتراكيين والفوضويين وتجاوز الاتجاهات الانعزالية والعصبوية داخل الحركة العمالية (7).

كان الانعطاف نحو الجبهة المتحدة المعادية للفاشية في سياسة الأحزاب الشيوعية في بعض بلدان أوربا الغربية، يترافق مع مناقشات حامية في هيئات

الأممية الشيوعية القيادية، ففي الاجتماع الذي عقدته اللجنة التحضيرية المكلفة بالإعداد للمؤتمر العالمي السابع للأممية الشيوعية، في الثاني من شهر تموز 1934، شن "ديمتروف" هجوماً واسعاً على الانعزالية والجمود العقائدي في صفوف الحركة الشيوعية العمالية، ودعا الشيوعيين إلى العمل على إقامة الجبهة المتحدة المعادية للفاشية، والى إتباع المرونة عند تطبيق هذا التكتيك. كما أكد "ديمتروف" ضرورة تجاوز الموضوعات التكتيكية التي كانت قد أقرتها الأممية الشيوعية بالنسبة للموقف من الأحزاب الاشتراكية- الديمقراطية، واظهر بأنه من الخطأ الاستمرار في التأكيد على أن الاشتراكية –الديمقراطية هي الدعامة الاجتماعية للبرجوازية (8).

وهكذا بدأت قيادة الأممية الشيوعية ، شيئاً فشيئاً، في تطوير فكرة الجبهة المتحدة المعادية للفاشية وفي وضع السبل الكفيلة بتحقيقها، وكانت المناقشات التي دارت في هيئات الأممية الشيوعية القيادية، خلال شهري تموز وآب 1934، والنتائج التي تمخضت عنها، بمثابة المقدمة التاريخية للسياسة الجديدة التي سيجري إقرارها، بعد عام واحد، وفي وثائق المؤتمر العالمي السابع للأممية الشيوعية.

2- الجبهة المتحدة المعادية للامبريالية والفاشية على جدول أعمال المؤتمر العالمي السابع للأممية الشيوعية:

مثّل المؤتمر السابع للأممية الشيوعية منعطفاً تاريخياً في مسيرة الحركة الشيوعية العالمية، ودخل رحبة التاريخ كمؤتمر عالمي للنضال من اجل جبهة عمالية وشعبية موحدة ضد الفاشية وضد الحرب الامبريالية.

افتتح المؤتمر السابع للأممية الشيوعية في مدينة موسكو في 25 تموز 1935 واستمر في أعماله حتى 20 آب 1935 (9). وقد ناقش مندوبو المؤتمر بشكل موسع، التقارير التي قدمها كل من "ف. بيك" عن نشاط اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية خلال الفترة الواقعة بين المؤتمرين العالميين السادس والسابع، و "ج. ديمتروف" عن هجوم الفاشية ومهمات الأممية الشيوعية في النضال من اجل وحدة الطبقة العاملة ضد الفاشية، و "ب. توغلياتي" عن مهمات الأممية الشيوعية تجاه استعدادات الامبرياليين لإشعال حرب عالمية جديدة.

ففي التقرير الذي قدمه في 26 تموز، حول نشاط اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية، أكد القائد الشيوعي الألماني "بيك"على اهمية الانعطاف التاريهي الحاصل في مسيرة الحركة الشيوعية العالمية وذلك على الرغم من استمرار تمسك بعض فروع المية الشيوعية ((بشعارات وأساليب عمل متخلفة عن الواقع)). وقد انتقد((بيك)) في هذا السياق، الأحزاب الشيوعية التي لم تتلمس بعد الحاجة إلى إقامة جبهة شعبية معادية للامبريالية وللفاشية، ودعاها إلى تغيير مواقفها وانتهاج سياسات صائبة (10).

وقد طالب المؤتمر السابع، في القرار الذي اقره في الأول من آب حول تقرير

"بيك" جميع الأحزاب الشيوعية "بتجاوز بقايا التقاليد الانعزالية التي تعرقل تقاربهم مع العمال الاشتراكيين- الديمقراطيين، وتغيير أساليب التحريض والدعاية التي تكتسي طابعاً مجرداً، وطرح توجيهات ملموسة، أمام الأحزاب الشيوعية، تكون متوافقة مع الحاجات والمصالح الآنية للجماهير" (11).

وفي الثاني من آب قدم ديمتروف أمام مندوبي المؤتمر تقريراً مطولاً حول "هجوم الفاشية ومهمات الأممية الشيوعية في النضال من اجل وحدة الطبقة العاملة ضد الفاشية".

وقد أكد القائد الشيوعي البلغاري، في بداية تقريره، أن انقسام الطبقة العاملة، بسبب سياسة التعاون الطبقي التي كان ينتهجها الزعماء الإصلاحيون للاشتراكية –الديمقراطية، قد ساعد الفاشية في تسلم السلطة ومن هنا فإن الرد الناجح على الهجوم الفاشي يتطلب تحقيق وحدة العمل ليس فقط مع العمال الاشتراكيين- الديمقراطيين وإنما أيضا مع العمال الفوضويين والمسيحيين، وقال ديمتروف:

"إن الشيء الأول الذي ينبغي عمله والبدء منه، هو إقامة الجبهة المتحدة وتحقيق وحدة عمل العمال في كل مؤسسة، وفي كل قطاع، وفي كل منطقة وفي كل بلد، وفي العالم أجمع.

إن وحدة عمل البروليتاريا، على الصعيدين الوطني والعالمي، هي السلاح الذي سيجعل الطبقة العاملة قادرة ليس فقط على الدفاع عن نفسها بنجاح، وإنما أيضا على الانتقال إلى شن الهجوم المضاد على الفاشية وعلى العدو الطبقي" (12).

وقد لاحظ "ديمتروف" بأن توحيد صفوف الطبقة العاملة لا يكفي لتحقيق الانتصار على الفاشية، بل ينبغي كذلك العمل على إقامة جبهة شعبية معادية للفاشية تشمل الغالبية العظمى من الشعب، وتضم بين صفوفها وإلى جانب العمال. جماهير الفلاحين والبرجوازية الصغيرة، والمثقفين الديمقراطيين المعادين للفاشية، وقال "ديمتروف":

"خلال نضالنا الرامي إلى دفع الجماهير الكادحة للنضال ضد الفاشية ينبغي علينا انجاز مهمة ذات أهمية كبرى. وهذه المهمة تتمثل في إقامة جبهة شعبية عريضة معادية للفاشية تقوم على قاعدة الجبهة العمالية المتحدة. إن نجاح نضال البروليتاريا يرتبط ، بشكل وثيق، بإقامة تحالف كفاحي يجمع العمال مع الفلاحين الكادحين ومع جماهير البرجوازية الصغيرة المدنية، الذين يشكلون الغالبية من السكان حتى في البلدان الصناعية المتقدمة" (13).

وقد تطرق "ديمتروف" في تقريره إلى واقع البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة، في ظل الوضع الدولي الجديد، وأشار إلى ضرورة النضال من أجل تجميع كافة القوى المادية للفاشية، والمعادية للامبريالية، في المستعمرات والبلدان التابعة، في إطار جبهة عريضة موحدة تجمع الطبقة العاملة والفلاحين والبرجوازية الصغيرة المدنية، والبرجوازية الوطنية. كما دعا "ديمتروف" الأحزاب الشيوعية في هذه البلدان إلى تجاوز الموقف الانعزالي الذي اتخذه المؤتمر العالمي السادس للأممية الشيوعية

بخصوص دور البرجوازية الوطنية، وأوصاها بضرورة تبني شعار الجبهة المتحدة المعادية للامبريالية من جديد، وقال:

"بسبب الأوضاع الداخلية والدولية المستجدة تستحوذ مسألة الجبهة المتحدة المعادية للامبريالية على أهمية خاصة في كافة البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة.

ومن الضروري عند تشكيل الجبهة المتحدة المعادية للامبريالية، أن يؤخذ بعين الاعتبار، وقبل كل شيء اختلاف الظروف التي يجري فيها النضال الجماهيري المعادي للامبريالية، ودرجة اختلاف نضج حركة التحرر الوطني، ودور البروليتاريا فيها، ونفوذ الحزب الشيوعي في الجماهير العريضة" (14).

وعلى طريق إقامة مثل هذه الجبهة، دعا "ديمتروف" الشيوعيين في البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة "إلى المساهمة في كافة الأعمال الجماهيرية المعادية للامبريالية – حتى ولو كانت تجري تحت إشراف العناصر القومية –الإصلاحية، والعمل على دعم هذه الأعمال والسعي في سبيل توسيع نطاقها".

ومع تأكيده ضرورة حفاظ الأحزاب الشيوعية على استقلالها التنظيمي والسياسي، دعا "ديمتروف" الشيوعيين في البلدان المستعمرة والتابعة "إلى العمل بنشاط داخل المنظمات القومية – الإصلاحية ، والمساهمة في بلورة اتجاهات قومية –ثورية بين صفوفها، وذلك بهدف دفع حركة التحرير المعادية للامبريالية خطوات إلى الأمام" (15).

وقد نصح "ديمتروف" في تقريره، جميع الأحزاب الشيوعية بأن تسعى إلى ربط نضالها ضد الأيديولوجية الفاشية بالتقاليد والقيم التقدمية لشعوبها، وقال:

"إن الشيوعيين هم من ألد خصوم مبدأ القومية البرجوازية تحت اي شكل كان، ولكنهم ليسوا أبدا من أنصار العدمية القومية (...). إن تثقيف العمال وجميع الكادحين بروح الأممية البروليتارية هي مهمة رئيسية من مهام كل حزب شيوعي. غير أن من يعتقد أن ذلك قد يسمح له بأن يبصق، أو يجبره على أن يبصق، على المشاعر القومية للجماهير العريضة من الكادحين، فإنه يكون بعيدا كل البعد عن البلشفية الحقيقة، ولا يكون قد فهم شيئا من عقيدة لينين بخصوص المسألة القومية

وتابع "ديمتروف" قوله:

"ينبغي أن تتأقلم الأممية البروليتارية مع ظروف كل بلد لتتجذر عميقا في أرضه. إن الأشكال الوطنية لنضال البروليتاريا الطبقي، ولنضال الحركة العمالية في البلدان المختلفة، لا تتعارض أبدا مع الأممية البروليتارية، بل على العكس من ذلك. فعبر هذه الأشكال الوطنية ستتمكن البروليتاريا في كل بلد من الدفاع بنجاح عن المصالح الأممية البروليتارية" (16).

وقد أشار((ديمتروف)) إلى أن التصدي الناجح للنزعة القومية البرجوازية ومظاهرها الشوفينية يتطلب من الشيوعيين المنتمين إلى أمة مضطهَدة (بفتح الهاء) تابعة بأن يظهروا للجماهير، ومن خلال الممارسة العملية، "بأنهم يناضلون فعلا من أجل تحرير أمتهم من نير الاضطهاد الأجنبي".

أما الشيوعيون المنتمون إلى الأمة

المضطهِدة (بكسر الهاء)، فلن ينجحوا في تثقيف الجماهير الكادحة بروح الأممية، "إلا بعد يخوضوا نضالا حازما ضد سياسة الاضطهاد التي تنتهجها "برجوازيتهم"، ومن أجل حق الأمم المضطهدة بتقرير مصيرها بنفسها" (17).

في 20 آب، أقر مندوبو المؤتمر العالمي السابع قرارا حول التقرير الذي قدمه "ديمتروف"، أشار إلى أن المهمة الرئيسية للأحزاب الشيوعية في البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة تكمن في العمل على إقامة جبهة شعبية معادية للامبريالية. وقد أكد القرار المذكور أن إقامة هذه الجبهة "تتطلب دفع الجماهير العريضة للانخراط في نضال حركة التحرر الوطني ضد الاستقلال الامبريالي المتعاظم، وضد العبودية، ومن أجل طرد الامبرياليين وتحرير البلاد"، كما تتطلب من الشيوعيين "المساهمة بنشاط الحركة الجماهيرية المعادية للامبريالية التي تقودها القومية –الإصلاحية، والعمل على انجاز أعمال مشتركة، على قاعدة برنامج ملموس معادٍ للامبريالية، مع المنظمات القومية –الثورية والقومية –الإصلاحية" (18).

قدم "باليرو توغلياني" (أيركولي)، يومي 13 و 14 آب، تقرير اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية حول النضال ضد الحرب الامبريالية. وقد أشار القائد الشيوعي الايطالي إلى أن الفاشية هي القوة الرئيسية التي تحرض على اندلاع الحرب، وقد أكد أهمية ارتباط النضال ضد الحرب بالنضال ضد الفاشية.

وقد جاء في القرار الذي اقره مندوبو المؤتمر، في 20 آب حول تقرير (ايركولي)، ما يأتي:

"ينبغي ربط نضال الجماهير، الراغبة في حب السلام ضد الحرب بالنضال ضد الفاشية وضد الحركات الفاشية. ولا ينبغي الاقتصار على نشر دعاية عامة من أجل حب السلام، بل ينبغي أيضا ، وفي المقام الأول نشر دعاية واسعة ضد المحرضين الرئيسيين على الحرب، أي ضد الأحزاب الفاشية وضد أحزاب الحرب الامبريالية" (19).

كما دعا المؤتمر من الأحزاب الشيوعية إلى ربط النضال من أجل السلام بالنضال من أجل الدفاع عن الاتحاد السوفيتي، وأشار بعد أن ميز بين حروب الامبريالية من جهة والحروب الوطنية التحررية من جهة أخرى، إلى ضرورة مساهمة الشيوعيين "في الحروب الوطنية التحررية حتى ولو كانت تجري خلف قيادة البرجوازية الوطنية" (20).

وبعد أن استنكر المؤتمر الادعاء الفاضح بأن الشيوعيين يرغبون في اندلاع الحرب بهدف تفجير الثورة، أشار إلى انه "في حالة اندلاع الحرب الامبريالية، بالرغم من كافة الجهود التي بذلت لمنعها، فإن الشيوعيين سيبذلون كافة جهودهم من أجل دفع أعداء الحرب، المنظمين في النضال من أجل السلم، للانخراط بنشاط في النضال النظامي الرامي إلى تحويل الحرب الامبريالية إلى حرب أهلية ضد البرجوازية ومن أجل قلب نظام الرأسمالية" (21).

3- المندوبون العرب والقضايا العربية في المؤتمر السابع للأممية الشيوعية:

لم تطرح المسألة القومية الكولونيالية كنقطة مستقلة على جدول أعمال المؤتمر العالمي السابع للأممية الشيوعية، وإنما عولجت باستفاضة خلال النقاشات التي دارت بين مندوبي المؤتمر حول التقرير الذي قدمه "ديمتروف" بشكل رئيسي، وحول التقرير الذي قدمه "توغلياني" بدرجة اقل.

ففي السابع من آب قدم مندوب الحزب الشيوعي الصيني "فان- مين" تعقيباً على تقرير "ديمتروف" مداخلة مطولة تحت عنوان "الجبهة المتحدة في البلدان المستعمرة" حاول فيها أن يجسد الأفكار الرئيسية التي طرحها "ديمتروف" على ظروف الصين والهند وبقية البلدان المستعمرة والتابعة.

وقد أشار "فان- مين" في بداية مداخلته، إلى أن الجبهة المتحدة المعادية للامبريالية باتت تستحوذ على أهمية كبرى في جميع البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة، وذلك بالارتباط مع تعاظم التوسع الامبريالي على جميع الجبهات والارتباط مع نمو الحركة الوطنية التحررية والمناهضة للامبريالية. وقد انتقد مندوب الحزب الشيوعي الصيني الشيوعيين "الذين يعتقدون أن مساهمة الحزب الشيوعي في الجبهة المتحدة المعادية للامبريالية، ستؤدي إلى إضعاف نضاله من أجل هيمنة البروليتاريا ومن أجل السلطة السوفيتية"، وأكد أن "هيمنة البروليتاريا في الحركة الثورية ليست شعارا مجردا، ولا هي جملة فارغة، بل هي واقع ملموس، يعبر عنه، وقبل كل شيء بالقيادة الإيديولوجية والسياسية والتنظيمية التي تمارسها البروليتاريا وحزبها على حلفائها من الفلاحين والبرجوازية والبرجوازية الصغيرة في النضال من أجل مطالبهم الحيوية" (22).

كما أظهر "فان –مي" بأن فشل الشيوعيين، وخلال سنوات طويلة، في إقامة الجبهة المتحدة المعادية للامبريالية، وقد أعاق أحزابهم التحول إلى أحزاب قوية وجماهيرية"، وقال :

"إن هذا الواقع يدل على انه من دون مساهمة الشيوعيين بنشاط في نضال مجموع الشعب والأمة ضد النير الأمبريالي، فإننا لن نتمكن من طرح إمكانية تحول المجموعات الشيوعية والأحزاب الشيوعية الفتية، والقليلة العدد، إلى أحزاب جماهيرية حقيقية. ومن دون تحول هذه المجموعات إلى أحزاب جماهيرية حقيقية، لن تتمتع من التفكير بفرض أهمية البروليتاريا أو بقايا سلطة سوفيتية في هذه البلدان. إن الامبريالية هي العدو الرئيسي للشعوب المستعمرة، إذا لم يتمكن الشيوعيون من الوقوف في طليعة صفوف الشعب ضد الامبريالية، فكيف سيكون بإمكان هذا الشعب إذن أن يتعرف في الأحزاب الشيوعية على طليعته وقيادته" (23).

وعند تحليله للأوضاع في البلدان العربية، أكد "فان –مي" أنه ينبغي على الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية أن تطرح أمامها، خلال نضالها من أجل قيام جبهة شعبية معادية للامبريالية في كل بلد عربي على حدة، مهمة النضال "من أجل

تنسيق وتوحيد جهودها في النضال المعادي للامبريالية في جميع البلدان العربية"، وأن تسعى من أجل قيام "جبهة شعبية معادية للامبريالية تمتد إلى جميع الأقطار العربية"، وان تعمل على صياغة برنامج مطلبي"يشكل قاعدة سياسية لتوحيد جميع القوى المعادية للامبريالية في كافة البلدان العربية".

وقد أشار المندوب الصيني إلى انه قد طرح "هذه المهمة الإضافية" أمام الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية بسبب وجود روابط وحدوية متعددة تجمع بين شعوب هذه البلدان ، وقال:

"فعلى الرغم من وقوع بلدان المشرق العربي المختلفة تحت سيطرة قوى امبريالية متعددة، إلا أن شعوبها ترتبط في ما بينها بروابط الواقع الجغرافي الواحد ووحدة اللغة ووحدة التاريخ ووحدة التقاليد الثورية" (24).

وكانت اللجنة الخاصة المنبثقة من اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية والمكلفة بإعداد وثائق المؤتمر العالمي السابع ، قد تعرضت في مشروع الوثيقة التي وضعتها في كانون الثاني عام 1935 حول "الأوضاع الدولية ومهمات الأممية الشيوعية" إلى الأوضاع في البلدان العربية، وإلى مهمات الشيوعيين "في فلسطين وسوريا وتونس والجزائر" حيث أشارت فيها إلى أن "مهمة التعريب" كانت المهمة المركزية المطروحة على جدول أعمال الحركة الشيوعية، طوال المرحلة السابقة في هذه البلدان، وأكدت أن التعريب لم يكن يتعلق بالتركيب القومي للأحزاب وقياداتها، وإنما كان بالعمل بين صفوف الكادحين العرب. وتحويل الحركة الشيوعية إلى حركة جماهيرية عن طريق ضم العمال والكادحين العرب إلى صفوفها (25).

ساهم في أعمال المؤتمر العالمي السابع للأممية الشيوعية (513) مندوبا، كان من بينهم، وحسب وثائق المؤتمر الرسمية، أربعة من المندوبين العرب، ساهموا في نقاشات، وهم: (رمزي) (خالد بكداش)، و(نادر)، (يوسف خطار الحلو) و"يوسف"، "رضوان الحلو" إلى اشتراك مندوب عن الحزب الشيوعي العراقي الفتي، وهو"قاسم حسن"، ومندوب عن الحزب الشيوعي المصري، كان يدعى (الأسود) في أعمال المؤتمر كمندوبين أصليين عن حزبيهما. كما يشير إلى اشتراك عدد من الشيوعيين العرب، بصفة مراقبين، في أعمال المؤتمر ومنهم (جلول الفلسطيني)، و(فهد العراقي) (26).

ويؤكد المؤرخ السوفيتي (الكسندر ريزنكوف) "اشتراك أحد ممثلي الحزب الشيوعي المصري في أعمال المؤتمر". ويشير إلى أن المندوب المصري كان من بين المندوبين الذين عارضوا التوجهات الجديدة للأممية الشيوعية، حيث أعلن، في كلمته أمام المؤتمر، بأن حزبه سوف يواصل النضال من أجل إقامة السلطة السوفيتية وديكتاتورية العمال والفلاحين في مصر (27).

كان (رمزي)، الذي انتخب عضوا في هيئة رئاسة المؤتمر ممثلا عن الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية، يدخل طوال نقاشات المؤتمر باسم البلدان العربية، أما (يوسف)، الذي انتخب عضوا في لجنة مراقبة العضوية، فكان يتدخل أحيانا باسم فلسطين، وأحيانا أخرى باسم البلدان

العربية (28). وفي حين تدخل (نادر) أثناء النقاشات باسم سوريا، كان (حجار) يتدخل باسم فلسطين.

أكد (نادر) في الكلمة التي ألقاها في 30 من تموز، أثناء النقاشات التي دارت حول تقرير (بيك)، وعلى أن (الجبهة الشعبية الثورية المعادية للامبريالية والمستغلين المحليين قد بدأت تعزز في سوريا، ويتعاظم، في الوقت نفسه، تأثير الحزب الشيوعي، خصوصا بعد أن نجح الحزب (في تجاوز الأخطاء التي ارتكبها وحاز ثقة الجماهير العربية). وقد أشار المندوب السوري إلى النجاحات التي حققها الحزب في مجال العمل الانتخابي، وذكر أن الجبهة الشعبية الموحدة في سوريا (تتخذ شكل لجان ضد الحرب الامبريالية وضد حزب الطاشناق الفاشي) (29).

وفي 31 من تموز، ألقى المندوب الفلسطيني (يوسف)، باللغة العربية، مداخلة مطولة حول التقرير عن نشاط اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية، أشار في بدايتها إلى أهمية فلسطين السياسية والاقتصادية والعسكرية بالنسبة للامبريالية البريطانية، ثم انتقل إلى عرض خصوصيات الأوضاع السياسية في البلاد فقال:

"إن الصفة المميزة للأوضاع السياسية في فلسطين هي أن الامبريالية الانكليزية، التي تعتمد في سيطرتها على جهازها الاستعماري وعلى طبقة الإقطاعيين المحليين، تستند، بشكل رئيس، إلى البرجوازية اليهودية الصهيونية، وتستخدم الأقلية القومية اليهودية في خدمة سياستها الامبريالية (...).

إن أجرة العامل العربي تقل (كثيرا) عن أجرة العامل اليهودي، مع انه يعمل لفترة أطول. ويطرد الصهاينة العمال العرب بالقوة من أماكن عملهم في المؤسسات والبيارات ليحلوا محلهم العمال من المهاجرين الصهاينة. وخلال الثلاث السنوات الأخيرة، اقتلع أكثر من 22 ألف فلاح عربي، مع عوائلهم، من أراضيهم.

إن هذه الأوضاع تثير مقاومة الجماهير العربية. فقد تميز النضال المعادي للامبريالية، الذي شهدته فلسطين في العام 1929، بقوة خاصة، وترافق مع انتفاضة شعبية واسعة. وقد ظهر، في أعقاب هذه الانتفاضة، اتجاه قوي بين العمال العرب للانتظام في النقابات، واتسعت الحركة الإضرابية، وتحولت معارك الشوارع ضد العصابات الصهيونية ضد البوليس إلى ظاهرة دائمة في حياة البلاد. وتتواصل القلاقل والإضرابات في القرى العربية، حيث يرفض الفلاحون دفع الضرائب، وتشتد مقاومتهم للبوليس، وتتطور حركة الأنصار المسلحة.

إن التظاهرات التي اندلعت في نابلس في العام 1931، والنضال المتواصل للفلاحين ضد المصادرين الصهاينة وفي سبيل الأرض، والأحداث الكبرى التي شهدتها البلاد في العام 1933، كل ذلك يدل، بطريقة لا تدع مجالات للشك، على تعاظم القدرة الكفاحية للجماهير العربية ونمو حركتها الثورية التحررية.

وقد كان للإضراب الذي اندلع في العام 1935 في مؤسسات شركة نفط العراق في حيفا أهمية خاصة. فقد شمل هذا

الإضراب (650) عاملا، واندلع في وقت كانت فيه ظاهرة البطالة تتفاقم في البلاد وقد استمر 16 يوما وانتهى بانتصار العمال المضربين" (30).

وبعد أن انتهى (يوسف) من استعراض الأوضاع السياسية في فلسطين، انتقل إلى تحليل دور الحزب الشيوعي في النضال المعادي للامبريالية وللصهيونية، حيث انتقد القيادة (البيشوفية) القديمة للحزب واتهمها بأنها قد عرقلت ولسنوات طويلة، تقدم الحركة الثورية التحررية العربية وأعاقت تطور الحزب في المجالين السياسي والتنظيمي بسبب معارضتها، المعلنة والمستترة، بشعار تعريب صفوف الحزب الشيوعي في فلسطين الذي طرحته قيادة الأممية الشيوعية، وقال:

"وبعد تصفية الانتهازيين من قادة الحزب الشيوعي في فلسطين (...)، استطاع الحزب إحراز نجاحات كبيرة. ومن خلال تعريب صفوفه، تمكن من تحقيق تقدم كبير في مجال إقامة أوثق العلاقات مع الجماهير العربية الواسعة، واستطاع تشكيل عدة خلايا جديدة في المؤسسات الكبرى (...)، كما استطاع التوغل في مجموعة من النقابات العمالية الكبرى، وتمكن من تنشيط العمل النقابي بين صفوف العمال العرب، بعد أن كان مثل هذا العمل قد أهمل في السابق.

وتكمن المهمة الرئيسية في نضال الحزب، الرامي إلى كسب تأييد الجماهير العربية، في إقامة الجبهة المتحدة مع المجموعات والمنظمات القومية والثورية القومية الإصلاحية في النضال ضد الامبريالية.

إن تعريب صفوف الحزب الشيوعي في فلسطين لا يعني أبدا إهمال النشاط بين العمال والفلاحين اليهود. وتكمن مهمتنا الحالية في خوض نضال حازم ضد انحراف القومية السائدة الصهيوني وضد الشوفينية العربية المحلية. ففي غمار النضال الحازم ضد الانحرافات، في مجالي النظرية الممارسة، سيقوى حزبنا وسيصبح قادرا على خوض المعارك التي تنتظره في المستقبل" (31).

في التاسع من آب قدم (رمزي) باسم البلدان العربية، مساهمته في النقاشات الدائرة حول تقرير ديمتروف، فاستهلها بالتأكيد على أهمية مرحلة التحرر الوطني في النضال الذي تفرضه الشعوب العربية، على اعتبار الوصول إلى الهدف الاشتراكي النهائي لن يتحقق، في البلدان العربية، إلا بعد اجتياز (المرحلة الأولى من النضال أي مرحلة النضال ضد الامبريالية العالمية العدو الرئيسي للشعوب العربية). ثم انتقل (رمزي) إلى تحديد دور البروليتاريا وأحزابها الشيوعية في النضال الوطني التحرري المعادي للامبريالية فقال:

"ينبغي على الجماهير أن تقتنع، عبر تجربتها الخاصة، بأننا من أشد المدافعين عن مصالحها الوطنية والاقتصادية (...). وينبغي على جميع فئات الشعب المضطهدة أن تلمس وأن تعي بأن الشيوعيين هم من خيرة أبناء الشعب. أما نحن فينبغي علينا مساعدة الطبقة العاملة على ضمان هيمنتها داخل الحركة الوطنية التحررية في البلدان العربية.

إن الإضرابات الكفاحية التي ساهم بها ألوف العمال في سوريا، ومعارك المتاريس التي خاضها عمال سكك الحديد في مصر، وإضرابات عمال النفط في فلسطين، إن هذه الإضرابات والمعارك قد أثبتتا للجماهير العربية الواسعة انه من الممكن النضال بنجاح ضد الامبريالية، وأن البروليتاريا العربية قادرة على تأكيد دورها القيادي في الثورة الوطنية والزراعية. إذا لم تتمكن البروليتاريا من تبوء دورها القيادي هذا في الحركة المتعاظمة، فإن ذلك يدل ببساطة على إننا لم نطرح أمام طبقتنا هذه المهمة، ولم نمارس دورنا الطليعي.

ينبغي علينا إذن أن نعمل بنشاط، وبشكل عملي ويومي، على تنظيم البروليتاريا العربية وتقوية منظماتها النقابية، وتوسيع قاعدة أحزابنا الشيوعية بين صفوف الجماهير العالمية العريضة، لا يجب أن تقتصر حركتنا النقابية على العمال الطليعيين فحسب، بل يجب أن تتجاوزهم لتشمل الجمهور العريض من العمال والفئات المختلفة من الطبقة العاملة(...)" (32).

وعند تحليله للطبيعة الاجتماعية للثورة في البلدان العربية، أشار "رمزي" إلى أن الثورة الزراعية لا تزال تشكل محور الثورة البرجوازية – الديمقراطية "التي تقترب في البلدان العربية"، غير انه قد انتقد، في الوقت نفسه، موقف "بعض الرفاق الذين يقدرون مستوى الطاقات الثورية التي يختزنها الفلاحون بين صفوفهم بالقياس فقط إلى موقفهم من شعار الاستيلاء على الأراضي"، ويتناسون الدور الرئيسي الذي لعبه الفلاحون في النضال المعادي للامبريالية. وقد طالب "رمزي" بالنضال الحازم ضد أنصار "هذه النظرية التروتسكية الانهزامية الضارة" ودعا إلى إيجاد الأشكال التنظيمية والنضالية الملموسة "القادرة على إنهاض أوسع الجماهير الفلاحية ودفعها للانخراط في النضال(...)، وإيجاد الأشكال المناسبة لضمان تحالف البروليتاريا وجماهير الفلاحين في النضال المشترك ضد الامبريالية وعملائها".(33)

وقد أعلن مندوب البلدان العربية بأنه يؤيد تماما شعار إقامة جبهة متحدة معادية للامبريالية تجمع الشيوعيين إلى جانب "القوميين –الإصلاحيين"، و"القوميين – الثوريين"، ودعا، من فوق منصة المؤتمر العالمي السابع، الشيوعيين في البلدان العربية إلى انتهاج سياسة صائبة تجاه هذين المعسكرين القوميين، وقال "رمزي":

"إن من الضروري اتخاذ موقف سليم من المثقفين القوميين الثوريين (والبرجوازيين الصغار في المدن ومن واجب الحزب الشيوعي أن يعمل ..) على إخضاع هذه الى نفوذه.

وينبغي علينا مساعدة هذه العناصر على الانتظام، مع محاربة كافة الاتجاهات الإرهابية أو الانقلابية بين صفوفها، خصوصا وأن عدم تنظيم هذه العناصر سيساعد على وقوعها تحت تأثير البرجوازية.

إن بعض الرفاق يعتقدون أن القومية – الإصلاحية قد تحولت إلى مناورة بسيطة من مناورات الامبريالية، وان التطور اللاحق

للبرجوازية (الوطنية)، هو عبارة عن عملية متواصلة من الاستسلام الكامل تجاه الامبريالية. إن هذا الاعتقاد هو اعتقاد خاطئ طبعاً.

ينبغي على الشيوعيين دعم المطالب المعادية للامبريالية التي يطرحها القوميون – الاصلاحيون، وتشكيل حركات شعبية تناضل من اجل تحقيق هذه المطالب وتوسيع نطاقها. وانطلاقاً من هنا، تطرح أمام الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية إمكانية التحالف، وحتى الاتحاد، مع مختلف أحزاب البرجوازية الوطنية الإصلاحية التي تتمتع بنفوذ كبير بين صفوف الجماهير" (34).

وقد طرح (رمزي) احتمال وصول البرجوازية الوطنية الى تسلم السلطة في البلدان "العربية وذلك على قاعدة اتفاق ثابت، نوعاً ما، مع الامبريالية". ودعا الشيوعيين إلى مجابهة هذا الاحتمال في حال تحققه، وذلك عن طريق استغلال التناقضات التي "ستستمر بين البرجوازية الوطنية وبين الامبريالية"! وعن طريق تقوية نفوذ الحزب الشيوعي وتحريك أوسع الجماهير الشعبية "بهدف الضغط على البرجوازية الوطنية وإجبارها على تحقيق كافة الوعود التي قطعتها على نفسها قبل وصولها إلى السلطة" (35). وفي نهاية مداخلته تطرق (رمزي) إلى ظروف التجزئة التي تعانيها البلدان العربية والى الروابط الوحدوية المتعددة التي تربط بين شعوبها، وقال:

"إن البلدان العربية التي تضم أكثر من ستين مليوناً من المواطنين العرب، قد قسمت بشكل مصطنع إلى أكثر من 12 دولة تسيطر عليها القوى الامبريالية. وهذه البلدان هي العرق وسوريا وفلسطين وشرقي الأردن ومصر وليبيا والجزائر وتونس والمغرب... الخ. لكن، وعلى الرغم من ظروف التجزئة ما زالت الروابط القومية، والتقاليد المشتركة واللغة الواحدة والتطور التاريخي المشترك ووحدة الموقع الجغرافي، توحد بشكل وثيق بين هذه البلدان" (36).

وبعد أن أكد (رمزي) أهمية موضوعات (ديمتروف) القائلة بان الجبهة العمالية المتحدة هي أساس الجبهة الشعبية وان الحزب الشيوعي هو القوة المحركة للجبهة المتحدة، طرح أمام الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية مهمة العمل على "تنظيم صفوف الطبقة العاملة في جيش مؤهل للنضال، وقادر على قيادة نضال جميع المضطهدين في المعارك الثورية المقتربة". ودعا، في نفس الوقت، إلى تعزيز صفوف الأحزاب الشيوعية العربية وتقوية مواقعها التنظيمية والسياسية والإيديولوجية، على اعتبار أن تحقيق ذلك هو الشرط الرئيسي للانتصار (37).

في العاشر من آب، ألقى (حجار) أثناء النقاشات التي دارت حول تقرير (ديمتروف)، كلمة مطولة باسم فلسطين أشار فيها إلى أن الحركة القومية – الثورية، قد تعاظمت كثيراً خلال الفترة الأخيرة في فلسطين، في حين عجز الحزب الشيوعي عن إقامة الجبهة الشعبية المعادية للامبريالية والصهيونية، وعن ربط النضالات الجارية في الريف بالنضالات الجارية في

المدينة، وقد انتقد (حجار) في هذا الصدد، مواقف القيادة (البيشوفية) القديمة للحزب، التي دفعت الحزب الشيوعي في فلسطين " إلى السير على طريق انعزالي وأبقته بمعزل عن الجماهير العربية العريضة". وقد أكد المندوب الفلسطيني أن حزبه قد سار بحزم، بعد أن ابعد "القيادة الانتهازية القديمة" عن صفوفه، على طريق التعريب "وذلك بهدف توثيق ارتباطه بالجماهير العربية العريضة والنضال من اجل تبوء موقع قيادي في الحركة الوطنية العربية على طريق ضمان هيمنة الطبقة العاملة" (38).

أشار (حجار) إلى أن زعماء الحركة القومية – الإصلاحية في فلسطين يتمتعون بنفوذ كبير بين صفوف الجماهير العربية، وان المنظمات التي يقودونها هي منظمات جماهيرية واسعة، وأكد على أهمية توغل الشيوعيين في صفوف هذه المنظمات والسعي إلى "جذب وإبعاد الجماهير عن تأثير الزعماء الإصلاحيين ودفعها للنضال الحازم ضد الامبريالية".

وبخصوص شعار الجبهة المتحدة المعادية للامبريالية، أكد المندوب الفلسطيني أن الجبهة الشعبية المتحدة في فلسطين ستكتسي ليس فقط طابع معاداة الامبريالية، بل ستكتسي أيضاً طابع معاداة الصهيونية، على اعتبار أن الصهيونية تلعب دور الدركي المباشر للامبريالية الانكليزية في فلسطين، وقال: "

إن الجماهير العربية تحقد حقداً شديداً على البرجوازية الصهيونية التي تلعب دور الدركي في خدمة الامبريالية".

إن جميع فئات الشعب الكادح تعي أهمية وضرورة النضال ضد البرجوازية الصهيونية. إن نضالنا هذا هو نضال يومي متواصل وهو في مضمونه نضال معادٍ للامبريالية. وينبغي على الشيوعيين تصدر هذا النضال وتوسيع نطاقه وتوجيهه في الطريق السليم، طريق النضال ضد العدو الرئيس المتمثل بالامبريالية.

إننا نحقد على البرجوازية اليهودية الصهيونية، غير أننا نمد، في الوقت نفسه، يداً أخوية إلى العمال اليهود وندعوهم للنضال المشترك ضد الامبريالية والصهيونية، ضد العدوين الثابتين للشعبين العربي واليهودي في فلسطين" (39).

وقد أشار "حجار" إلى أهمية استمرار الحزب الشيوعي في فلسطين في العمل النشيط بين صفوف الجماهير الكادحة اليهودية، ودفعها للانسلاخ عن "الحزب الرجعي للرأسماليين اليهود الصهاينة"، والمساهمة في النضال الوطني التحرري الذي تخوضه الجماهير العربية، وقال: "تطرح أمامنا مهمة "النضال من اجل إقناع العمال اليهود بان ضمان مصالحهم الطبقية والقومية يرتبط بانتصار الحركة الوطنية التحررية العربية، وبالتحول الديمقراطي للنظام الاجتماعي السائد في فلسطين وينبغي علينا في هذا المجال أن نعمل على إقامة الجبهة المتحدة للطبقة العاملة العربية واليهودية.

وبالنضال الحازم من اجل تعريب الحزب، سنعزز مواقعه على الصعيدين الإيديولوجي والتنظيمي وسنجعله مؤهلاً

أكثر لخوض النضال. وبحفاظنا على الرفاق اليهود الشرفاء والمجربين بين صفوف الحزب، سنقضي على الانحراف القومي اليهودي وعلى تظاهرات النزعة القومية العربية" (40).

في السادس عشر من آب، وخلال النقاشات التي دارت بين مندوبي المؤتمر حول تقرير "ايركولي" عن خطر الحرب، ألقى "يوسف" كلمة البلدان العربية، أشار في بدايتها إلى الاستعدادات الحربية التي تقوم بها مختلف القوى الامبريالية في منطقة المشرق العربي وذلك بهدف التحضير للحرب، وبخاصة بعد أن أظهرت الحرب الامبريالية خلال أعوام 1914- 1918 الأهمية الإستراتيجية الكبرى لهذه المنطقة. وقد أكد مندوب البلدان العربية أن " البلدان العربية تشهد (حاليا) صراعاً حامياً بين مختلف القوى الامبريالية، حيث تسعى كل قوة امبريالية، وبصورة جنونية، إلى تعزيز مواقعها عبر جملة من التدابير السياسية وعن طريق نشر دعاية حربية واسعة وتنظيم حملة تسلح كبيرة" (41).

ثم تطرق "يوسف" إلى موقف الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية من الاستعدادات الحربية الامبريالية، فأشار إلى أن نضال الشيوعيين في البلدان العربية من اجل صيانة السلام العالمي قد ارتبط دوماً بالنضال ضد الاضطهاد القومي الذي تعانيه شعوبهم ومن اجل استقلال بلدانهم، وقال:

" إن الأحزاب الشيوعية في بلداننا قد قامت بتحريض واسع ضد الخطر المتعاظم لاندلاع الحرب. ففي جميع تظاهراتنا الجماهيرية، وفي بياناتنا، وصحافاتنا، أكدنا دوماً على شعار السلم، وذلك عبر ربط نضالنا من اجل السلام بالنضال ضد اضطهاد شعوبنا ومن اجل الاستقلال الوطني.

ولقد كنا نسترجع خلال حملتنا ضد الحرب، تاريخ شعوبنا وتاريخ حرب العام 1914 التي جرى على أثرها تقسيم بلداننا ووقوع شعوبنا في براثن العبودية الاستعمارية. ونحن نتصدى لخطر اندلاع الحرب الامبريالية من خلال النضال لتحقيق وحدة شعوبنا ومن اجل حصولها على الاستقلال الوطني" (42).

وقد تعرض "يوسف" في كلمته إلى العدوان الذي شنته الامبريالية الايطالية على الشعب الإثيوبي، وأكد أن "عدوان الفاشية الايطالية قد أثار استياءً واسعاً بين الجماهير الشعبية العربية، وان الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية قد اعتبرت أن مهمتها تكمن في عرقلة هذه الحرب اللصوصية التي تشنها ايطاليا، وفي تجميع صفوف الجماهير الشعبية للدفاع عن استقلال إثيوبيا".

ومن فوق منصة المؤتمر العالمي السابع، حيا "يوسف" في ختام كلمته وباسم الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية، السياسية الثورية التي ينتهجها الاتحاد السوفيتي "دفاعا عن السلم العالمي تجاه مثيري الحرب"، وأكد أن هذه السياسة "تستجيب تماما لمصالح عشرات الملايين من الكادحين في بلدنا الذي لا يريدون المعاناة

مجددا من ويلات الحرب الامبريالية".

وقد أعلن مندوب البلدان العربية باسم الشيوعيين في البلدان العربية سيعملون، في حال نجاح الامبرياليين في تفجير الحروب، على توجيه "كافة قوائمهم، في طليعة الجماهير الشعبية، لتحويل الحرب الامبريالية إلى حرب وطنية تحررية، والى حرب مضفرة معادية للامبريالية، حيث نكون بذلك قد قدمنا أفضل مساعدة للدفاع عن بلد الاشتراكية، وللدفاع عن ووطننا الاشتراكي" (43).

4- مهام الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية على ضوء مقررات المؤتمر العالمي السابع للأممية الشيوعية:

قرر المؤتمر العالمي السابع للأممية الشيوعية، في ختام أعماله، إدخال عدد من التعديلات الجوهرية على صيغة العلاقات التنظيمية القائمة بين اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية وفروعها القطرية، فقد دعا المؤتمر اللجنة التنفيذية الجديدة إلى تركيز نشاطها، في المستقبل، على صياغة توجيهات سياسية وتكتيكية عامة من خلال مراعاة "الظروف والخصائص الملموسة في كل بلد من البلدان"، والامتناع عن التدخل مباشرة في الشؤون التنظيمية الداخلية للأحزاب الشيوعية. وقد نصح ديمتروف، بهذا الصدد، جميع الأحزاب الشيوعية "بالاعتماد على إمكاناتها الذاتية، وتحديد سياساتها بنفسها، في أي وقت كان" (44).

وقد انتخب المؤتمر لجنة تنفيذية جديدة مؤلفة من 46 عضواً، كان من بينهم ممثل من الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية والشرق الأوسط هو "محمود الأطرش" قائد الحزب الشيوعي الفلسطيني، الذي لم يتمكن بسبب ظروف اعتقاله، من المساهمة شخصيا في أعمال المؤتمر. وفي اجتماعها الأول، قررت اللجنة التنفيذية المنتخبة عن المؤتمر إلغاء القسم الشرقي، الذي كان مكلفا بقيادة فروع الأممية الشيوعية في البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة، وإقامة سكرتاريا خاصة بالبلدان المستعمرة، تتفرع بدورها إلى سكرتاريا خاصة بالمستعمرات الانكليزية، وسكرتاريا خاصة بالمستعمرات الفرنسية..

وفي 28، و29 شباط 1936، عقدت السكرتاريا التابعة للجنة التنفيذية للأممية الشيوعية اجتماعين، بمساهمة مندوبين عن الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية وبإشراك عدد من ابرز قادة الأممية الشيوعية مثل "ديمتروف" و"كوسنين" و"مانويلسكي"، وذلك لتحديد مهام الشيوعيين في البلدان العربية على ضوء مقررات المؤتمر السابع، وتنظيم العلاقات بين الأحزاب الشيوعية العربية (45).

ففي 28 شباط، ناقشت السكرتاريا التابعة للجنة التنفيذية قضية تنظيم العلاقات والصلات بين الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية، وتعرضت إلى مسألة الوحدة العربية والى فكرة إقامة حزب شيوعي عربي موحد.

وخلال النقاش، أعرب "ديمتروف" عن اعتقاده بأن الاتجاه إلى تحقيق وحدة الشعوب العربية "لم يتحول بعد إلى واقع

قائم"، وعارض فكرة إقامة مركز واحد لقيادة النشاط الشيوعي في البلدان العربية، ودعا إلى تطوير الصلات بين الأحزاب الشيوعية العربية والتقريب في ما بينها، كما أكد أن الروابط التاريخية واللغوية المشتركة التي تجمع ما بين الشعوب العربية تفترض قيام علاقات تعاون متبادلة في ما بينها في النضال من اجل التخلص من النير الامبريالي والحصول على حقوقها السياسية (46).

وقد أيد (كوسنين) وجهة نظر "ديمتروف" وأشار إلى أن العملية التاريخية تسير باتجاه تعزيز الوحدة القومية بين الشعوب العربية، وأكد أن الحركة القومية العربية تناضل، شأنها في ذلك شأن جميع الحركات الوطنية التحررية، من اجل تحقيق هدفين: الأول يتمثل بالنضال ضد الاستعباد الأجنبي من اجل التحرر من السيطرة الامبريالية، والثاني يتمثل بالنضال من اجل تحقيق الوحدة القومية. وقد ذكر "كوسنين" أن الأممية الشيوعية قد أشارت إلى آفاق الاتحاد القومي بين الجمهوريات العربية، إلا أنها لم تطرح شعار الوحدة كشعار عملي قابل للتحقيق الفوري، وأكد: انطلاقا من هنا، أن الأممية الشيوعية وبتأييد من "الرفاق العرب" قد عارضت فكرة تشكيل منظمة حزبية (شيوعية) عربية موحدة، اعترضت على قيام جهاز موحد دائم لقيادة نشاط الشيوعيين في البلدان العربية.

أما "مانويلسكي"، فقد دعا الشيوعيين في البلدان العربية إلى التخلي عن طرح الشعارات بعيدة المدى، والنضال من اجل مطالب الجماهير الملموسة، وطالبهم بالتخلي عن شعار إقامة السوفيتات وتركيز جهودهم على النضال المعادي للامبريالية. وبخصوص مسألة التعريب، ذكر "مانويلسكي" بأن سياسة التعريب لا تعني تبديل الكوادر فقط، ولا يمكن فرضها بشكل ميكانيكي، وأكد أن جذب الكادحين العرب إلى صفوف الأحزاب الشيوعية يرتبط بالنضال من اجل تحقيق مطالبهم ومنحهم حقوقهم (47).

وقد أصدرت السكرتاريا التابعة للجنة التنفيذية، في ختام اجتماعها، قرارا حول "الصلات والعلاقات المتبادلة بين الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية"، وأكدت فيه أن قرابة الدم واللغة المشتركة والتضامن في النضال ضد الامبريالية وفي سبيل الاستقلال القومي وتوحيد البلدان العربية، كل ذلك يطرح أمام الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية مهمة تطوير الصلات والعلاقات المتبادلة في ما بينها وتنظيمها بشكل جيد، وذلك عن طريق تبادل المعلومات والتجارب والمساعدات وتنظيم الحملات المشتركة ونشر النداءات والأدبيات السياسية والصحف الدورية (48).

وفي 29 شباط، عقدت السكرتاريا التابعة للأممية الشيوعية اجتماعا ثانيا استعرضت خلاله مهمات الأحزاب الشيوعية العربية، وأصدرت على أثره قرارا "حول مهمات الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية في نضالها من اجل جبهة الشعبية المعادية للامبريالية"، أشارت فيه إلى أن الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية قد بقيت، ولفترة طويلة، منغلقة على ذاتها معزولة عن الجماهير، وذلك في وقت اتساع وتنامي الحرة التحررية الوطنية والعمالية العربية.

وقد جاء في هذا القرار بهذا الصدد، ما يلي:

"لم تر الجماهير في أحزابنا (الشيوعية العربية م. ش) منظمات تناضل وقبل كل شيء، في سبيل استقلال الشعوب العربية الوطني، بل رأت فيها منظمات تناضل من اجل تحقيق أهداف بعيدة مرتبطة بالثورة الاشتراكية. بل أكثر من ذلك، كانت هذه الأهداف تكتسي شكل الشعارات المجردة غير المفهومة من قبل الجماهير.

ولقد حاولت أحزابنا فرض الشعارات الشيوعية على القوميين الثوريين، وانتقدت القوميين الإصلاحيين بشدة وأنكرت تأثيرهم على الجماهير، واستثنت كلياً إمكانية تنظيم الأعمال المشتركة معهم في النضال ضد الهجمة الامبريالية.(..) ينبغي على الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية أن تعي بأن النضال ضد النير الامبريالي وفي سبيل الاستقلال الوطني لشعوبها هو مسألة ملحة بالنسبة لكل نشاطاتها ومعيار للوزن السياسي الذي تتمتع به في بلدانها، كما ينبغي عليها أن تعي بأن الموقف السليم الذي تقفه تجاه هذه المسألة ومستوى نشاطها في النضال من أجل الاستقلال القومي يحددان مستقبل الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية وإمكانات تعزيز مواقعها بين صفوف الطبقة العاملة.

ينبغي على الشيوعيين في البلدان العربية أن يعوا، بشكل عميق، بأنهم يتحملون المسؤولية تجاه نجاح وفشل النضال في سبيل الاستقلال القومي والتحرر الاجتماعي. كما ينبغي عليهم أن يدركوا بأنهم الورثة والمدافعون عن أفضل التقاليد القومية والثقافية لشعوبها"(49).

وأشار القرار نفسه إلى أن النضالات الجزئية التي ينبغي أن يدعمها الشيوعيون في البلدان العربية ومن بينها النضال من أجل الحقوق والحريات السياسية الأساسية، ومن أجل إقامة أجهزة الحكم الذاتي والمدارس القومية ومنع تدخل الامبرياليين في الشؤون الدينية وإلغاء قوانين الطوارئ، والنضال من أجل دفع الفلاحين للانخراط في الحركة الوطنية التحررية. وقد اختتم القرار بالتأكيد على أهمية قيام الجبهة الشعبية المعادية للامبريالية للإشارة إلى ضرورة ضمان التعاون بين الشيوعيين والمجموعات القومية في النضال المعادي للامبريالية، حيث جاء فيه ما يلي:

"ينبغي على الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية أن تعمل على تهيئة كل الظروف الضرورية لتنظيم الجبهة الشعبية العربية في كل بلد. ولكي تتمكن الأحزاب الشيوعية من إنجاز هذه المهمة ينبغي عليها أن تغير، وبشكل جذري، موقفها من المنظمات والأحزاب القومية الثورية، وان تغير تكتيكها وموقفها من القوميين الإصلاحيين.

ينبغي على الشيوعيين في البلدان العربية أن يضمنوا تعاونا وثيقا مع القوميين الثوريين، وان يخوضوا المعارك المشتركة مع المنظمات القومية الإصلاحية، وان يؤيدوا مطالب هذه المنظمات الموجهة ضد الامبريالية، وان يشجعوا بين صفوف هذه المنظمات الاتجاه الهادف إلى تشكيل الجبهة الشعبية المعادية للامبريالية. كما ينبغي عليهم في الوقت ذاته أن يناضلوا على الصعيد الإيديولوجي، ضد القومية

الإصلاحية عندما تصبح إيديولوجية وممارسة التعاون مع الامبريالية، كما ينبغي عليهم أن يناضلوا ضد كل شكل من أشكال التحريف الانتهازي لتكتيك الجبهة الشعبية من خلال المهادنة أو الوفاق مع الامبريالية" (50).

5- نضالات الحزب الشيوعي الفلسطيني ضد الفاشية وخطر الحرب في أعقاب المؤتمر السابع للأممية الشيوعية:

بعد خروجه من السجن، توجه "محمود الأطرش" في أيار 1936 إلى موسكو للانضمام إلى اللجنة التنفيذية الجديدة للأممية الشيوعية التي انتخبت في أعقاب المؤتمر العالمي السابع. وفي موسكو كُلِف "محمود الأطرش" الذي كان يحمل اسم "سليم عبود" بالتعاون مع السكرتاريا المسؤولة عن نشاط الشيوعيين في المستعمرات الانكليزية والتي كان يترأسها "مانويلسكي" مع السكرتاريا المسؤولة عن نشاط الشيوعيين في المستعمرات الفرنسية، والتي كان يترأسها "اندريه مارتي" (51).

وقبل مغادرته فلسطين، عقد ((محمود الأطرش)) اجتماعا مطولا مع((رضوان الحلو)) السكرتير العام للحزب الشيوعي في فلسطين في مدينة تل –أبيب، وذلك لتحديد توجهات الحزب الجديدة على ضوء مقررات المؤتمر السابع للأممية الشيوعية .

وخلال ذلك الاجتماع تم الاتفاق بين القائدين الشيوعيين على أن مرحلة تعريب الحزب الشيوعي في فلسطين قد انتهت، وأن مرحلة جديدة قد بدأت وهي مرحلة الجبهة الشعبية المعادية للامبريالية وللصهيونية. وقد تقرر بأن يتجه نشاط الشيوعيين في فلسطين تجاه إقامة جبهة شعبية واسعة قادرة على قيادة النضال ضد الامبريالية الانكليزية والحركة الصهيونية وباتجاه تصعيد النضال ضد الحرب الفاشية (52).

سنتتبع في الفصل اللاحق الخطوات العملية التي اتخذها الشيوعيون في فلسطين على طريق إقامة الجبهة الشعبية، أما الآن فسنستعرض ومن خلال الأمثلة الحية نضالات الحزب الشيوعي الفلسطيني ضد الحرب الفاشية من أجل الحفاظ على السلام العالمي والدفاع عن الاتحاد السوفيتي. ان أثار العدوان الذي شنته ايطاليا الفاشية على إثيوبيا في العام 1935 استنكار جميع القوى التقدمية الديمقراطية والمحبة للسلام في العالم ومن بينها الأحزاب الشيوعية.

فقد أكدت قيادة الأممية الشيوعية أن الحرب الاستعمارية التي شنتها ايطاليا على الشعب الإثيوبي "قد تؤدي إلى مضاعفات دولية خطرة ليس فقط في منطقة الأحداث وإنما أيضا في وسط أوربا".(53) وقد دعت الأممية الشيوعية جميع فروعها إلى تنظيم حملات واسعة لمساندة ودعم نضال الشعب الإثيوبي "السعي لأن تكون المغامرة الإفريقية التي قامت بها الفاشية الايطالية بداية النهاية للاستعباد الاستعماري وللاضطهاد البشع الذي يمارس على القارة الإفريقية".(54) لقد أثار العدوان الفاشي على إثيوبيا قلقا عميقا في أوساط الرأي العام العربي، حيث تشكلت وبمبادرة من الشيوعيين في عدد من البلدان

العربية وبشكل خاص من سوريا وفلسطين، لجان خاصة للدفاع عن الشعب الإثيوبي ومساندته في وجه العدوان الفاشي (55).
وقد ساهم الشيوعيون الفلسطينيون في نشاط الحملة العالمية التي نظمت لمساندة نضال الشعب الإثيوبي، ودعوا الجماهير الشعبية العربية إلى النضال من أجل وقف الحرب العدوانية التي تشنها ايطاليا وصيانة استقلال إثيوبيا. ففي أوائل شهر تشرين الأول 1935، أصدر الحزب الشيوعي الفلسطيني بالتعاون مع المنظمات والأحزاب الشيوعية في البلدان العربية وأفريقيا وإيطاليا، بياناً دعا فيه إلى تنظيم حملة دولية واسعة للمطالبة بوقف العدوان الفاشي على إثيوبيا. وقد جاء في هذا البيان:

"نحن أبناء الشعوب المضطهَدة في أفريقيا والبلدان العربية، نحن عمال إيطاليا... نحن نعي تماما، أننا بدفاعنا عن الشعب الإثيوبي بوجه المغامرة الفاشية نقول قد تصدينا في الوقت ذاته لخطر اندلاع حرب إمبريالية عالمية جديدة قد تهدد العالم أجمع وبشكل خاص بلداننا بدمار لم تشهده من قبل، نحن نعي، أننا بدفاعنا عن استقلال أثيوبيا ضد تدخل القراصنة الفاشيين نكون قد وحدنا في الوقت ذاته قوى جماهيرنا الشعبية في النضال ضد مضطهدينا أنفسهم" (56).

في شهر أيّار 1936 ساهم ممثلون عن الحزب الشيوعي الفلسطيني في أعمال المؤتمر العالمي لمثلي العرب والزنوج الذي انعقد في باريس للدفاع عن الشعب الإثيوبي والنضال ضد الفاشية التي تسعى إلى تفجير الحرب. وقد دعا البيان الذي صدر عن المؤتمر جميع الشعوب المحبة للسلام "إلى الضغط على عصبة الأمم ودفعها لرفض الاعتراف بضم إثيوبيا إلى إيطاليا"(57).

كان نضال الأحزاب الشيوعية ضد خطر الحرب الفاشية ومن أجل صيانة السلام العالمي يترافق في تلك الفترة مع نضالها من أجل الدفاع عن الاتحاد السوفيتي في وجه أي عدوان إمبريالي قد يتعرض له. ففي شهر تشرين الثاني 1935 ولمجابهة الاستفزازات التي كانت تقوم بها الإمبريالية الانكليزية ضد الاتحاد السوفيتي تداعت الأحزاب الشيوعية في الإمبراطورية البريطانية ومن بينها الحزب الشيوعي الفلسطيني إلى اجتماع خاص لبحث السبل الكفيلة بالرد على الاستفزازات الامبريالية، وقد دعت الأحزاب الشيوعية في الإمبراطورية البريطانية في البيان الذي أصدرته في أعقاب ذلك الاجتماع جميع الشعوب المستعمرة وشبه المستعمرة والمستقلة صورياً في الإمبراطورية البريطانية "إلى تصعيد النضال من أجل تحررها الوطني، بحيث يتحول نضالها إلى إحدى القوى الفاعلة في مجابهة السياسة الحربية التي تنتهجها الامبريالية البريطانية (...) وإلى مساندة الاتحاد السوفيتي في حال تعرضه لأي هجوم تشنه الامبريالية البريطانية أو أي قوة امبريالية أخرى وإلى دعم نضال الاتحاد السوفيتي من أجل صيانة السلام عبر تشكيل جبهة واسعة لجميع الشعوب المناهضة للحرب" (58).

احتلت الحرب الأهلية الاسبانية التي فجرتها القوى الرجعية الاسبانية بالتعاون مع الفاشيين الألمان الايطاليين، مكان

الصدارة في ساحة السياسة الدولية، اعتباراً من العام 1936، وقد هبت القوى التقدمية في العالم أجمع للتضامن مع نضال القوى الديمقراطية الاسبانية وتشكلت في العديد من بلدان العالم فرق المتطوعين الأممية للقتال إلى جانب الجمهوريين الأسبان. ودعت الأممية الشيوعية جميع فروعها إلى مساندة نضال القوى التقدمية والديمقراطية الاسبانية والمساهمة الفعالة في الفرق الأممية.

وكان الحزب الشيوعي في فلسطين من بين الأحزاب التي استجابت لنداء الأممية الشيوعية، حيث قررت قيادته تشكيل فرقة أممية من أعضاء الحزب العرب واليهود للذهاب إلى اسبانيا والقتال إلى جانب الجمهوريين والديمقراطيين الأسبان.

ويسترجع "محمود الأطرش" ذكرياته عن تلك الفترة ويقول: "في خضم الأحداث الثورية الجارية في فلسطين، قررت قيادة الحزب الشيوعي في فلسطين المساهمة مباشرة في الحملة العالمية للتضامن مع الشعب الاسباني، وأوفدت مجموعة من الرفاق العرب واليهود للاشتراك في المعارك التي كانت تخوضها الفرق الأممية في أسبانيا. وقد استشهد، خلال هذه المعارك، عدد من رفاقنا العرب واليهود، كان من بينهم الرفيق "علي الجيباوي" عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في فلسطين" (59).

وفي العام 1948، نشر "عدد من المقاتلين الفلسطينيين اليهود في اسبانيا الجمهورية" على أثر رجوعهم إلى البلاد نداء موجهاً إلى "الجماهير الكادحة اليهودية والعربية" يدعونها فيه إلى تعزيز الوحدة بين صفوفها في النضال ضد الامبريالية الانكليزية، وقد جاء في هذا النداء:

"لقد توصلنا ومن خلال مساهمتنا في النضال البطولي للشعب الذي أثبت أن الإنسان أقوى ألف مرة من الآلة، إلى القناعة الأكيدة بأن تحقيق النصر في النضال يمر عبر تعزيز الوحدة... هذا هو الدرس الذي استخلصناه من تجربتنا في اسبانيا.

أيها العمال والفلاحون والمثقفون اليهود والعرب!! إننا ندعوكم إلى الاتحاد في النضال من أجل قيام فلسطين حرة وديمقراطية تكون وطناً حقيقياً لشعبيها، من أجل فلسطين لا تعرف الاضطهاد الامبريالي ولا الحقد القومي" (60).

الهوامش :

(1) معهد الدراسات الماركسية –اللينينية: الأممية الشيوعية عرض تاريخي منجز، دار التقدم موسكو، ص 329 – 330 (بالاسبانية).
(2) المصدر السابق ص .331 – 332
(3)كانت مجلة الطليعة القاهرية قد نشرت في عددها السابع الصادر في شهر تموز 1972، ملفاً خاصاً عن "جورجي ديمتروف" تضمن عدداً من الدراسات عن حياة ونضال القائد الشيوعي البلغاري، كان من بينها دراسة الدكتور رفعت السعيد تحت عنوان "ديمتروف المتهم يدين قضاته" انظر الطليعة، القاهرة، السنة الثامنة، العدد 7، تموز 1972، ص .98 – 119
(4)الفاشية وخطر الحرب لمهمات الأحزاب الشيوعية أطروحات وقرارات الاجتماع الموسع الثالث عشر للجنة التنفيذية للأممية الشيوعية، موسكو، كانون الأول ١٩٣٣، مكتب المنشورات، باريس (بالفرنسية).
(5) جورج كونيو، الأممية الشيوعية، المصدر المذكور، ص 111 – ص 129.
(6) معهد الدراسات الماركسية –اللينينية، الأممية الشيوعية، عرض تاريخي موجز، المصدر المذكور، ص 351– ص 352.
(7) تاريخ الحزب الشيوعي في أسبانيا، المنشورات الاجتماعية، باريس، 1960، ص 86، ص 100 (بالاسبانية).
(8) الأممية الشيوعية، عرض تاريخي موجز، المصدر المذكور، ص 355 – ص 356.
(9) أعد الباحثان السوفيتيان "لايبزون" و"شيرينيا"، بمناسبة مرور ٤٠ عاماً على انعقاد المؤتمر العالمي السابع للأممية الشيوعية، دراسة شاملة وغنية، يعتقد أنها أفضل ما كتب حول هذا المؤتمر العالمي التاريخي. أنظر: ب.م. لايبزون وك.ك. شيرينيا: الانعطاف في سياسة الأممية الشيوعية، منشورات دار الفكر، موسكو، 1975، 424 صفحة (بالروسية).
(10) بيك فلهلم: المسيرة نحو الاشتراكية، تقرير عن نشاط اللجنة التنفيذية الأممية الشيوعية، مكتب المنشورات، باريس، ١٩٣٥ (بالفرنسية).
(11) "قرار المؤتمر السابع حول تقرير الرفيق بيك"، في الوحدة في مجابهة الحروب والفاشية، مقررات المؤتمر السابع للأممية الشيوعية، مكتب المنشورات، باريس، 1935، ص 4 (بالفرنسية).
(12) ج.ديمتروف: (هجوم الفاشية ومهمات الأممية الشيوعية في النضال من أجل وحدة الطبقة العاملة ضد الفاشية). في جورجي ديمتروف، المؤلفات المختارة، الجزء الثاني، صوفيا، 1972، ص 5– ص 94 (بالفرنسية).
(13) المصدر السابق، ص 31.
(14) المصدر ذاته، ص 67.
(15) المصدر ذاته، ص 67.
(16) المصدر ذاته، ص 78– ص 80.
(17) المصدر ذاته، ص 81 – ص 82.
(18) "قرار المؤتمر السابع حول تقرير الرفيق ديمتروف" في الوحدة في مجابهة الحرب والفاشية، مقررات المؤتمر السابع للأممية الشيوعية، المصدر المذكور، ص 7– ص 23.
(19) مهمات الأممية الشيوعية بالارتباط مع تحضيرات الإمبريالية لتفجير حرب عالمية جديدة (قرار حول تقرير ايركولي)، في مقررات المؤتمر السابع للأممية الشيوعية، المصدر المذكور، ص 24 –ص 32.
(20) المصدر السابق، ص 30.
(21) المصدر ذاته، ص 31.
(22) فان –مين: الجبهة المتحدة في البلدان المستعمرة، مكتب المنشورات، باريس، 1935 (بالفرنسية).
(23) المصدر السابق، ص 38 – ص 39.
(24) المصدر ذاته، ص 33.
(25) أورده الكسندر ريزنيكوف في إستراتيجية وتكتيك الأممية الشيوعية في المسألة القومية الكولنيالية، دار المطبوعات السياسية، موسكو، 1978، ص) 320 – 319 بالروسية).
(26) خالد بكداش أو "رمزي" هو الأمين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري. انضم في أوائل العام 1930 إلى المجموعة الشيوعية الأولى التي تشكلت في دمشق في أواخر العام 1982. أُوفد إلى موسكو، في كانون الأول 1933، للالتحاق بجامعة كادحي شعوب الشرق. انتخبه المؤتمر العالمي السابع عضواً في مجلس رئاسته، وبقي يعمل في جهاز الأممية الشيوعية إلى حين وصول "محمود الأطرش" –عضو اللجنة التنفيذية للأممية المنتخب في المؤتمر السابع –إلى موسكو أواسط العام 1936.
– يوسف خطار الحلو أو "نادر" هو عضو اللجنة المركزية ورئيس لجنة الرقابة الحزبية في الحزب الشيوعي اللبناني. كان يعمل في قطع الحطب في مدينة جبيل عندما انتسب إلى صفوف الحزب الشيوعي في العام 1931. انتخب في العام 1935 عضوا في اللجنة المركزية وانتدب لتمثيل الحزب في أعمال المؤتمر السابع للأممية الشيوعية. وقد انتخبه المؤتمر عضوا في اللجنة المكلفة بقبول الأحزاب الشيوعية الجديدة إلى صفوف الأممية الشيوعية.
– انتسب رضوان الحلو أو "يوسف" إلى صفوف الحزب الشيوعي الفلسطيني في العام 1927، وكان يعمل في قطاع البناء، ساهم في كانون الثاني 1930 في أعمال المؤتمر الأول للعمال العرب في فلسطين، قبل أن يوفد إلى موسكو للالتحاق بجامعة

كادحي الشرق. بعد رجوعه إلى فلسطين، في العام 1934، انتخب أميناً عاماً للجنة المركزية للحزب، حيث بقي يتحمل مسؤوليته في قيادة الحزب إلى حين وقوع الانقسام القومي في صفوف الحزب الشيوعي الفلسطيني في ربيع العام 1943. توفي قبل سنوات في مدينة أريحا المحتلة.

أما "حجار" الذي كان يتدخل باسم فلسطين، فلم نتمكن من تحديد هويته. المقابلة الثالثة مع محمود الأطرش، مدينة الجزائر في 11 تشرين الثاني 1976، والمقابلة مع يوسف خطار الحلو، مدينة بيروت في 28 آب 1980.

(27) انظر: الكسندر ريزنيكوف، إستراتيجية وتكتيك الأممية الشيوعية في المسألة القومية الكولنيالية، المصدر المذكور، ص 332.

(28) بيشيل وروبر تازي، الأممية الشيوعية والمسائل الكولنيالية، منشورات "موتون" باريس، 1968 ص 547 – 548.

(29) أنظر النص الكامل لمداخلة "نادر" في المراسلات الصحفية الأممية، العدد 100، 27 تشرين الأول 1935، ص 1449. سنعتمد في ما يتبع على الطبعة الفرنسية من مجلة المراسلات الأممية.

(30)انظر النص الكامل لمداخلة "يوسف" في المراسلات الصحفية الأممية، العدد 103، 2 تشرين الثاني 1935، ص – 1502 ص 1503.

(31) المصدر السابق، ص 1503.

(32) أنظر النص الكامل لمداخلة "رمزي" في المراسلات الأممية، العدد 112، 25 تشرين الثاني 1935، ص – 1665ص ١٦٦٦,

(33) المصدر السابق، ص 1665.

(34) المصدر ذاته، نفس الصفحة.

(35) المصدر ذاته، ص 1666.

(36) المصدر ذاته، نفس الصفحة.

(37) المصدر ذاته، نفس الصفحة.

(38) أنظر النص الكامل لمداخلة "حجار" في المراسلات الأممية، العدد 115، 4 كانون الأول 1935. ص – 1721ص1722.

(39) المصدر السابق، ص 1721.

(40) المصدر ذاته، ص 1722.

(41) النص الكامل لمداخلة "يوسف" في المراسلات الصحفية الأممية، العدد 124، 24 كانون الأول 1935، ص 1857.

(42) المصدر السابق.

(43) المصدر ذاته.

(44) أورده ج.كونيو نقلا عن أرشيف معهد الماركسية –اللينينية في موسكو، في الأممية الشيوعية، المنشورات الاجتماعية، باريس، 1969، ص 140.

(45) الكسندر ريزنيكوف: "من تاريخ النضال في سبيل الجبهة المتحدة والمعادية للإمبريالية في بلدان الشرق" (في أعقاب المؤتمر السابع للأممية الشيوعية)، في: أوليانوفسكي (تحت إشراف): الأحزاب الشيوعية في البلدان النامية في نضالها من أجل الجبهة المتحدة، منشورات "ناؤوكا" (العلم)، موسكو، 1976، ص – 20ص 24.

(46) المصدر السابق، ص 23.

(47) المصدر ذاته، ص 13 – ص 24.

(48) المصدر ذاته، ص 22.

(49) المصدر ذاته، ص 20.

(50) المصدر ذاته، ص 21.

(51) المقابلة الثالثة مع محمود الأطرش.

(52) المصدر السابق.

(53) ب.فيردي: "لتكسر الأيدي الممتدة إلى إثيوبيا"، في الأممية الشيوعية، العدد 8، 20 نيسان 1935، ص 529– ص538 (الطبعة الفرنسية).

(54) المصدر السابق.

(55) المراسلات الصحفية الأممية، العدد 72 – 73، 24 آب 1935، ص 1102.

(56) المراسلات الصحفية الأممية، العدد 89 – 90، 5 تشرين الأول 1935، ص 1309.

(57) المراسلات الصحفية الأممية، العدد 22، 16 أيّار١ 11936، ص 586.

(58) "بيان الأحزاب الشيوعية في الإمبراطورية البريطانية" في المراسلات الصحفية الأممية، العدد – ، 30 تشرين الثاني1935، ص 1694.

(59) المقابلة الثالثة مع محمود الأطرش.

(60) أورده دافيد ديامان في : اليهود خلال حرب اسبانيا 1936 – 1939 فارصوفيا –باريس، منشورات، ص 540 (باليديشية).

* النص مأخوذ عن مجلة (الثقافة الجديدة)، العدد 125/تشرين الاول 1980 و العدد 126 تشرين ثاني/ كانون اول .1980 –

نصوص مترجمة

غرامشي: الأزمة، الهيمنة والتحوّل

بقلم: ليو مايرﷺ
ترجمة: رشيد غويلب

تمر في نيسان 2012 الذكرى الخامسة والسبعون لوفاة نطونيو غرامشي. وارتباطا بانهيار الاشتراكية الواقعية في بلدان أوربا الشرقية، واندلاع أزمة الرأسمالية العالمية مؤخرا، ازداد الاهتمام في السنوات الأخيرة كثيرا بهذا السياسي والمنظر الماركسي البارز. ويرتبط هذا بمقارباته المميزة لاغناء الماركسية والسياسة الشيوعية في زمنه، وللفهم والتعامل بشكل أفضل مع التحديات التي تواجه الماركسيين المرتبطة بالتناقضات والأخطار التي تطرحها الأزمة الرأسمالية اليوم، وبالطبع لا يغيب عن بالنا السياق التاريخي الذي طور فيه غرامشي أفكاره. وسبق لغرامشي وان تحدث عن تاريخية الفلسفة والتطبيق العملي لها، وللاستفادة من أفكاره... علينا أن نسعى لترجمتها بما يتلاءم والوقت الحاضر. لقد أعطانا غرامشي أفكارا أساسية لنظرية النضال من اجل التحول المجتمعي في زمن "حرب الخنادق" في البلدان الرأسمالية عالية التطور، وأعطى مؤشرات هامة "لخلق إرادة جماعية جديدة" وحثنا على "البحث عن الكيفية الدقيقة التي تتشكل فيها الإرادة الجماعية الدائمة،... وكيف تطور نفسها ومنظميها إلى قوة قادرة على التأثير الاجتماعي الخ" (1). وسبب آخر يدفعنا للتعامل مع غرامشي يكمن في السياق التاريخي لعمله، المرتبط بالأزمة الكبيرة في الثلاثينات، وهزيمة الحركة العمالية والديمقراطية، وكذلك صعود الفاشية إلى السلطة في الفترة القريبة التي تلتها.

إن أزمة اليورو، أزمة العمالة، أزمة المناخ، وأزمة الجوع التي تخترق بعضها البعض بشكل متبادل وتعزز عمليات تصاعد الأزمة. وهناك الكثير مما يدلل على أننا نتعامل مع أزمة بنيوية لرأسمالية الليبرالية الجديدة. إن كل شيء يشير إلى أننا مقبلون على فترة طويلة من عدم الاستقرار الاجتماعي والسياسي تتصارع فيه مختلف القوى للتغلب على الأزمة، وسيبقى الخيار مفتوحا لأي من القوى و الاتجاهات التي تستطيع فرض نفسها في النهاية.

إن أوربا تقف خصوصا أمام نقطة تحول، ولكن مَن يعتقد بان الأزمة هي ساعة الشيوعيين واليساريين سيكتشف انه مصاب بخيبة أمل كبيرة. مرة أخرى تثبت صحة مقولة غرامشي: " من المستبعد أن تؤدي الأزمة إلى نتائج أساسية، ولكنها تخلق فقط تربة مناسبة لانتشار طرائق محددة للتفكير حول الأسئلة الحاسمة في تطوير الحياة في الدولة وحلها" (2).

إن حركة "لنحتل" و حركة "الديمقراطية الحقيقية لآن" هي تعبير عن التفكير بالأسئلة مجددا "إن الجماهير الواسعة تتحرك بعيدا عن الإيديولوجيات التقليدية، ولا تعتقد بعد الآن بما كانت تعتقد به سابقا" (3). وإذا لم تقدم الحركة تفسيرا للأزمة ينطلق على الأقل من مواقف طبقية أولية، فإن الحقل سيبقى مفتوحا لتفسير برجوازي- محافظ للأزمة، وللسعي للتكامل بينهما، وحتى للإيديولوجيات القومية والإيديولوجيات الأخرى التي تعمق الانشقاق بين ضحايا سياسة التقشف، والتي تشعل حرب الفقراء ضد الفقراء.

يسود الطبقة الحاكمة الالتباس الواضح، وتتزايد هشاشة الليبرالية الجديدة، ولكن لا ظهور لقوة يسارية ولا لهيمنة بديلة تستطيع تحدى الرأسمالية. وهذا يجبرنا على تفحص أشكال وأساليب المنظمات، وكذلك وضع مشاريعنا وخطابنا المجتمعي على المحك. وهنا يطرح السؤال نفسه: هل إن مقاربات غرامشي –منظر حرب المواقع الثورية –مفيدة لفهم العلاقات الحالية والتعامل معها.

كتب الفيلسوف الماركسي المتوفى حديثا (هانز هاينز هولز) قائلا:" مفاهيم غرامشي بخصوص الهيمنة (القيادة)، المجتمع المدني، الحس السليم، والأشكال الثلاثة لحرب الحركة وحرب المواقع والنضال السري والحزب تشكل أجزاء نظرية متماسكة تبيّن ما هي الأهداف وكيف يدار النضال البروليتاري في ظل سلطة البرجوازية الموحدة. كان غرامشي المفكر الماركسي الذي لم ينشغل بالتكتيك فقط، بل اشتغل بشكل أساسي ومرحلي- تاريخي على محددات السياسة الشيوعية في المجتمعات الرأسمالية عالية التطور"(4). لهذا يعد (هانز هاينز هولز) غرامشي "احد كلاسيكي الحركة الشيوعية العالمية"(5). ومنذ عام 1990 نحن مطالبون بدراسة أعمال غرامشي، لان "أهمية غرامشي في تطوير نظرية الاشتراكية، وأهمية التثقيف بالوعي الطبقي هما اليوم أكبر من أي وقت مضى" (6). وبعد أن كان تقبل غرامشي في البلدان الاشتراكية تقبلاً محدودا، وفي ألمانيا غير مكتمل، فقد حان الوقت "اليوم أكثر من أي وقت مضى للتنافس على ارثه"(7).

لقد أشار (دومينيكو لوسوردو)** إلى إن غرامشي كان الأول في الغرب الذي سعى لفهم المغزى الفلسفي للأهمية التاريخية للثورة التي اندلعت في احد بلدان الشرق المتخلف(8). وبالرغم من حماسه للثورة الروسية، لكنه لم يعدها الاختراق الحاسم للتغلب على الرأسمالية. وقد كان

واضحا بالنسبة له، إن الثورة في البلدان الرأسمالية هي التي تضمن الانتقال إلى الاشتراكية، لكن المحاولات الثورية هناك فشلت. لقد توصل غرامشي إلى عدم إمكانية نقل نموذج الثورة الروسية إلى الغرب أساسا، فمن المعروف إن هذا النموذج كان يعاني التخلف، "وكانت الدولة والمجتمع المدني هلامية في بدايتها"، كما يكتب غرامشي . إن أية محاولة لتطبيقها (أي الثورة الروسية –المترجم) في الغرب، حيث "العلاقة بين الدولة و المجتمع المدني حقيقية، و حيث أثبت النظام "قوته"(9)، ستؤدي إلى الهزيمة.

من هنا يستمد غرامشي ضرورة التصحيح الاستراتيجي الشهير "التحول من حرب الحركة (الهجوم المباشر) إلى حرب المواقع" التي يصفها "المشكلة الأهم في النظرية السياسية في مجتمع ما بعد الحرب"(10) .

الصراع من أجل الهيمنة

منذ بداية دراسته لنظريات الهيمنة عدَّ غرامشي إن "المعيار التاريخي والسياسي الذي يجب أن تستند إليه الدراسة الحقيقية، يجب أن يكون... إن الطبقة تسيطر بطريقتين، وهما "القيادة" و"السيطرة". فهي قائدة تجاه الطبقات المتحالفة معها ومسيطرة تجاه الطبقات المضادة لها"(11). إن فهم غرامشي كمنظر يتطلب معرفة أنه كان من مؤسسي الحزب الشيوعي الإيطالي وأحد قادة الأممية الشيوعية التي تأسست في عام 1918، أو كما يكتب رفيق غرامشي الأقرب (بالميروتولياتي): "غرامشي منظر السياسة، الذي كان قبل كل شيء سياسيا عمليا، أي انه مناضل" (12). واستنادا إلى تفسير ماركس للتاريخ باعتباره تاريخا للصراعات الطبقية، فهم غرامشي مصطلح "الهيمنة" باعتباره "اللحظة الثقافية"، في سياق "النشاط العملي الجماعي"(١٣)، الذي يكون لديه له معنى ، إذا استخدم ارتباطا "بالمجموعات المجتمعية الرئيسية" التي تشكل العامل الذاتي لها – أي للصراعات الطبقية–، كما كتب في إشارة إلى "مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي لماركس": "سيصبح الناس على بينة من أن الصراع بين الشكل والمضمون في الإنتاج العالمي يجري على أرضية الأيديولوجيات"(14)، ولكي تصبح مجموعة مجتمعية رئيسية قائدة عليها أن تتجاوز الحقل الاقتصادي وتسود في مجالات السياسة والأيديولوجية والثقافة. ينطلق غرامشي من أن الطبقة يجب أن تصبح قائدة قبل أن تسيطر على سلطة الحكومة وتتمكن من الهيمنة. إن عملية السيطرة على السلطة وإعادة تشكيل أجهزة الدولة يجب أن تمضي بالسلطة المهيمنة قدما. ويعد صراع الأفكار الشكل المركزي للصراع قبل الثورة (وبالطبع في وقت لاحق لها). ويعرف غرامشي الهيمنة على أنها: "كل فعل تاريخي يمكن أن يتحقق من قبل "الإنسان الجماعي" فقط، وهذا يفترض تشكيل وحدة

"ثقافية –مجتمعية"، يتم من خلالها ربط مجموعة متنوعة من الإرادات المتعارضة ذات أهداف غير متجانسة للوصول لهدف موحد بعينه.."(15). إن تحقيق هذا الإجماع يقتضي قدرة المجموعة المهيمنة على فرض أفكارها، معاييرها وقيمها في موقع الزعامة. ويفهم غرامشي القيادة على أنها القدرة على تطوير قوة جذب سياسية، ولكن أيضا أخلاقية وثقافية، والتي تمتد (تنمو) إلى خارج معسكرها وتأثر بشكل موجه في تفكير وطريقة معيشة الناس.

إن الصراع على الهيمنة هو الصراع على نشوء فلسفة حياة جديدة بأهداف مجتمعية جديدة، تطلعات حياتية فردية، تصورات قيمية، ومعايير سلوكية. "التناقض بين تطلعات الناس الحياتية والمنجزات غير الكافية التي يضمنها المجتمع القائم ستتحول إلى قوة سياسية، إذا تحولت التطلعات والأهداف نفسها إلى محتوى لفلسفة حياة مجتمعية موجهة جديدة. وهذا ممكن فقط عندما تكون فلسفة الحياة الجديدة هذه ناقدة تجاه ما سبقها، وايجابية في تنفيذ البدائل التي تستحوذ على اهتمام الجماهير ويعبئها بروح جديدة، وبهذا يكون الوضع ناضجا للانتقال إلى نظام اجتماعي جديد" (16).

إن الصراع حول الهيمنة (الثقافية) لا يشكل بديلا للصراع الطبقي، بل يمده إلى تضاريس السياسة والأفكار. ومفهوم الهيمنة عند غرامشي هو المبدأ العام لممارسة السلطة من قبل طبقة، ولهذا يعد "الجبهة الثقافية ضرورية، الى جانب الجبهة الاقتصادية الخالصة و الجبهة السياسية الخالصة" (17).

القيادة السياسية والهيمنة

يتضمن هذا النهج جانبين: الأول، مفهوم التحالفات التي تحددها العلاقات بين قوى اجتماعية معرفة تحت قيادة "مجموعة كبيرة". كان هذا أيضا الأساس الذي جربه لينين في الأشكال الثلاثة لإستراتيجيته في الثورات الروسية (18). لينين وغرامشي يفهمان السلطة وإنتاج توازن قوى ملائم لصالحها، باعتبارها العناصر الفعلية للسياسة. يتعلق الأمر هنا بجذب أو تحييد قوى اجتماعية، بتراتبها، بسياسة التحالف. إن هذا يتطلب القدرة على القبول بالتسويات، ويتطلب استعداد "مجموعة رئيسية"، وفق إمكاناتها التاريخية المتاحة، ولأمد قصير، إخضاع أنانيتها للمصالح المشتركة في أطار سياسة كونية.

لقد توسع غرامشي في تفحص هذا الجانب من الهيمنة (التحالفات – الكاتب)، أما الجانب الثاني فهو تعديل المفهوم الجذاب الذي صاغه لينين للعملية الثورية عام 1917 ، "القضية الأساسية في الثورة هي بلا شك قضية سلطة الدولة، فالطبقة التي بيدها السلطة تقرر كل شيء (19). لقد تحول هذا الفهم خلال العشرينات وما بعدها، بفعل الشكل الفج الذي طرحه

ستالين، إلى دوغما للأممية الشيوعية، مرتبطة بأشكال سياسية سلطوية، وهياكل الحزب الهرمية، والمركزية البيروقراطية (.....).

كتب غرامشي: " لم يكن لدى "اليتش" الوقت لتعميق صيغته. ومع ذلك، علينا أن نتذكر أن كل ما كان يمكن أن يفعله a و أن يفصلa نظريا.....في الشرق حيث كانت الدولة كل شيء، وكان المجتمع المدني بدائيا وa لاميا، أما في الغرب فقد كان a ناك تناسب سليم في العلاقة بين الدولة والمجتمع المدني. فعندما تتزعزع أركان الدولة، تظهر على الفور البنية القوية للمجتمع المدني. فالدولة خندق خارجي تقف وراءه منظومة جبارة من القلاع والمتاريس، التي يتفاوت عددa ا من بلد إلى آخر. وa ذا بالتحديد، يقتضي استكشافا دقيقا لكل بلد على حدة "(20).

لا يمكن للثورة في الغرب، في ظل هذه الظروف، أن تبدأ بحرب الجبهات، ومن خلال ذلك وبعده يتم ضمان الدور القيادي الثقافي للطبقة العاملة، وأكثر من هذا يمكن، وفق غرامشي، بناء ثقافة جديدة للطبقة العامة، حتى في ظل ظروف لا تزال سلطة البرجوازية فيها قائمة، تتغلغل في الأمة بأسرها، وتؤدي إلى صياغة جديدة للعلاقات والتعامل السياسي.

يعني غرامشي بمفهوم الهيمنة، المبدأ العام لممارسة السلطة من قبل طبقة، لا يمكن فيها التخلي عن القسر، ولكنه ليس كافيا في جميع الأحول، وخصوصا عندما يتعلق الأمر بتغير اجتماعي عميق. الهيمنة هي مفهوم الحكم بالقوة والسلطة بمعنى التكامل وليس الإلحاق. و ينعكس هذا في "مفهومه العام للدولة" الذي لخصه في صيغة مختصرة لا تنسى: الدولة = المجتمع السياسي + المجتمع المدني، أي الهيمنة التي يحميها درع الإكراه (21). إن الأنشطة السياسية والثقافية التي تهدف إلى تغيير وتطوير هيمنة مضادة ومكافحة السلطة، يجب أن تأخذ بنظر الاعتبار وجودا مستمرا للإكراه من قبل مؤسسات الدولة، الذي هو جزء لا يتجزأ من وسائل التحريض على التأييد.

غيّروا وتغيّروا

يواصل غرامشي أفكار ماركس في "موضوعات فيورباخ" (22)، حيث أن كل تغير في الظروف يجب أن يرتبط بتغيير ذاتي في العوامل الفاعلة، ويجب أن يشكل تعلم الممارسة السياسية والتغيير الذاتي وحدة واحدة. يصف غرامشي التحرر الثقافي للمجموعات الدنيا، من خلال تكوين هيمنتها (بما في ذلك السيطرة على السلطة)، باعتباره تحولا (ذاتيا) للمضطهدين إلى طبقة مؤهلة للحكم، وهنا تكمن ما يعتبره "غرامشي" نقلة نوعية ضرورية للشيوعية في الغرب. وبهذا يتفق غرامشي مع ماركس ثانية " يجب أن تحرر الطبقة العاملة نفسها بنفسها" (23).

لا يمكن الاحتفاظ، في إطار هذا النموذج،

بصورة الحزب الشيوعي التقليدية الاجتماعية الديمقراطية، التي حافظ عليها لينين وجعلها أكثر راديكالية، ارتباطا بالعلاقات المتخلفة التي عاشتها روسيا، الحزب الذي تتمثل مهمته بتعليم الجماهير غير المتعلمة الوعي الاشتراكي "من الخارج" (24)، بواسطة التحريض والدعاية والتنظيم. وإذا تابعنا غرامشي فإن مهمة الحزب الشيوعي والمثقفين المرتبطين به هي المساهمة في تنظيم ومنهجة الوعي الموجود فعلا لدى الجماهير. وهذا يعني أن الوعي الموجود فعلا لدى الجماهير يعطي نظرة مفككة ومتناقضة للعالم، هذه النظرة تتوافق في طبيعتها ومحتواها مع طبيعة الجماهير. إن تحقيق نظرة متجانسة للعالم، مشتركة، تضامنية وقادرة على الفعل وفق هذه الرؤية ممكن فقط من خلال توظيف العناصر العقلانية في الحس السليم ، وفي نفس الوقت النضال ضده (25).

ويعتقد غرامشي أن جميع الناس لديهم ميل بأي شكل من الأشكال لتنظيم التلقائية والغرابة في تكوين وعيهم، ومواقفهم وعاداتهم وفق خطة للحياة، وبهذا المعنى يرغبون في تطوير التواصل في وجهات النظر. وإن مهمة الحزب الماركسي هي دعم هذه الجهود وتعزيزها وفق منظومة فلسفة الحياة الماركسية لتطوير الوعي عبر مواقف ومهام مجتمعية. بالإضافة إلى ذلك ينبغي التقاط تعلم خبرة العمل السياسي، لاكتساب الوعي والقدرة على تغيير الذات والعالم. كتب ماركس: "يجب أن يكون شعارنا: إصلاح الوعي ليس من خلال الدوغما، بل من خلال تحليل الوعي الباطني، الذي يظهر غير واضح، سواء كان دينيا أو سياسيا. وسيتبين أن بحوزة العالم منذ فترة طويلة حلما بقضية، يجب أن يعيها، لكي يحوزها حقا. وسيتبين أن الأمر لا يتعلق كذلك بفاصلة فكرية كبيرة بين الماضي والمستقبل، بل باستكمال أفكار الماضي. وفي النهاية سيتضح أن البشرية لا تبدأ عملا جديدا، بل توصل بالوعي عملها القديم إلى نجاحاته (نهاياته) المرجوة (26).

ويختلف هذا عن أساليب التعليم والتربية والتحريض التي تهدف إلى إحلال "وعي زائف" محل "وعي حقيقي"، وهو في المقام الأول مهمة ثقافية، ومهمة تأهيل الجمهور، وتربيته سياسيا وتأتي بعدها المهمة التنظيمية، والتي يجب انجازها من قبل مثقفي الطبقة العاملة العضوين (الحزب الشيوعي، وعند غرامشي كما نقرأه اليوم هي شبكة من الأحزاب والحركات)، وليس من قبل "ثوريين محترفين". ويتعلق الأمر عند غرامشي بتطوير التعلم المتبادل وتعزيز عملية التمكن الذاتي في المجتمع والقدرة على العمل السياسي. وهنا يصح ما طوره لينين في كتابه (ما العمل؟) (27)، ولا تستطيع الطبقة العاملة اكتساب الوعي الاشتراكي من خلال عملها السياسي تلقائيا فقط، بل من خلال "رؤية علمية"، أو

كما كتب أنجلس، عندما " يعمل العامل للوصول إلى نظرية التطور الماركسية انطلاقا من شعوره الطبقي" (28). ومن هنا فإن الوعي الطبقي لا يجلب إلى الجماهير، بل يتطلب عملا فكريا مستقلا لأناس محددين.

وفي ضوء ذلك جاء في الموضوعات السياسية للحزب الشيوعي الألماني: " تبين التجربة إن الوعي الطبقي لا يمكن أن يتبلور من خلال ممارسة مبنية على صورة مبسطة "لاقتباس الوعي الطبقي". فوراء ذلك تقف مهمة مركبة ومعقدة جدا للحزب والنظرية الماركسية، ولا تنجز هذه المهمة عبر صفحات من "التربية الأيديولوجية" ثابتة المحتوى بالبداهة، والتي يستطيع المرء الأخذ بها أو لا يأخذ، بل من خلال التواصل والتبادل المنهجي للخبرات والمعارف. ... ولهذا فمن المهم تنظيم عملية التعلم للتأثير في خلق رؤيا منظمة ومتماسكة عن المجتمع ودور الفرد الاجتماعي، انطلاقا من الوعي والخبرة الموجودة..... ولهذا نعمل من اجل تنظيم السياسة على أنها عملية تعلم تهدف إلى تنظيم قدرة التعامل الفردية والجماعية. إن النضال ضد أعباء الأزمات ومن اجل الإصلاح، ينبغي أن لا يؤدي فقط إلى تحسين الظروف المعيشية لقطاعات واسعة من السكان، وتوسيع الحريات الديمقراطية، بل يؤدي أيضا إلى تغيير الرؤية الحياتية والتوقعات، والتصرفات التي يقوم بها الناس... وبهذا الصدد فإن الديمقراطية الجذرية ليست مجرد هدف سياسي مجتمعي فقط، بل أيضا الطريق والوسيلة الأهم لتحقيق هدف تحرير الإنسان – ((.. وللاقتراب من الإطاحة بالعلاقات التي يكون فيها الإنسان وضيعا ومستعبدا ومهجورا ومزدرى))– (29).

الأزمة التحول

وهناك سبب آخر يدفعنا للاهتمام بإرث غرامشي، ويكمن ذلك في السياق التاريخي لانجازه الذي ارتبط بأزمة الثلاثينات الكبيرة، وبهزيمة الحركة العمالية والديمقراطية، وكذلك بصعود الفاشية للسلطة الذي تلاها بوقت قريب. وعلى النقيض من الكومنترن ، لم ير غرامشي الأزمة باعتبارها هزيمة حتمية للرأسمالية لا يمكن إيقافها، بل تعامل معها على أنها عملية التكيف وعملية تجديد للنظام الرأسمالي.

لقد أشار ماركس وأنجلس في أعمالهما، إلى أن الأزمات الناتجة عن التناقضات التي تضرب جذورها في نمط الإنتاج الرأسمالي ليس ممكنة فحسب، بل لا مفر منه. والأزمات الهيكلية الدورية طبيعية في نمط الإنتاج الرأسمالي. وغرامشي يميز بين "الأزمة العضوية" و"الأزمات الطبيعية".

تظهر في هذه الأزمات "تناقضات مستعصية" (30) تتشابك وتتعزز وتتركز فيها عمليات الأزمة. ويصف (غرامشي) هذه الأزمات باعتبارها "أزمة سلطة الطبقة السائدة، وتندلع هذه الأزمة إما بسبب فشل مشروع

سياسي كبير للطبقة السائدة، ولهذا تلجأ لاستخدام العنف (الحرب مثلا) لتحقيق إجماع الجماهير، أو لان الجماهير العريضة (وخصوصا الفلاحين ومثقفي البرجوازية الصغيرة) تتحول من السلبية السياسية فجأة إلى نشاط ما وتطرح مطالبها، التي تمثل في تعقيداتها غير العضوية ثورة. وهنا يتحدث المرء عن "أزمة سلطة"، وهذه هي أزمة السلطة (القيادة)، أو أزمة الدولة ككل" (31).

وتصاحب هذه الأزمات في الغالب أزمات اقتصادية، ولكنها لا تنحصر فيها، بل مرتبطة بأزمات سياسية مصحوبة بتنامي التناقضات وانسداد الأفق داخل الكتلة الحاكمة، وتؤدي إلى الشروع في إحداث تحولات في النظام الرأسمالي (32).

ولذلك في منظومة غرامشي الفكرية هناك ارتباط وثيق بين فكرتي "الأزمة العضوية" و"الثورة السلبية". فهو يستخدم تعبير "الثورة السلبية" لتوصيف ظاهرة تاريخية في ايطاليا القرن التاسع عشر، وفي إشارة منه لعلاقاتها بالثورة الفرنسية الكبرى عام 1789 التي تنطبق عليها تسمية الثورة "الفاعلة" –الايجابية–" (33). يستخدم غرامشي مفهوم "الثورة السلبية" لتوصيف وظيفة الفاشية الايطالية: " تحدث تغيرات بنيوية عميقة في البنية الاقتصادية في البلاد، لتؤكد أهمية "خطة الإنتاج" ، دون أن يؤدي ذلك إلى المساس بحصة الفرد أو المجموعات في الربح" (34). ويستنتج: " يبدو لي أن مفهوم "الثورة السلبية" ليس مناسبا لايطاليا فقط، بل أيضا للبلدان الأخرى التي يتم تحديثها عبر سلسلة من الإصلاحات أو الحروب الوطنية دون المرور بثورة سياسة على غرار نموذج اليعاقبة – الراديكالي" (35).

إن "الثورة السلبية" الممكنة والمتصلة مع "أزمة عضوية" هي: " جزئيا الثورة .. التي تترك أركان البيت قائمة" (36)، إنها نوع من إعادة هيكلة لرأسمالية، استنفذت أشكال الإنتاج وأصبح فيها الحكم هشا، من خلال تثوير كل الظروف (نوع وطريقة الإنتاج والاستهلاك، نمط الحياة، وأشكال السيطرة، ..الخ)، والتغلب عليها والنهوض الفاعل بظروف الاقتصاد – السياسة، الرأسمال – العمل والعلاقات الدولية وضبطها من جديد. ومع حدوث التحول في المجتمع البرجوازي تستقر البرجوازية على الرغم من عدم استقرار سلطتها بحدوث الأزمة أو بسببها. لقد أشار ماركس وأنجلس في (البيان الشيوعي) إلى ذلك: "لا يستمر وجود البرجوازية دون ديمومة تثوير وسائل الإنتاج وعلاقات الإنتاج وكافة العلاقات الاجتماعية" (37). يكمن العنصر السلبي لدى غرامشي في أن الكتلة الحاكمة تقوم بدمج مصالح المجموعات/ الطبقات المحكومة شكليا في السلطة، ولكنها تبقيهم في وضع بعيد عن السلطة، و تستوعب على الأقل في الوقت نفسه جزءاً من مثقفيهم ومجموعاتهم القيادية في كتلة السلطة،

وبهذا تسرق من المجموعات/ الطبقات الفرعية قيادتها (لقد تم بعد عام 1945 دمج الاجتماعين الديمقراطيين والنقابات بالكامل، وتم دمج الخضر وجزء من حركة السلام –وحماة البيئة بعد المشاركة في الحكومة عام 1998 وفق هذه الآليات) (المقصود الحكومة الألمانية –المترجم). وأيضا سلبية، لان الطبقات الفرعية غير قادرة على قيادة ثورة تحدث تغييرا جذريا في المجتمع. ولكن في مثل حالات "الأزمة العضوية" التاريخية، حيث يصبح القديم لقمة سائغة، هي أيضا الأوقات التي تفتح فيها الإمكانات للتغلب على الوضع برمته.

وتجد الرأسمالية نفسها اليوم مرة أخرى في أزمة عميقة، تشير كل الدلائل إلى أنها "أزمة عضوية"، وأننا مقبلون على فترة طويلة من عدم الاستقرار الاجتماعي والسياسي. وإذا لاحظنا تنامي النفوذ السياسي والاجتماعي للإيديولوجيات العنصرية والأحزاب اليمينية الشعبوية واليمين المتطرف في أوروبا، عندها تصبح راهنية تحذيرات غرامشي مدهشة: "عندما تحل هذه الأزمات يصبح الوضع القائم غير مستقر وخطر، لأن المجال يصبح مفتوحا للحلول العنيفة، ولنشاطات قوى غامضة، ممثلة برجال "البروفيدانس" – العناية الإلهية– أو الكاريزما" (38).

إن التعلم من غرامشي يعني أيضا معرفة المهام السياسية الراهنة وهي: الدفاع عن الديمقراطية في عصر الأزمة الاقتصادية والاجتماعية.

ميونخ في 25 –12 – 2011

الهوامش:

* خص (ليو ماير)، نائب سكرتير الحزب الشيوعي الألماني وأحد العاملين في معهد البحوث الاقتصادية والبيئية في مدينة ميونخ الألمانية، مجلة (الثقافة الجديدة) بهذه المساهمة مشكورا.

** دومينيكو لوسوردو : بروفسور وأستاذ الفلسفة في جامعة أربينو، ورئيس الجمعية الأممية للتفكير الجدلي . ولد عام 1941 وانضم في الستينيات إلى الحزب الشيوعي الايطالي، وعندما انحل الأخير عام 1991 عمل في حزب إعادة التأسيس الشيوعي ، ثم أصبح شخصية ماركسية مستقلة له العديد من المؤلفات الفكرية والفلسفية.

1 -A. Gramsci: Gef?ngnishefte Bd. 5, Berlin/Hamburg, S. 1050.

2 - A. Gramsci: Gef?ngnishefte Bd. 7, Berlin/Hamburg, S. 1563.

3 - A. Gramsci: Gef?ngnishefte Bd. 2, Berlin/Hamburg, S. 354.

4 - Hans Heinz Holz: Aufhebung und Verwirklichung der Philosophie Bd. 2, Theorie als materielle Gewalt – Die Klassiker der III. Internationale, Aurora Verlag, Berlin 2011, S. 96.

5 - Hans Heinz Holz: Kampf um Kultur, jungeWelt, 2.5.2007.

6 - Hans Heinz Holz, Guiseppe Prestipino: Antonio Gramsci heute - Aktuelle Perspektiven seiner Philosophie, Bonn 1991, S. 6/

7 - ebenda, S. 9

8 - Domenico Losurdo: Der Marxismus Antonio Gramscis, Hamburg 2000

9 - A. Gramsci: Gef?ngnishefte Bd. 4, Berlin/Hamburg, S. 874.

10 - Ebenda, S. 816.

11 - A. Gramsci: Gef?ngnishefte Bd. 1, Berlin/Hamburg, S. 101.

12 - Palmiro Togliatti: Ausgew?hlte Reden und Aufs?tze, Frankfurt 1977, S. 503.

13 - A. Gramsci: Gef?ngnishefte Bd. 6, Berlin/Hamburg, S. 1335.

14 - A. Gramsci: Gef?ngnishefte Bd. 3, Berlin/Hamburg, S. 500.

15 - A. Gramsci: Gef?ngnishefte Bd. 6, Berlin/Hamburg, S. 1335

16 - Hans Heinz Holz, Guiseppe Prestipino: Antonio Gramsci heute - Aktuelle Perspektiven seiner Philosophie, Bonn 1991, S. 18.

17 - A. Gramsci: Gef?ngnishefte Bd. 6, Berlin/Hamburg, S. 1239

18– كتب هيرالد نويبرت***: "وكما يكتب تولياتي، بنفس القدر الذي تصح به الإشارة إلى اعتماد غرامشي على لينين لتوضيح الاتفاق بينها، يجري التقليل من مساهمة غرامشي النظرية في تطوير الماركسية، إذا تم حصره في الفهم النظري اللينيني لها. لقد اعتمد غرامشي مرات عديدة على لينين واعتبر نفسه من أنصاره... ومع ذلك يجب علينا وبالاستناد إلى المعرفة المتوفرة اليوم، أن نقر، بأن غرامشي خرج في نواح مهمة على لينين ونقح اللينينية".

Harald Neubert: Antonio Gramsci: Hegemonie - Zivilgesellschaft - Partei, Hamburg 2000, S. 22 u.f.

- ***هيرالد نويبرت (1932 – 2009) بروفسور، مؤرخ وكاتب ألماني، له العديد من المؤلفات. عمل حتى عام 1989 رئيسا لقسم العلاقات الدولية في أكاديمية العلوم الاجتماعية في جمهورية ألمانيا الديمقراطية السابقة. أهتم بعد انهيار التجربة بالأسباب التي أدت إلى انهيار الاشتراكية. وكان حتى وفاته عضوا في حزب اليسار الألماني وعضو مجلس الحكماء– المترجم

19 -W. I. Lenin: Eine der Kernfragen der Revolution, in: Lenin-Werke Bd. 25, Berlin 1974, S. 378.

20 - A. Gramsci: Gef?ngnishefte Bd. 4, Berlin/Hamburg, S. 874

21 - A. Gramsci: Gef?ngnishefte Bd. 4, Berlin/Hamburg, S. 783.

22 - K. Marx: Thesen über Feuerbach, MEW Bd. 3, Berlin 1969, S. 5 / S. 533

23 - K. Marx: Provisorische Statuten der Internationalen Arbeiter-Assoziation, MEW Bd. 16, Berlin 1969, S. 14

24 - W. I. Lenin: Was tun? Brennende Fragen der Bewegung in: Lenin Werke Bd. 5, Berlin 1973, S. 385.

25 - A. Gramsci: Gef?ngnishefte Bd. 5, Berlin/Hamburg, S. 1039

26 – K. Marx: Briefe aus den „Deutsch-Franz?sischen Jahrbüchern“, MEW Bd. 1, Berlin 1968, S. 346

27 - W. I. Lenin: Was tun? Brennende Fragen der Bewegung in: Lenin Werke Bd. 5, Berlin 1973

28 - F. Engels: Brief an Friedrich Adolph Sorge im Mai 1894, MEW, Bd. 39, Berlin 1968, S. 245: “..

الذين لديهم الاستعداد لإسقاط نظرية التطور الماركسي إلى مستوى عقيدة جامدة، لا ينبغي على العمال التوصل إليها من خلال شعورهم الطبقي، وإنما يجبرون على ابتلاعها كمادة إيمانية حالا وبلا تطور"

29 -Politische Thesen des Sekretariats des Parteivorstandes der DKP, Essen, Januar 2010

30 - A. Gramsci: Gef?ngnishefte Bd. 7, Berlin/Hamburg, S. 1557

31 - A. Gramsci: Gef?ngnishefte Bd. 7, Berlin/Hamburg, S. 1577 u.f.

32– وإذا استندنا إلى هذه المقاربة، فإن الكساد الطويل خلال سنوات 1873 – 1895 قد قاد إلى الانتقال إلى الرأسمالية الاحتكارية، والأزمة الاقتصادية العالمية ومن ثم هزيمة الفاشية عام 1945 قد قادا إلى الانتقال إلى رأسمالية الدولة الوطنية الاحتكارية/ الفوردية/ الكينزية، والأزمة الاقتصادية عام 1975 وقبلها انقلاب بينوشية الليبرالي الجديد والتاتشرية والريغانية قد قادوا إلى التحول إلى الرأسمالية الليبرالية الجديدة المعولمة وإلى الشركات العابرة للدولة الوطنية كمحدد لهيكلية العلاقات الرأسمالية تعتمد أسلوب إنتاج يستند إلى التكنولوجيا العالية ودور جديد للأسواق المالية.

33 -Harald Neubert: Antonio Gramsci: Hegemonie - Zivilgesellschaft - Partei, Hamburg 2000, S. 36.

34 - A. Gramsci: Gef?ngnishefte Bd. 5, Berlin/Hamburg, S. 1243.

35 - A. Gramsci: Gef?ngnishefte Bd. 3, Berlin/Hamburg, S. 545.

36 - K. Marx: Zur Kritik der Hegelschen Rechtsphilosophie, MEW Bd. 1, Berlin 1968, S. 388 u.f.

37 - K. Marx/F. Engels: Manifest der Kommunistischen Partei, MEW Bd. 4, Berlin 1968, S. 465.

38 - A. Gramsci: Gef?ngnishefte Bd. 7, Berlin/Hamburg, S. 1578.

حـــــــــــوارات

حوار مع الناقد
إسماعيل إبراهيم عبد

حـــاوره : سعـــدون هلـيل

إسماعيل إبـراهيم عبد، كاتب وناقد ومدرس ،مواليد 1952 محافظة بابل، بكالوريوس آداب عام 1976، له العديد من المؤلفات منها: (ذر التماثيل) وهي مجموعة قصص صدرت عام 2001، نصوص ألواح نيكار (2006)، دراسة نقدية بعنوان القص الموجز (2008)، وأخرى عن منشئيات مأوى القص (2008)، والحداثات الأربع للشعرية في العراق (2011). لقد اختار إسماعيل إبراهيم عبد الأدب وتخصص بالنقد.. في ما سيأتي سنتعرف على تجربته وروافدها وظروفها، إذ نجد أنفسنا أمام ناقد اتضحت أفكاره لنفسه ولقرائه فهو لا يتحدث إلا عندما يكون مفهومه الذي يخرج فيه الحديث على قدر من الوضوح لا يحتمل أدنى درجات الالتباس في هذا الحوار.

**** بدءاً أنت كأديب، لماذا هذا الاختيار؟***

– إن من أخطر الأسئلة الموجهة إلى الأديب هي تلك المساءلة ذات العائدية التي تتضمن ثلاثة أسئلة في سؤال واحد.. وفي ما يخصني فهي: لمَ أنت لمَ الأدب لمَ النقد؟

إن التحدي الحضاري النصي توقف على حافة الصراع بين المادي (النفعي) والمعنوي (القيمي) ولكون الصراع غير متكافئ، وان قوى المادة أوسع وأصلد من قوى (المعنوي) كثيرا، ولان المعنوي هو الجميل البهي والأمنية والحلم فإننا جميعا نمارس إنسانيتنا من خلال الأدب، حين نفتقد القدرة المادية على مواجهة (النفعي) بإزاء (القيمي)، هكذا وجدت نفسي منحازا إلى الأدب دون غيره من الفنون. ثم تعمقت أكثر في تحمل مسؤولية الاختيار فاتجهت إلى النقد، فن الأدب الأصعب. وحين اخترت النقد وجدت مسؤولية تحتم علي مسؤوليات أخرى أصعب منه أحيانا ومنها:

- اختيار النص الأكثر تمثيلا للانحياز الإنساني.

● اختيار المبدع الأكثر جودة وأصالة.

● اختيار الأفضل في نتاجات الكاتب.

● البحث عن الأدب الشاب والعقل الشاب للأعمار المبدعة كافة.

● العكوف على متابعة الآليات والنتائج التي عليها اتجاهات ومستويات النقد محليا وإقليميا وعالميا.

● محاولة "فهم" القدرات اللغوية المؤلفة لنتاج الكتّاب.

● التواصل المعرفي لتأصيل آليات اشتغال نقدية محلية.

● ثم اختيار المنهج الأكثر ملاءمة للنتاج المحلي من الناحية النصية والزمنية المترتبة عليها.

ولقد وقعت في مشكلة أخلاقية هي، ماذا يجب علي أن أقول لمبدعي النتاج لذوي المواهب المتوسطة؟ خاصة وأنهم من أفضل القراء! ثم زاد حجم المشكلة حين احتل هؤلاء أماكن ثقافية رئيسة في الصحف والمجلات والمجالات الإعلامية. ولا أرى حلا قريبا لهذه المشكلة.

توقعت أن الكتاب والشعراء والباحثين والصحافيين الذين يؤلفون كتبا ويهدونها إلى الآخرين توقعت أنهم يريدون تعميم الفائدة والإسهام في البناء الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للبلد لكنني، وعلى مدى تجربة السنين العشر الأخيرة وجدتهم – عدا القليل جدا – لا يريدون سوى ظهور أسمائهم وبروز أناقتهم على صفحات الجرائد وفي منابر الإرسال التلفزي، ولا يهمهم مَن، وكيف يكتب أو يقال عنهم.

● إني إذ استمر في وضع مبادئي الخاصة في النقد والأدب، أحاول أن أقول كلمة بسيطة للغاية هي: إن الأعمال الجيدة لن تموت، وان البقاء الخالد للأعمال الخالدة يجدد الإيمان بإنسانية جودة العلم والمعرفة والفن والأدب.

**** ما المنابع الرئيسة التي أغنت تجربتك النقدية؟***

– حين يكون اختيار الاتجاه الفني متروكا للصدفة فلا ضرورة لمثل هذا السؤال، ولكن حين يكون الاختيار مبنيا على وفق تطلعات مشروعة مخطط لها – مثلما فعلت – فإن الإجابة ستكون على الوجه الآتي:

● ظروف النشأة: هي واحدة من الروافد المثمرة والمتهمة لصدق وعمق التجربة. وأجد أن صعوبة تلك المرحلة جسدت فيّ وفي نفوس الكثيرين رغبة مجاهدة النفس والسيطرة على أهوائها ومن ثم توجيه القدرات نحو موضوعات جدية كالنقد.

● القراءة: كونها متمماً أصيلاً لتوجيه الموهبة والتي جعلت الأفكار تنتظم وتتقاطر نحو الأفعال الثقافية ذات الصلة بالجمال والتحدي. ثم أن القراءة جعلت من التلذذ الذهني قصدا يضاهي الاتجاه الفطري في استعداد الفرد لخدمة الآخرين.

● الفلسفة: وقد انحازت أولا إلى الفلسفة الوجودية – وهذه مفارقة – فالقراء يبدأون بقراءة الفلسفة اليونانية ثم الإسلامية

والمسيحية ثم الفلسفة المعاصرة، لكني قرأت الوجودية ثم الماركسية ثم الإسلامية والمسيحية ثم اليونانية، ثم عدت مرة أخرى الى الوجودية والماركسية، لكنني وجدت أن الفلسفة –أخيرا هي عمل فردي لا جماعي تتمثل في تحديد واختيار آليات منطقية فردية ممنهجة للتجربة الحسية والوجدانية والعقلية الثقافية.. وهكذا اخترت نوعية فلسفية في الأدب واليات اشتغال النقد تجعل من الأثر الفني وسياقه الاجتماعي حلا أسياسيا للحياة والعصر.

● الاختلاط: وقد اكسبني خبرات جيدة في معرفة التوجهات الفردية والجماعية للأدباء والباحثين والفنانين والصحافيين وذوي الخبرة في جدل النقد والإبداع الفني، التقني والنصي.

**** ما حدود التلاقي والافتراق بين الناقد والمبدع؟***

– في حدود التلاقي والاقتران بين الإبداع والنقد يقول الناقد عباس لطيف في محاضرته ليوم الأربعاء 2012/5/30: "الناقد إنسان يقدم خدمته، وليس له طموح آخر" ووجهة نظري، أن الناقد موظف له أداؤه الملتزم بواجبه كخادم للنص الإبداعي ثم أن له فضل نشر اسم المبدع إعلاميا وله أكثر من هذا بكونه مدلاً على زاويا الجمال في النص الإبداعي. ومن الناحية الوظيفية فإن اختيار منهج النقد – لنص ما – انحياز تفصيلي، ومشاركة مسؤولة في إعادة وتداول النص. وهكذا فالعملية بهذا المستوى تتقيد على جهة الحصيلة الإعلامية للنقد، لكن النقد كجهد جمالي يتميز بالآتي– مثلما أطبقه أنا في اشتغالي النقدي:

أ. الإسهام في ترشيق اللغة وطرائق تعلم سبك مداليلها بشكل قصدي.

ب. استجلاء الجمال الدلالي من زاوية جديدة هي التنغيم الفكري.

ج. جعل لغة الفكر والنقد لغة تشويق قرائي.

د. تنسيق عملية الدخول والخروج المقالي بما يغني عمليات الإبداع النصي ذات الصلة بالإقناع.

هـ. ترسيخ مبدأ "الإذكاء يخلق الأجواء المحفزة لروافد الذاكرة الفردية والجمعية والتجاربية".

**** ما المنهج بالنسبة لديك، وما منهجك العام في البحث والنقد؟***

– الحق أن المنهج ييسر طريقة الفرض والتجربة والتوصل الى القوانين، لكنه في النقد يعمل على سطح حياة متحركة، ولهذا فمن الممكن استثمار المناهج ذات الحرية مثلما هو عند السيميائيين غير البنيويين. إن هذه المناهج ليست إلا أطراً خارجية تحتوي مادة النقد والخامة التي صيرتها بخيوطها وخطوطها، أي بشبكات علائقها واتجاهاتها. واني لا ابرر لنفسي عملية خرق المناهج، ولكني لا أميل إلى حالة تقديس المناهج على حساب محتوى النصوص، خاصة واني أرى

النقد عملاً جماعياً مثله مثل جميع الفنون الإبداعية، إني أتوسم أعلى حالات الانضباط المنهجي في المنهج التأويلي – مع التحفظ على كلمة منهج – فالتأويل يؤدي إلى التأويل المضاعف المرتبط أصلاً بالدلالية التداولية. ومثلما هو معروف فالتأويل المضاعف شبه منهج يقوم أساسا على القدرات الشخصية الخاصة بالناقد، كما أن الدلالية – المنظومة الإشارية – هي الأخرى غير محددة بقيمة حسابية ولا منهجية، أما التداول فهو أكثر الموضوعات حرية وابتكارا وقدرة على تمثيل الحالات الإبداعية المختلفة، والمتعارضة حتى! أؤكد أن هذا لا يبرر خرق المناهج، وهو موقفي المناوئ لأية فوضى في أي عمل إنساني.

**** دخولا في تجربة كتابك " الحداثات الأربع للشعرية في العراق" نود أن نسألك: عنوان الكتاب يتطرق إلى الخاصية الشعرية العراقية الحديثة بإطار عرض القصيدة، والتحليل الفني لها، باستقلالية وخواص منفردة، كيف تكامل عندك هذا الابتكار وتجاوزت المألوف نحو التحليل الفني الدقيق؟***

– في البدء، هل هناك شعرية عراقية، عراقية المنابع والمضمون؟ إني أتوقع صحة هذا التصور بناء على عوامل عدة هي:

أولا: إن معظم التطورات الفنية التي حدثت للشعر العربي بدأها العراقيون، ثم تواصل معها الشعر العربي في الأقاليم الأخرى.

ثانيا: إن حضارة الشعر هي حضارة الوجود الإنساني وقد نشأ كلاهما في ارض العراق، ونحو وجود العالم كله وحضارته.

ثالثا: إن التوسع التعددي للشعراء، بالقياس إلى عدد السكان ينمو حثيثا بدرجة لا تضاهيه أية منطقة في العالم، قديما وحديثا يقال، العراق موطن الشعر وأهله.

إن الشعرية – الآن لها طبقاتها وتنوعاتها الثرية المتكاثرة، وهو ما يجعلني أصنفها الى أربع حداثات اعتمادا على آلية تصنيف وليست آلية تفريق.

لنبدأ بجزء آخر يحتكم إليه الكتاب، هو وجود حداثات أربع وليست واحدة.

هذه واحدة من خروقات المؤلف، فالحداثة واحدة ما الذي يصيرها أربعاً؟!

إن الحداثة السياسية والاقتصادية تنحو أن تكون واحدة بصفاتها المعروفة، لكن الأدب غير الايديولوجيا، وان الفن غير المجتمع – على الرغم من أن المجتمع حاضنة الأدب.

الفن هو راشح الجمال الاجتماعي، راشح الجمال العقلي وطلاء الوجود الإنساني. عليه الفنون الشعرية يمكن عزلها بصنف خاص من المعرفة الجمالية، ويمكن النظر إلى أي منها من زاوية خاصة بلحظتها الحضارية المستحدثة.. يمكن تجزئتها إلى أكثر من أربع حداثات، بمعنى أن كل فن هو حداثة حضارية ذاتية وعامة (!)

الشعر السردي فن = حضارة = حداثة

الشعر التوليفي فن = حضارة = حداثة

الشعر التنغيمي الفكري فن = حضارة = حداثة

الشعر الأسطوري فن = حضارة = حداثة

الشعر المثيولوجي فن = حضارة = حداثة

الشعر الكنسي فن = حضارة = حداثة

وهكذا يمكن الاستمرار في تبويب الحضارات الشعرية وحداثاته وتوزيعها على الفطري وشعر الحياة البوهيمية والشعر المنبري الخ....

وهكذا فليس هناك تطابق بين هذه الفنون سوى أنها (تغنّي) للذات التي تستطرب الجمال وتستعذب الأفكار...

ألا يحدونا هذا إلى أن نصنف "فنيا"، ومنذ عام 1950- حتى 2011، الشعر إلى أربع حداثات (!) للشعر أكثر من اربع حداثات لكني اجتهدت بذلك لأغراض تصنيفية دراسية ليس إلا! ولن يكتفي الشعر إلا بتحديه لكل صنوف الحداثة أو ما بعد الحداثة إلى (خلود جمالي) يخصه فلسفة وتقنيات.

لنتجه إلى جزء آخر من السؤال ذلك المتعلق باستقلاليته أسلوبا وطرائق تحليل.

أقول إتماما للإجابة: إن النقد إبداع.. إبداع صعب، وهو على المستوى التقني - أصعب أنواع الإبداع تمثيلا لتقنيات وفنون طرائق البحث الخالصة. وعليه فإن صعوبة هذا الاتجاه تحتم الفرادة والسعة والموهبة والإدراك الحسي الدقيق باللغة، ولكون الشعر خالق الجمال اللغوي، فكيف يكون الناقد ناقدا للشعر ولغيره ما لم يتمكن من خلق أدواته الخاصة المتجاوزة للمألوف والمتآخية -على الأقل مع أدوات وقدرات الشاعر، وهنا يمكن أن احدد خصوصيتي بفهمين هما:

- إني أحب اللغة ولدي موهبة خاصة بتحسسها.

- ثم أني كتبت الشعر دون أن انشره وأدركت صعوبة كتابة الشعر الخالد.

**** بلند الحيدري قلق في البحث عن المضامين لرؤاه الفنية، يستثمر التكرار ليؤسس معاني ونغمات إيقاعية ما الغاية، هل المقصود أن يعطي للغة حرية الحركة بين الدال والمدلول؟ ام ليبتعد عن البحور الشعرية التقليدية؟ أم لتوظيف القدرات الفنية في خدمة رؤى جديدة، أم محاولة لوضع القارئ في متابعة مستمرة للنص حتى بعد أن تنتهي الكتابة؟***

- بلند الحيدري مؤسس لإيقاعية شعرية تقترب من النثرية على الرغم من أنها (شعرية تفعيلية). ومن جماليات تكرار هذه الإيقاعية احتواء السرد والقطع والتنقيط وإعادة اللوازم المقطعية لأجل حاجات إبداعية حيث أن التراكم الفكري والوجداني والتأثر (بالوجودية) والماركسية، ومطالعة (الاجتماعي والسياسي) الراهن، مرحلته تلبي تلك الحاجات، ويتحرر من

الأيديولوجيات المباشرة لينتج أيديولوجيا الفن المطلق، الذي هو عدمية فنية أصيلة في عمله. لذا فإن التكرار آلية من عشرات الآليات استثمرها بلند ليتصل بالحركة الشعرية الثورية العالمية.

**** يتسم شعر فاضل العزاوي بإجادة الخليط النثري مع طغيان السردية، وكذلك فهو يرى المستقبل بعين الماضي وهذه الرؤية قفزة زمنية وفكرية –برأيك – هل حقق نجاحا كبيرا في صوره الشعرية؟***

– فاضل العزاوي ومنذ بيانه الشعري للعام 1969 حاول أن يصيّر لنفسه مدرسة فنية تعتمد على "الشعرية" والسردية، بإطار (زمني) فلسفي من خلقه (هو) أي انه يرى الزمن دائريا من المستقبل إلى الماضي، وهذا الخرق الفلسفي المبكر يعني انه وضع للزمن (سيولة) حاضرة تمتد بين المستقبل والماضي، تماثل الجمال الذي لا انفصال لجزيئاته الإبداعية حين يكون (خرقا للذاتي والموضوعي في آن واحد).

ميزة الشعر هذه جعلته أكثر حداثة من شعراء (هم) الآن يتصدرون قوى حداثة الشعر.

إن الصورة الشعرية –وأظنها – الوحيدة التي حققت – على المستوى العربي – التوأمة الصالحة تماما – بين الأيدلوجي والفني، العام والخاص والاسطوري، لذا فهي تشبه إناء امتلأ واحدة ستظل عذبة والى الأبد.

**** كزار حنتوش من الناجحين في مزاوجة الفصيح بالروحية الشعبية، ما الدافع الذي جعله يغلف قصائده بهذه الروحية، وما أسس ذلك في شعرية "المحلية" الصياغية والأدائية؟***

– كزار حنتوش ابن بيئة محلية قاسية وشفافة، ويحتوي خزينه الوجداني على روح إنسانية مثالية، وحين كتب الشعر واختلط مع الشعراء لم تغنه منهم إلا إنسانيتهم ولم يتحمل من الجمال الإنساني والشعري إلا ذلك الذي يعيده صبيا بائسا في شوارع الديوانية، فماذا ينتج عن هذا "المكون الإنساني".

انه يتلاءم مع البيئة مثل شجرة، ومحاولتي لتوصيف هذه الشجرة لا يقلل من ثمارها وهيبتها.

ولان كزار حنتوش مبدع مؤسس لهذه الخميرة، أو لنقل، هو الوحيد الذي زرع الخميرة (على الغراف) بزواجه بإحدى أشجار الشطرة (!) جعل سمة الشعبية الفصيحة عنده ثمرة تتحدى الشيخوخة والتعفن! لقد كتب الشعر مثلما يشرب القهوة والشاي (والماي)! على حد تعبيره في إحدى قصائده!

لقد زاوج بين الشعبي والفصيح في الأدوات واللغة والأسماء والحالات والأمثال ولم يخرج عن قوانين اللغة وهذه هي الميزة الخاصة جدا جدا، لديه.

**** لنخرج قليلا من محتوى كتابك***

الحداثات الأربع للشعرية في العراق، نسألك: أين تضع النقد العراقي بالنسبة للنقد العربي؟

– إن النقد العربي والعراقي يحاولان الخروج على المدارس النقدية الأوربية والأمريكية. والحق أن كليهما في طور تأسيس الآليات النقدية البدئية، والتي ستتطور إلى مناهج نقدية بسبب ما لدى البلاد العربية والعراق من ارث حضاري ولغوي ضخم وكثيف وقيم.

لسنا متخلفين، لسنا منفصلين، إنما نحن مكملون وبمرحلة واحدة من التطور.

**** أزمة في النقد، أزمة في الإبداع، أزمة في الثقافة! هل الحل الأدبي بالاتجاه – نحو فن العصر – الرواية؟***

– لأبدأ من النهاية، إن العصر عصر جميع الفنون على الرغم من تفوق (فن الصورة) الذي تجاوز القصة والرواية والشعر والتشكيل والموسيقى حيث تغلغل (فن الصورة) في العقل والوجدان والبصر والثقافة، وشارك الإنسان في العمل والبيت "وسرير النوم".

أما القول في أزمة النقد والإبداع فإن الأزمة التي تحتويها فهي الثقافة، فالصورة كثقافة قد أوجدت تخلخلا غريبا في الذائقة الاجتماعية فقدت تدني الذوق العام وانكمش الوجود البيتي للكتاب، وتراجعت موائد الثقافة هذا الخلل جعل النقد والإبداع والثقافة الجادة أمام تحد وجودي، تحاول مؤسسات العالم (الآن) أن تعيد التوازن بتوسيع البرامج الثقافية وزيادة عدد الكتب المطبوعة وتوزيع مقاهي الثقافة على خانات ومحال الشوارع، وهو ما يعني، في النهاية، أن الثقافة الالكترونية ستتضامن مع الثقافة الورقية ومن ثم يصبح الإبداع المتفوق يتوازن مع النقد المتفوق والثقافة الرصينة ذات الأسس النخبوية والشعبية.

أدب
و
فن

دراسة نقدية

صناعة الطاغية ميتاً سردياً

قراءة في رواية الخائف والمخيف لزهير الجزائري*

فاضل ثامر

فاضل ثامر ناقد ومترجم، رئيس الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، بكالوريوس لغة إنجليزية جامعة بغداد، دبلوم الدراسات العليا في اللغة الإنكليزية من ليبيا 2001. صدر له العديد من الكتب النقدية، وتتنوع كتاباته بين النقد الشعري، والقصة، والرواية، والمسرح، إضافة إلى الترجمة والكتابات الفكرية. له مساهمات علمية في العشرات من المؤتمرات والندوات والحلقات الدراسية في داخل العراق وفي البلدان العربية. تتميز تجربة فاضل ثامر النقدية (والتي تمتد لما يقارب نصف القرن حيث بدأت أواخر الخمسينيات من القرن الماضي)، بثرائها مما تجعله يقف في طليعة النقاد المعاصرين في العراق.

تكشف رواية "الخائف والمخيف" (1) للروائي زهير الجزائري الصادرة عام 2003 في دمشق،عن جوهرها الميتا سردي من خلال شخصية البطل المركزي، السارد الرئيس لأحداث الرواية، والذي يحمل اسم (وليد) وهو الاسم المفضل لبطل زهير الجزائري في معظم ما كتب ،وبشكل خاص في روايته المبكرة "المغارة والسهل" (2) الصادرة عام 1976 في بغداد والتي كانت تدور حول المقاومة الفلسطينية، فضلاً عن روايته اللاحقة "حافة القيامة" التي سنشير إليها.

ونجد هذا البطل منشغلاً منذ البداية بهمّ أساسي هو الكتابة، وتحديداً الرغبة في كتابة رواية يعيش أحداثها بعد أن أحس بالخواء والجفاف أثناء إقامته خارج العراق، (3) ولذا نراه مشتبكاً مع أحداث عراقية وعربية شهدها العراق في سبعينيات القرن الماضي منها صعود نجم "السيد النائب" صدام حسين، والأفول التدريجي لشخصية احمد حسن البكر، رئيس الجمهورية آنذاك وتواصل أعمال القمع السياسي ضد القوى السياسية الإسلامية واليسارية المناهضة لسياسة النظام الدكتاتوري آنذاك.

وهناك حدث مركزي أثار رعب الناس خلال عامي 73 ـ 1974 يتمثل في ظهور سفاح دموي كان يقتل ضحاياه باستخدام "الطبر" وعرف باسم (أبي طبر) وقد اقضّ مضاجع الناس آنذاك، وكان هناك من يرى فيه لعبة سياسية من لعب النظام لإرهاب الناس، بينما يرى آخرون انه مجرد قاتل عصابي متعطش للدماء.

كان وليد ـ راوي الأحداث المركزي، يراقب ما يجري على مختلف الأصعدة السياسية والاجتماعية والثقافية بهدوء، لكنه لم يكن بعيداً عن مجرى الأحداث، إذ نكتشف أن عودة (وليد) كان مخططاً لها وبشكل مسبق، مع كبير محققي النظام السياسي آنذاك المدعو (يعقوب) ربما لصداقة قديمة تربط بين الاثنين، ولحاجة المحقق يعقوب الى شخص يعترف له بأعماله التحقيقية القذرة ليخفف من وطأة معاناة ضميره في لحظات عودته إلى وضعه الإنساني السوي.

وهذا الدور المناط بوليد بوصفه متلقياً لاعترافات المحقق يعقوب، وكأنه رجل دين يحق له منح الغفران يذكرنا برواية "اعترافات كاتم صوت"(4) للروائي مؤنس الرزاز، حيث نجد القاتل أو كاتم الصوت ـ يوسف الطويل ـ يوظف فتاة صماء اسمها (سيلفيا) أو سلافة ليدلي لها باعترافاته، وكأنها كاهنة ستمنحه الغفران على جرائمه، وهذا ما نجده في رواية زهير الجزائري:

"أكاد اختنق يا وليد"!

ـ وأنا أيضا ما كان عليك أن تعيدني لأعيش هذا الكابوس!

ـ ربما كنت أنانياً حين شعرت فجأة بحاجة تشبه التنفس لرجل أبوح له بما في قلبي."(5)

ولذا فقد كانت الكثير من أسرار التحقيق تتسرب إلى قلم وليد الذي كان يعرف أدق التفاصيل السياسية التي يحكيها له كبير محققي النظام يعقوب.

ويمكن أن نعد هذا "البروتوكول" الثنائي بمثابة تقنية فنية اعتمدها المؤلف تتيح لوليد أو للمؤلف وتبرر له معرفته الكلية بالأحداث والأسرار، وأحيانا قبيل وقوعها، لكي لا يضطر الى اللجوء الى السرد كلي العلم الذي لم يعد مستساغاً في السردية الحديثة، فها هو المحقق يعقوب يتساءل في مونولوغ داخلي عما يدفعه للاعتراف لوليد:

"يستغرب يعقوب وهو يبحث عن السبب الذي يجعله يتحدث بهذا الوضوح والطلاقة مع كاتب يتتبع أسراره ويدونها أحياناً "(6).

لقد اعتمد الروائي في تقنيته الميتا سردية في بناء الحدث الراوئي على توظيف اللغة السينمائية بمعناها الواسع، وبشكل أساسي من خلال تقنية السيناريو السينمائي الذي يعمد إلى خلق مشاهد ولوحات (تابلوهات) بصرية حية بعيداً عن تدخل المؤلف، يكون فيها الدور الأكبر للعين الباصرة، أو لعين الكاميرا بشكل أدق. وقد اعترف وليد ـ سارد الراوية مع نفسه عن هذا المنحنى في التقاطه وتناوله للأحداث التي يدون تفاصيلها، فهو يتحدث عن "المخرج السينمائي الذي يدعي انه تعود أن يرى الأشياء من وراء عدسة كاميرا بسلسلة كوادر سينمائية مقتطعة من الزمن ومن سياق الحياة."(7).

إن هذا المنحى السينمائي الذي يدون فيه

المشاهد بمراقبة محايدة وباردة وساخرة أحياناً والذي قال عنه "آخذاً موقع مراقب لئيم بتتبع شخصياته من ذلك الوعي الشفاف الذي يسبق السكر"(8).

هذا المنحى الفني، خلق من جانب آخر إشكاليات تتعلق بالتلقي والقراءة. فهذا الأسلوب السينمائي شجع المؤلف على تكديس مجموعة من المشاهد البصرية المحايدة التي تنقطع فجأة لتقود إلى مشهد سينمائي وصفي أو حواري آخر في سلسلة لا تنقطع من المشاهد، غالباً ما يضيع القارئ العادي في تراكماتها وافتقادها إلى عناصر المسببة بسبب إرجائها إلى لحظات لاحقة قد تنكشف بعد عدة مشاهد، وقد تظل مقطوعة وصامتة أمام حيرة هذا القارئ، إذ تستهل الرواية بمشهد قصير تقطعه صرخة حادة:

" صرخة! صرخة امرأة، طويلة وحادة كسرت زجاج الليل البارد."(9) وسوف نعرف لاحقاً أن هذه الصرخة صادرة عن ضحية جديدة لطبر السفاح الغامض الذي أثار هلع المواطنين ومنهم هذه الأم التي كانت تقشر الباذنجان لطعام الغد، فجأة، تنتقل الكاميرا الى لقطة ثانية في بيت العمة صبيحة وشبكة الدعارة التي تديرها، ثم الانتقال مرة أخرى إلى مشهد جديد داخل منزل السيد الحائري حيث" هاج الجن وراح يوصوص"(10) .

ثم ينتقل السيناريو إلى مشهد الابن "جواد" جالساً على دكة تفصله عن مريديه وهو يتحدث عن الفضيلة والسفاح الذي قد يكون مرسلاً لقطع دابر الفساد والطغيان"(11) وفضلاً عن ذلك هناك العشرات من الحبكات الكبيرة والصغيرة التي يتم تنضيدها ودونما رحمة بالقارئ منها حبكة وليد بوصفه كاتباً روائياً، وحبكة كبير المحققين يعقوب، وحبكة الدكتور أكرم لتلميع صورة القائد الجديدة بطريقة إعلامية مثيرة وحبكة ياسمين التي عادت إلى البلد وهي تحلم بتحقيق مشاريع فنية جديدة وحبكة الغفاري ومجموعته الإرهابية وعشرات من الحبكات التي تتعلق بمناضلين وضحايا للنظام الدكتاتوري لكل منهم حكايته. بمثل هذا التكديس تتحرك الأحداث وهي تكتم على أنفاس القارئ الذي يحتاج إلى اليقظة والشجاعة والإرادة للدخول في دغل الحبكات السينمائية المتداخلة. لكن هذه كلها ربما هي من شروط اللعبة الميتا ـ سردية والتي تقود ايضاً إلى خلق نص كتابي مفتوح على القراءات اللانهائية الممكنة لهذا النص الروائي الذي لا يخلو من تجريبية وبطء في حركته الأفقية والخطية، حيث يشعر القارئ بأنه معلق بأمل غامض تنكشف فيه الأسرار والحقائق وتستقر فيه النفوس التي أضناها صراخ ضحايا السفاح الذي يبطش بضحاياه بوحشية مما عزز الشعور لكل مواطن بأنه قد يكون هو الضحية القادمة.

وخلال كل ذلك ظل هم الكتابة، وتحديداً كتابة الرواية هو الهم المركزي الذي كان يشغل بال البطل وليد، الذي كان يفكر بكل التفاصيل الدقيقة الخاصة باللعبة السردية ومنها اختيار الضمائر السردية.

"بدا وليد الكتابة كمن يعيد تصنيع الجريمة بيديه يكتب ثم يتوقف متسائلاً:

" أيبدأ بضمير المتكلم؟"(12) .

لكنه يشعر بتدخل ذات ثانية ربما قرينه الذي يحذره من أن ذلك قد يعود إلى فضحه ولذا يقترح عليه أن يغير مجرى الكتابة إلى ضمير الغائب.(13).

ونجد وليد متردداً أمام الورقة البيضاء وهو يستهل روايته بجملة مناسبة:" عاد وليد إلى طاولته وهو يتنفس، فباغته عرى الورقة الأبيض الذي ينتظر، وقد جاءت فكرته كالصرخة: بها سأبدأ الرواية: صرخة غامضة مزقت الليل"(14)، لنكتشف أن وليد بطل الراوية إنما كان يعكف على كتابة رواية" الخائف والمخيف" ذاتها.

خلال هذا الرصد السينمائي، كان الفعل السياسي حاضراً عبر نشاطات الأجهزة الأمنية والاستخبارية والصراع المستفحل على السلطة والتمهيد لصعود الرئيس الجديد بلعبة دراماتيكية مثيرة اقترحها وصممها الدكتور أكرم نور الدين ـ وشعر وليد خلالها بأن الفكرة قد سرقت منه ـ والفكرة تعتمد مبدأ "التغريب"(15) البريختي، حيث يعلن التلفزيون عن بيان مهم يظهر فيه الرئيس أو القائد الجديد رافعاً سيفه علامة النصر وباليد الأخرى رأس السفاح وليعلن للناس أن السفاح قد انتهى وبإمكان الناس ان يناموا بهدوء (17)، وهذه الصورة تذكرنا بألوان من الموروثات الحكائية الشعبية مثل قصة أبي زيد الهلالي والصور التي تمثلها في مشاهد مماثلة، والمؤلف حاول من خلال التغريب، ونقل المشهد المعاصر إلى فضاء تغريبي تاريخي أو ميثولوجي، أن يضفي لوناً من الغرائبية على الفعل الروائي، مركزاً الضوء على أسرار اللعبة السياسية وآليات صناعة الطاغية التي توقف عندها الروائي زهير الجزائري في كتاب بحثي مستقل، وسوف نكتشف لاحقاً أن قصة القائد الذي يحمل رأس السفاح بيد والسيف باليد الأخرى هي قصة سبق لوليد أن نشرها قبيل صعود القائد الجديد، لكنها كما يبدو أثارت إعجاب هذا القائد، ولفتت اهتمام الدكتور نور الدين الذي أعاد إنتاجها إعلامياً بالصوت والصورة ، لتقديم القائد الجديد في هالة من البطولة المباغتة والصادمة لوعي المواطن العادي، وفي الوقت ذاته اثارت خوف هذا المواطن وتردده إذا ما حاول عبور الخطوط الحمر التي تمس القائد الجديد ونظامه. والحقيقة أن المؤلف نجح في هذه الرواية في تقديم تشريح كامل للنظرية السياسية والأمنية للقائد/ الطاغية من خلال اعتماد ثنائية الخائف/ المخيف التي سبق وان قرأناها لأول مرة بشكل عابر في رواية "صخرة طانيوس" لأمين معلوف عند الإشارة إلى الأمير الذي نزعت صلاحياته وطلب منه المغادرة الى المنفى، لكن المؤلف هنا يطور هذه الثنائية إلى فلسفة سياسية كاملة، ربما تذكر بكتاب الأمير لميكافيللي، كما أنها تتحول إلى عنوان للرواية ذاتها، إذ ترسم هذه الفلسفة السياسية خطة لترويض المواطنين من خلال إثارة الشعور بالرهبة والخوف وفي الوقت ذاته، يظهر أن الطاغية ذاته كان في آن واحد مخيفاً للآخرين، وخائفاً في أعماقه إذ يكشف الطاغية الجديد وهاب المولى، الذي هو كناية عن صدام حسين في مونولوغ طويل عن هذه الثنائية، التي ترى: إن الخوف أكثر دواماً من الحب " فالأتباع يحبون بإرادتهم ويخافون بإرادة

المخيف"(19) وعندما كان وليد يتطلع إلى الوزير بدا له" خائفاً أكثر مما هو مخيف". (20) ونجد أن يعقوب كبير المحققين وفلاسفة عنف الدولة يقترح على وهاب الطاغية الصاعد" أن يقدم الخوف على جرعات بينها فترة استراحة"(21). هذا ويمكن أن نقول إن جذور هذه الفلسفة كانت قد بدأت في الاتضاح والتبلور في رواية المؤلف السابقة "حافة القيامة" حيث نجد الشخصيات ذاتها على خشبة المسرح عندما يعلن المحقق يعقوب فلسفته في دلالة الخوف: "بالتخويف والتخويف وحده ستحول صناع الجرائد إلى كلاب صيد" (22).

لكن فلسفة ثنائية الخائف والمخيف تصبح سياسة مطبقة فعلاً من قبل الدولة في رواية "الخائف والمخيف".

وليد نفسه الذي كان يحس بوجود قرين آخر يتابع كتاباته ربما هو يعقوب او شخص آخر لذا كان متردداً وخائفاً " خوفه هو الذي يدفعه إلى موضوع الخوف وتجسيد صورة الخائف والمخيف" (23).

يمكن القول أن رواية "الخائف والمخيف" هي محاولة لتجسيد مجتمع عربي، قد يكون العراق او غيره، لأنه يحمل وشم جميع الأنظمة العربية التي تمارس العنف والقمع والتقتيل، ضد أبناء شعبها، ويمارس فيها القادة السياسيون من المؤامرات والتصفيات الدموية، لكن القارئ العراقي سيجد الكثير من المرجعيات والإشارات التي تؤكد له أن الرواية عن صعود طاغية محدد هو عبد الوهاب المولى الذي كان كناية عن اسم صدم حسين، من خلال سلسلة من أعمال التصفيات الجسدية لأصدقائه وخصومه على السواء، ومن خلال توظيف الايديولوجيا والإعلام والثقافة لتلميع صورته.

وإذا ما كانت الرواية في بدايتها تركز على ملاحقة أصداء الجرائم الدموية التي كان ينفذها سفاح غامض عرف باسم (أبي طبر) في مطلع سبعينيات القرن الماضي، بحيث أصبحت الصرخة هي ضابط إيقاع الحدث الروائي، فإنها سرعان ما تنهمك بمتابعة صعود شخصية الطاغية الجديد، وبذا تتحول الرواية بمجملها الى محاولة لكتابة سيرة ذلك الطاغية، والواقع أن كبير المحققين والجلادين يعقوب يطلب منه صراحة الالتقاء بالرئيس الجديد الذي يرغب في أن يكتب وليد سيرته (24).

وإذ يستقبل وليد هذا الطلب بمزيج من الرعب والاحتقار لكنه أدرك استحالة رفض ذلك الطلب، لذا يواصل البحث والتقصي وجمع البيانات الضرورية التي قادت إلى صناعة القائد الطاغية، وقرر مع نفسه أن يكتب السيرة كما يراها، "لا تتوقع أن اكتب سيرتك كما هي، إنما كما أراها أنا(25). وخلال عملية الكتابة كان يفكر في كيفية رسم هذه الشخصية والكشف عن دخائلها الغامضة، لكنه أدرك أن صورة هذا القائد الجديد لا يمكن أن ترتبط بزمان ومكان "سأطلقك خارج الزمان والمكان"(26).

ولذا نرى المؤلف يعمد إلى لون من التغريب في رسم الشخصية ونقلها إلى أجواء تغريبية يصبح فيها شهرزاد، بينما يجد أكثر من شهريار وهي تروي له حكاية جديدة، كما يبدو مثل أبي زيد الهلالي وهو يحمل رأس السفاح معلناً انتصاره وعودة الأمن الى البلاد. ويجد وليد خلال ذلك العون من صديقه المحقق يعقوب الذي كان

يمده بكل المعلومات والأسرار ويراقب كل ما يكتب فتحول الى شريك في كتابة الرواية، دفعت وليد للقول ربما تخيلياً للرئيس نفسه:

"سنكتب الراوية معاً يا سيدي، منك السيف ومني القلم، منك الأفعال ومني الكلمات"(27).

لكن المحقق الذي تثقل ضميره الجرائم التي ارتكبها والأرواح التي أزهقها يدرك بأنه أصبح الآن هو المسؤول عن التعذيب و"المسدس الصامت الذي اغتال الناس"(28) لكن المحقق، صانع الجرائم الحقيقي والعقل المدبر لكل مؤامرة يسخر من وليد وكتابته:

"الفرق بيننا يا وليد هو انك تكتب عن الحدث بعد وقوعه، أما أنا فأكتبه قبل. أضع الواقعة ثم ادخل الشخصية فيها"(29) .

ونكتشف أن علاقة وليد بالمحقق يعقوب أقوى مما نتخيل، فقد وجدناه في الرواية السابقة "حافة الهاوية" يقترح عليه الهرب خارج العراق، بعد أن أحس أن حياته في خطر، فيعد له جواز سفر مزور باسم (مجيد الفرحان) وهو تاجر أدوات احتياطية (30).

كما يعود وليد في رواية "الخائف والمخيف" بإغراء من المحقق يعقوب نفسه لكي يكون الكاهن الذي يسمع اعترافاته ويمنحه الغفران أولاً وليطلب منه لاحقاً كتابة سيرة الرئيس الطاغية. ومنذ عودته إلى الوطن يحس بالندم "ومرة أخرى لامَ وليد نفسه على العودة لبلدٍ يعيش على حافة القيامة"(31).

وواضح هنا أن عبارة "حافة القيامة " هي إحالة إلى اسم روايته السابقة التي صدرت عام 1998 أي قبل رواية "الخائف والمخيف" بخمس سنوات، إذ نجد في تلك الرواية الشكل الجنيني الأول لرواية "الخائف والمخيف" حيث نجد الشخصيات الأساسية ذاتها، كما يضطلع وليد أيضاً بدور الروائي الذي يدون الأحداث ويعيشها أيضا حيث نتابع صعود نجم الطاغية الجديد (وهاب) أو عبد الوهاب المولى الذي هو كناية عن صدام حسين، كما نجد شخصية ابن عمه (مجيد) وأسماء ورموزا معروفة في المشهد السياسي العراقي، ولذا يمكن أن تعد رواية "حافة القيام" جزءاً أول في سلسلة روائية قد تكون ثلاثية عن صعود شخصية الطاغية العربي الى الحكم ، وقد تكون تلك الرواية بمثابة (بروفة) اولى لإعادة كتابة رواية "الخائف والمخيف" بصورة أوسع واشمل وبمهارة ميتا – سردية وتجريبية متقدمة.

ويمكن القول أن عناصر التشابه والتواصل كثيرة بين الروايتين، كما أنهما تحملان إشارات سياسية متشابهة منها الإشارة الى وجود دور للقوى العظمى في صعود شخصية الطاغية، حيث نجد في رواية "حافة القيامة" إشارة الى السير (لويس براون) السفير البريطاني السابق في الشرق الأوسط الذي عيّن آنذاك مديراً للمخابرات البريطانية (32)، كما تتكرر الإشارة إليه في رواية "الخائف والمخيف" بوصفه الصانع الحقيقي للأحداث في البلاد، فبعد مقتل الشبيه نقرأ القول الآتي:

"لا الشبيه ولا الأصل، انه مجرد دمية، الذي يحكم البلد هو السير لويس براون" (33).

*** رواية زهير الجزائري "الخائف والمخيف" تشريح لصناعة الطاغية، وهي أيضاً تشريح لمجتمع يسحقه الطغيان.**

الهوامش:

1- الجزائري، زهير "الخائف والمخيف"، منشورات المدى دمشق،2003.
2- الجزائري، زهير "المغارة والسهل" ، مطبعة الرواد بغداد 1976.
3- الجزائري، زهير، "الخائف والمخيف"، ص 83.
4- ثامر ، فاضل "المقموع والمسكوت عنه في السرد العربي"المدى دمشق 2004، ص57.
5- الجزائري، زهير، "الخائف والمخيف"، ص 82.
6- المصدر السابق، ص84.
7- المصدر السابق، ص 121.
8- المصدر السابق، ص 120.
9- المصدر السابق، ص7.
10- المصدر السابق، ص10.
11- المصدر السابق، ص 13 ـ 14.
12- المصدر السابق، ص 21.
13- المصدر السابق، ص21.
14- المصدر السابق، ص20.
15- المصدر السابق، ص 35.
16- المصدر السابق، ص82ـ 83.
17- المصدر السابق، ص 42 ،43.
18- معلوف، أمين "صخرة طانيوس" ترجمة أبي صالح، منشورات العالم العربي، بيروت ١٩٩٤، ص ,٢٨٢
19- المصدر السابق، ص114.
20- المصدر السابق، ص 218.
21- المصدر السابق، ص 211.
22- الجزائري، زهير "حافة القيامة"، ص 94.
23- الجزائري، زهير "الخائف والمخيف"، ص 36.
24- المصدر السابق، ص 252.
25- المصدر السابق، ص 342.
26- المصدر السابق، ص 338.
27- المصدر السابق، ص 349.
28- المصدر السابق، ص 329.
29- المصدر السابق، ص 435.
30- الجزائري، زهير "حافة القيامة "، ص 280 ـ 281
31- الجزائري ، زهير " الخائف والمخيف، " ص20 .
32- الجزائري ، زهير "حافة القيامة"، ص76.
33- الجزائري ، زهير " الخائف والمخيف"، ص 351.

دراسات

رثاء النفس في القصيدة العربية

صبيحة شبر

صبيحة شبر، خريجة جامعة بغداد كلية الآداب –قسم اللغة العربية عام 1970. تكتب القصة القصيرة والمقالة والرواية والبحث والنقد الأدبي. أصدرت العديد من مجموعات القصص القصيرة: التمثال (1976)، امرأة سيئة السمعة (2005)، لائحة الاتهام تطول (2007)، التابوت (2008). لها روايتان: الزمن الحافي (رواية مشتركة مع الأديب العراقي سلام نوري)، العرس (2010). السيدة صبيحة شبر عضو في العديد من الجمعيات والمؤسسات الأدبية. نالت جائزة أفضل كاتبة في العالم العربي من المجلس العالمي للصحافة عام 2009.

الرثاء في الأدب العربي غرض معروف من أغراض الشعر العربي، المتعددة، مثل الفخر والمدح والوصف والهجاء. ويهتم الرثاء بتعداد صفات الميت الحسنة، وتعداد مناقبه، والترحم عليه، وإظهار عاطفة الحزن الشديدة، لأن أحد الأشخاص الذين نعتز بهم، ونقدرهم لصفاتهم الجميلة، قد غادر هذه الحياة إلى غير رجعة.

ورثاء النفس من أصدق أنواع الرثاء، لأنه يصدر عن عاطفة كبيرة، صقلها الحزن الشفيف، الذي يعتري المرء حين يشعر بأنه سيفارق الدنيا، وهو لم يعش حياته بالصورة التي يحبها، ويدرك أن أحلامه العريضة، في عيشة رغيدة سعيدة قد خابت، وأمله في تحقيق التغيير إلى واقع أجمل، تصبو إليه النفس قد فشل، وإن كانت الأغراض الفنية التي يتطرق إليها الشاعر العربي ، قد يلجأ إليها أحيانا رغبة في النوال ، والحصول على عطايا الممدوح أو قريب المرثي، أو قصد التمتع برضا الناس وحصد إعجابهم، فالشاعرية كانت منذ عصر ما قبل الإسلام وحتى عصرنا الحالي، يتمتع صاحبها بالمنزلة الرفيعة والسمعة الحسنة في مجتمعه العربي، أكثر من تمتع أصحاب المواهب الأخرى، فإن رثاء النفس يظل الغرض الأسمى، فهو يعتبر بحق من أصدق الفنون الشعرية، لصدوره عن نفس حساسة، أمضها الحرمان الطويل من آمالها، وأضنتها خيبة الأمل في تحقيق المراد، فالشعور صادق والنفس حزينة، لهذا نجد القراء والسامعين العرب ومتذوقي الشعر، يسارعون إلى تلقي هذا النوع من الرثاء ،

بقلوب ملؤها الإعجاب، وعقول صقلتها التجارب، وذهن متوقد يعرف أين تكمن مواضع الثناء.

أنشد الشعراء المجيدون قصائد الرثاء الجميلة، فنالوا كلمات الاستحسان، من المعجبين وسارت بالقصائد الركبان، وامتلأت المحافل الأدبية بحضور عشاق رثاء النفس، وتسابقت الكتب الأدبية على تزيين صفحاتها بهذه الدرر الرائعة، واللآلئ الفريدة ، لأنها صادرة عن نفس وهاجة ،أتعبها طول النضال ، ولم تحقق مراداً، أو يصل جهادها إلى هدف منشود، وقد وصلت إلينا نماذج رائعة، من هذا الفن في عصور الأدب المختلفة منذ عصر ما قبل الإسلام وحتى عصرنا الحاضر..

امرؤ القيس يموت بالحلة المسمومة

امرؤ القيس الملك الضليل، له قصائد جميلة في رثاء نفسه، حين علم أن الموت مدركه، فقد ألبسه ملك الروم حلة مسمومة، حين ذهب مستنجدا به، لأخذ الثأر من قاتل أبيه، ووصلت الوشاية بالشاعر إلى ملك الروم، فألبسه تلك الحلة، لستُ أدري لماذا غضب عليه ملك الروم، وألبسه تلك الحلة المسمومة، وهو قد لجأ إليه للاستنجاد به لأخذ الثأر؟ هناك حلقة مفقودة في هذه القصة، وصل أنقرة، وأحس بدنو الأجل، وان الموت قريب من روحه، وكان حينذاك قرب جبل عسيب، حيث دفنت امرأة، فانشد قصيدته البائية:

أجارتنا إن الخطوب تنوب
وإني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنا غريبان ههنا
وكل غريب للغريب نسيب
فإن تصلينا فالقرابة بيننا
وإن تصرمينا فالغريب غريب
أجارتنا ما فات ليس بؤوب
وما هو آت في الزمان قريب
وليس غريبا من تناءت دياره
ولكن من وارى الترابُ غريب

ففي كلمات امرئ القيس حزن شديد ، ولوعة كبيرة ، فهو مدرك انه ميت ، وأنه مقضي عليه ، دون ذنب ، اقترفته يداه ،وانه سيبقى في المكان الذي فيه جبل عسيب ، ويخاطب جارته المتوفاة قائلا لها: إنهما غريبان وإن كل غريب للغريب نسيب ، فإن رغبت بوصلنا فالقرابة تربط بيننا ، وان قطعتِ وصلنا ، فالغريب يظل غريبا ،وان الغربةَ ليست في بعد المكان ولكن من دفن تحت الثرى هو الغريب..

طرفة بن العبد يقتل غدراً

للشاعر الشاب طرفة بن العبد أبيات جميلة في رثاء نفسه ، فقد قتل هذا الهجّاء غدرا ، بعد أن هجا ملك الحيرة بما أثار غضبه عليه، وأراد الانتقام منه بأن أمر والي البحرين بقتل الشاعر طرفة بن العبد والشاعر المتلمس بكتاب يرسله إليه مع الشاعرين، لكن المتلمس، تصرف بذكاء، بعد أن أدرك الخدعة، فطلب قراءة كتابه ونجا، أما الشاعر طرفة فلم يعلم أنه يحمل حتفه بيده، فوصل إلى والي البحرين وبيده أمر بالقتل، فسجنه الوالي، وحين أدرك أن الموت قريب منه، أنشد هذه الأبيات:

ألا اعتزليني اليوم خولة أو غضى ×× فقد نزلت حدباء محكمة القبض
أزالت فؤادي عن مقر مكانه ×× وأضحى جناحي اليوم ليس بذي نهض
فقد كنتُ جلدا في الحياة مدرّنا ×× وقد كنت لباس الرجال على البغض
واني لحلو للخليل وانني ×× لمرٌ لذي الأضغان أبدي له بغضي

فالشاعر طرفة بن العبد الذي عشقنا ما وصلنا من شعره ،كان عاشقا الحرية متغنيا بها، نال عداء الحكام من أجلها، وهجا من وجده يستحق الهجاء ، كانت نتيجته الحبس في سجن محكم الإغلاق ، وتوديع حياة لاهية ، منتظرا إزهاق الروح..

يائية مالك بن الريب

ولمالك بن الريب قصيدة، من أروع ما قيل في رثاء النفس، فهذا الشاعر الوسيم الأنيق ، الذي عرف بقطع الطريق ، حثه سعيد بن عثمان بن عفان على تغيير حياة العبث واللهو إلى حياة أجمل عاقبة ، بأن يذهب إلى الجهاد ، وينال ثواب اللّه ويتجنب عقابه ،فلبى الدعوة ، وفي طريق عودته إلى وادي الغضا في نجد، حيث تستقر أسرته ، أناخ الركب ، ونزل مالك ينشد القيلولة ، وحين نهض وأراد أن يلبس خفّه ، لسعته أفعى ، فأحس بالموت ، متربصا به ،فاغرا فاه ، وأنشد رائعته اليائية التي أثارت إعجاب كل من سمعها ، وبقي الناس يرددون هذه القصيدة الجميلة ، ويستذكرون حياة شاعرها ، حتى يومنا هذا ، فحين يدلهم الخطب ، وتظلم الأيام ، تجد النفس الحزينة متنفسا لها ، عما استبد بها، من شعور بالإخفاق ، فتردد هذه الأبيات ، وتستحضر ذلك الحرمان ودنو الأجل ،وان الإنسان إن لم يكن فعالا مقداما، فإن حياته وموته سيان:

أَلا لَيتَ شعري هَل أَبيتَنَّ لَيلَةً
بِجَنبِ الغَضا أُزجي القَلاصَ النَواجِيا
فَلَيتَ الغَضا لَم يَقطَعِ الرَكبُ عرضه
وَلَيتَ الغَضا ماشى الرِّكابَ لَياليا
وَلَيتَ الغَضا يَومَ ارتَحلنا تَقاصَرَت
بِطولِ الغَضا حَتّى أَرى مَن وَرائِيا
لَقَد كانَ في أَهلِ الغَضا لَو دَنا الغَضا
مَزارٌ وَلَكِنَّ الغَضا لَيسَ دانيا
أَلَم تَرَني بِعتُ الضَلالَةَ بِالهُدى
وَأَصبَحتُ في جَيشِ ابنِ عَفّانَ غازِيا
وَأَصبَحتُ في أَرضِ الأَعادِيِّ بَعدَما
أَرانِيَ عَن أَرضِ الأَعادِيِّ نائِيا

اللوعة الكبيرة التي يحس بها الشاعر، وقد فارق المكان الذي أحبه كثيرا وعاش مع أهله فيه ، تمنى أن يتمكن من البقاء حيا في المكان ، فبعد أن ودع الشاعر حياة الضلالة ، وأصبح غازيا في جيش عثمان جاءت الأفعى وقضمت حياته ، فضاعت الأحلام العريضة ، وماتت الآمال قبل ولادتها..

أبو فراس الحمداني يرثي نفسه

والشاعر الجميل والشجاع أبو فراس الحمداني ، صاحب الأبيات الرقيقة ، ناضل بصلابة ضد الروم ، وكانت حياته زاخرة بالمتاعب الجسام ، تعرض للسجن وغنى للحرية ، ونلمس في شعره ذلك الحزن

الشفيف ، الذي يسيطر على ذوي النفوس الأبية، التي تأبى حياة الضيم ، ولا ترضى بالخنوع ، يطلب من ابنته ألا يدركها الخوف ، فالموت حق على البشر وكل الأحياء ، فإن نادت البنت أباها وعجز عن تلبية النداء، فلتعلم أن زين الشباب أباها لم تسمح له الأيام أن يتمتع بالشباب..وأنه ذهب إلى حتفه

أبنيتي لا تجزعي
كل الأنام إلى ذهاب
نوحي عليّ بحسرة
من خلف سترك والحجاب
قولي إذا ناديتني
وعييت عن رد الجواب
زين الشباب أبو فراس
لم يمتع بالشباب

مسيرة المتنبي الشاقة تخيبُ

أبو الطيب المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس ، والذي لم يحقق الزمن طموحاته الكبيرة، في الثروة والسلطان، وكان يريد من زمنه ، أن يبلغه ما لا يدركه الزمن نفسه ، مات مقتولا بسبب قوة هجائه وسلاطة قلمه ،بيد أحد من هجاهم ، قد وجد هذا الشاعر الكبير نفسه غريبا في دنيا ، لا ينجح فيها إلا صغار النفوس ، اضطر هذا الشاعر الى مدح من لا يراه أهلا للمديح ، بسبب تضافر الحساد على محاربته ،وتأليب سيف الدولة عليه ، كان وحيدا بلا أصدقاء ، ووجد في الموت دواءً، يشفي مما به من أوجاع القلب وأسقام الروح ، ويكفي المنايا أن تكون موضع الآمال ، ويخاطب الشاعر الكبير نفسه انه تمنى الموت حين تطلع إلى وجود الصديق الصدوق بجانبه ، فخاب مطلبه:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا ××
وحسب المنايا أن يكن أمانيا
تمنيتها لما تمنيت أن ترى صديقا ××
فأعيا أو عدوا مداجيا

وتبلغ خيبة الأمل أوجها، حين تسيطر على أبي الطيب مشاعر الغربة وانعدام الأهل والوطن:

بم التعلل لا أهل ولا وطن
ولا نديم ولا كأس ولا سكن

فهو الشاعر الكبير، الذي تنقل في بلدان كثيرة، ومدح ورثى وهجا، ولكن اعتزازه بنفسه وعدم تمكنه من تحقيق أحلامه الكثيرة، جعلت نفسه حزينة وقلبه مفجعاً، أينما حل كثر من حوله الواشون. حتى العيد الذي يترقبه الناس بشوق، لأنه يحمل إليهم الفرح ـ فيجتمعون به مع أحبابهم، كان المتنبي يجد أيام العيد كئيبة لا تأتيه بالحبور والراحة اللذين يطمح إليهما. فالأعياد تمر حزينة، لا تبعث على البهجة، والأحباب بعيدون، ونفسه الكبيرة رغم خيباتها المتعددة، ما زالت تتطلع الى العلى، لكن الأيام غدارة ، لم تترك في القلب والكبد، مكانا لم تنله سهام الحساد، التي لكثرتها حولت الشاعر الى مخلوق لا تؤثر فيه زغاريد الأفراح ولا خمرتها:

عيد بأية حال عدت يا عيد
بما مضى أم بأمر فيك تجديد

أما الأحبة فالبيداء دونهم
فليت دونك بيدا دونها بيد

لولا العلى لم تجب بي ما أجوب بها
وجناء حرف ولا جرداء قيدود

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي
شيئاً تتيّمه عين ولا جيد

يا ساقيي أخمر في كؤوسكما
أم في كؤوسكما هم وتسهيد

أصخرة أنا مالي لا تحركني
هذي المدام ولا هذي الأغاريد

رثاء النفس عند السياب

ورائد التجديد في حركة الشعر العربي، الشاعر الكبير بدر شاكر السياب، الذي حاربته الأيام فعاش يتيما محروما من الحنان، فقيرا مريضا، يتطلع إلى الصدر الحنون واليد الرفيقة، يتوق إلى أشياء عديدة، وجد أنه قد حرم منها، الحرية والحب والصحة. وبعد أن أعياه المرض، ولم يجد العافية التي تطلع إليها، في مستشفيات لندن وباريس، والكويت، وأخبره الأطباء انه مغادر هذه الدنيا، وإن قبرا باردا سوف يضمه بعد هذه الرحلة المضنية، فنادى أمه أن تكون معه، وتوسل إليها أن تلمس ساقه المتيبسة، فتشفي ما يعاني بها من شلل وعجز. فلماذا يذكر السياب أمه بعد هذه السنين؟ انه رغبة في رثاء نفسه الغريبة التي سوف تسكن القبر، فلا تجد من يسمع قصائدها ويثني عليها كما اعتاد السياب، أن يجد في قلوب معجبيه ومتابعي شعره:

نسيم الليل كالآهات من جيكورَ يأتيني
فيبكيني
بما نفثَتْهُ أمي فيه من وجدٍ وأشواقِ
تنفس قبرُها المهجور عنها، قبرُها الباقي
على الأيام يهمس بي: " تراب في شراييني
ودودٌ حيث كان دمي، وأعراقي
هباءٌ من خيوط العنكبوت؛ وأدمع الموتى
إذا ادكروا خطايا في ظلام الموت..
ترويني
مضى أبَدٌ وما لمحتْك عيني! ليت لي صوتا
كنفخ الصُّورِ يسمع وقعَه الموتى، هو المرضُ
تفكك منه جسمي وانحنتْ ساقي
فما أمشي، ولم أهجرك إني أعشق الموتا
لأنك منه بعض، أنت ماضيَّ الذي يمضُ
إذا ما اربدَّتِ الآفاق في يومي فيهديني!
أما رنَّ الصدى في قبركِ المنهار، من دهليز مستشفى
صدايَ، أصيحُ من غيبوبة التخدير، أنتفضُ
على وَمْض المشارط حين سفتْ من دمي سفّا
ومن لحمي؟ أما رنّ الصدى في قبرك المنهارْ؟
وكم ناديتُ في أيام سهدي أو لياليه:
"أيا أمي، تعالي فالمسي ساقيَّ واشفيني"

ونجد رثاء السياب لنفسه واضحا بينا، في الأبيات التي قالها في رثاء صديقه

(حميد) الذي عانى من نفس المرض، وتخيل الشاعر نفسه في القبر، ورجلاه مطويتان:

حميد أخي في البلاء الكبير – فقد كان مثلي كسيحا
يدب بكرسيّه مستريحا
تساءلت عنه فقالوا : "يسير
على قدميه فقد عاد روحا
لقد مات" يا ويلنا للمصير!!
ينام ورجلاه مطويتان
شهوداً على الداء في قبره

وحين اشتدت عليه الآلام وكثرت جروح الجسد والروح تمنى الموت بحرارة:

ويا ليتني مت إن السعيدْ
من اطرحَ العبء عن ظهرهِ
وسار إلى قبره
ليولد في موته من جديد!

وقبل وفاته تكون قصيدته الأخيرة، يتبين فيها شوقه إلى الأحبة والى أهلة وأسرته وزوجته الوفية والى العراق، وإن الفراق وشيك، فقد ناحت الحمامة المطوقة مخبرة به، والشاعر ملقى على السرير كالحجر الثقيل، يشعر بأنه في التابوت لولا بقية من دم ووجع يجعل الأنات تنطلق، هو ملقى في غرفة كالقبر ، ويسأل زوجته إقبال ألا توصد الباب دونه، هو ميت ما زال يحتضر

ما وجدُ ثكلى مثلُ وجدي إذا الدجى
تهاوينَ كالأمطار بالهمّ والسهدِ

أحن إلى دارٍ بعيدٍ مزارها
وزغبٍ جياعٍ يصرخون على بُعْدِ

وأشفقُ من صبح سيأتي وأرتجي
مجيئاً له يجلو من اليأس والوجدِ

يا ليل ضمَّخكَ العراقْ
بعبير تُربته وهدأة مائه بين النخيلِ
إني أُحسُّك في الكويت وأنت تَثقُل بالأغاني والهديلِ
أغصانك الكسلى و"يا ليل " طويلِ
ناحت مطوَّقةٌ بباب الطاق في قلبي تذكّر بالفراقْ
في أي نجمٍ مطفأ الأنوار يخفق في المجرّةْ

ألقت بي الأقدار كالحجر الثقيل
فوق السرير كأنه التابوت لولا أنّةٌ ودمٌ يراقْ
في غرفة كالقبر في أحشاء مستشفى حواملَ بالأسرّة
يا ليلُ أين هو العراقْ؟
أين الأحبةُ ؟ أين أطفالي؟ وزوجي والرفاق؟
يا أمَّ غيلان الحبيبةَ صوّبي في الليل نظرةْ
نحو الخليج، تصوريني أقطع الظلماء وحدي
لولاكِ ما رمتُ الحياةَ ولا حننتُ إلى الديارْ

حببتِ لي سدف الحياة، مسحتها بسنا النهار
لمَ توصدين الباب دوني، يا لجوّاب القفارْ

وصل المدينة حين أطبقت الدجى ومضى النهار

والبابُ أغلق فهو يسعى في الظلام بدون قصدِ
أين الهوى مما ألاقي والأسى مما ألاقي؟
يا ليتني طفل يجوع، يئنّ في ليل العراقِ!
أنا ميّت ما زال يحتضر الحياةْ
ويخاف من غده المهدد بالمجاعة والفراقِ
إقبال مدّي لي يديك من الدجى ومن الفلاةْ
جسِّي جراحي وامسحيها بالمحبة والحنانْ
بك ما أفكر لا بنفسي: مات حبُّك في ضحاه
وطوى الزمان بساط عرسك والصبا في العنفوان

الحزن الذي نجده في من أدرك مفارقة الدنيا وهو لم يحيا كما يتمنى ويريد، كبير يثير الأسى، ويزيد من هموم النفس وجروح الروح. وهذه القصائد الخالدة بما تحمله من جمال قد تكون تعزية للنفس الحساسة من خيبة آمالها وعجزها الكبير عن تحقيق ما بقيت طول العمر تسعى إليه، فقد يجد من أعياه طول النضال عن تحقيق ما تصبو إليه النفس ويطلبه الفؤاد بعض العزاء. إنها قصائد جميلة ذات عاطفة صادقة تنبعث عن نفس تواقة إلى الخلاص من آلام الدنيا وخيباتها المتلاحقة.

(مقهى الدكّة) في البصرة.. فضاء ثقافي.. وزمن سبعيني */ ق-3

جاسم العايف

جاسم العايف، من مواليد البصرة عام 1944، عضو اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين، واتحاد الكتاب والأدباء العرب، وعضو نقابة الصحفيين العراقيين. في عام 1965 نُشر نتاجه الثقافي - الإعلامي في صحف ومجلات عراقية وعربية، وكان حينها سجيناً في سجن الحلة لمدة ثلاث سنوات. واستمر نشاطه بعد ذلك حتى عام 1979، حيث انقطع عن النشر. بعد سقوط النظام في 9 نيسان عام 2003 عاود العايف النشر في الصحف والمجلات العراقية والعربية وأيضا على العديد من مواقع الانترنيت. صدر له كتابان: (قراءة أولى (2010 –و (قتل الملاك في بابل.. المفكر والناقد قاسم عبد الأمير عجام نصّا ورثاء 2010 – وهو عمل مشترك).

"مَنْ يؤرخ المرحلة ؟
بأي سواد سيبدأ
وأيّ سوادٍ سينتهي ؟
بأيّة عينين سيحدّق
وقد صبغهما الخوف؟
من أيّ جدارٍ سيطلّ
وقد ترصّده الموت" هجاء الحجر/ عبد الكريم كاصد

(1)

بعد سؤال له، منيَ، أجابنا القاص محمد خضير، بحياء وتواضع معروفين عنه جيداً، وكان دائم التردد على المقهى و(دكّتها) مساءً، انه أرسل مخطوطة (المملكة السوداء) للطبع على نفقة وزارة والإعلام بعد أن تمت مفاتحته مرات عدة ، عن استعدادهم لطبع مجموعته القصصية الأولى. أحدث صدور "المملكة السوداء" دوياً في سماء القصة القصيرة العراقية، وأخمن انه ما زال متواصلاً. فقد اعتبر الناقد د. شجاع العاني في مقال كتبه في مجلة الأديب العراقي بأن صدور "المملكة السوداء" حدثاً تاريخياً مهماً

في مسار القصة العراقية القصيرة، وكذلك عدها أستاذنا الكريم الراحل الناقد د. علي جواد الطاهر وثمة نقاد وكتاب كثر كتبوا عنها وأهميتها، وفي مقدمتهم الناقد فاضل ثامر والناقد ياسين النصير والراحل الناقد عبد الجبار عباس، ناهيك عما كتب عنها في خارج العراق، حتى أن القاص والروائي "جمال الغيطاني" في محاضرة له ، على حدائق دور الثقافة الجماهيرية وخلال زيارته للبصرة، كنت حاضراً فيها ، قال :" أن نتاجات القاص محمد خضير تشكل تحدياً كبيراً أمام أغلب القصاصين العرب والمصريين منهم بالذات". بعد أكثر من عقد على صدورها خصها د. حسين سرمك حسن بكتاب صدر عن وزارة الثقافة، مقدماً فيه دراساته من الناحية النفسية عن نساء " المملكة السوداء"، وفي التسعينيات اصدر د. مالك المطلبي دراسته المهمة عنها في كتاب مشترك مع الشاعر عبد الرحمن طهمازي، ناهيك عن الأطاريح التي قدمت عنها في الجامعات العراقية وبعض العربية للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه. أفاد الشاعر "حسين عبد اللطيف" أنه أقترح شخصياً على القاص محمد خضير أن يُسميها (المملكة السوداء) بدلا من (مملكة الأسماء) الاسم الذي كان قد أطلقه عليها أولاً، فوافق القاص "محمد خضير" على ذلك الاسم مباشرةً ودون تردد، وبعث بها بعد ذلك، إلى وزارة الأعلام العراقية ، إذ لم تكن حينها ثمة وزارة في العراق متخصصة بالثقافة، لتنشر ضمن منشورات/ مديرية الثقافة العامة/ سلسلة القصة والمسرحية – 15 – عام/ 1972. عند وصول (المملكة السوداء)، البصرة، شع (البياض) على تلك (المملكة) وأضاء بسطوعه شوارعها الضيقة الآسنة وأزقتها وبيوتها الواطئة المظلمة الرطبة، ومئذنتها المتهالكة العالية والتي باتت عشاً للغربان ، ونسائها العراقيات المهمشات، المهملات، القابعات، دائما وأبدا في الظلال. وقد رأيتُ التزاحم على المكتبات التي عرضتها في واجهاتها لغرض الحصول على نسخة واحدة منها. اذكر أني كنت جالساً مع الصديق ودود عبد الغني عصراً في مكتبته المعروفة بـ "دار الكتاب" والواقعة عند نهاية شارع الوطني وشاهدت كثرة مَنْ سعى للحصول عليها، وعندما نفدت النسخ المتوفرة في المكتبة سريعاً، كلّف "ودود" عامل المكتبة بالذهاب الى المخزن وجلب جميع ما متوفر فيه منها، بعد فترة قصيرة عاد عامل المكتبة على دراجته الهوائية حاملاً عليها "كرتوناً" كبيراً يحتوي على"المملكة السوداء"، ولأول مرة أشاهد مجموعة قصصية تنقل على دراجة هوائية. نفدت "المملكة السوداء" سريعاً من مكتبات البصرة التي عرضتها في واجهاتها الأولى، فطلب أصحابها المزيد منها من الجهة التي أصدرتها، ولم تستجب لذلك الطلب نهائياً. بعد عودة عبد الكريم كاصد من فرنسا كان دائم الجلوس في المقهى، قبيل الظهر عند عودته من عمله في التدريس، أو على (دَكَّتها) مساءً، وولدتْ في المقهى فكرة إصدار مجموعته (الحقائب) بطبعتها الأولى ،التي صدرت عن دار العودة/ بيروت/ عام 1975/، وقد حملها إلى دار العودة الروائي إسماعيل فهد إسماعيل، وبخط الفنان التشكيلي والشاعر هاشم تايه والذي كتبها بخطه الجميل، الأنيق المتقن، في ليلة واحدة فقط. ولم يتسلم كريم منها غير نسخ قليلة جداً، بسبب بداية نشوب

الحرب الأهلية في لبنان، ولم تكن طباعتها ملائمة. فقرر أن يطبعها ثانية وصدرت عن دار الأديب/ بغداد/عام 1977، وصمم غلافها الفنان "محمد سعيد الصكار" وخطوطها الداخلية للفنان خالد النائب، وعند اكتمال طبعها ذهب كريم لتسلمها ، فواجهته مشكلة التوزيع واتصل بالدار الوطنية للتوزيع والإعلان في بغداد للاتفاق معهم حول ذلك لقاء عمولة يتم تحصيلها من قبلهم ، لكن مديرها العام رفض توزيعها بحجة أن الدار رسمية وغير معنية بما يطبع من قبل الكّتاب أنفسهم، بينما كانت معارض الدار تحتوي على منشورات كثيرة لدور نشر عربية ، وثمة الكثير من الكتب الصادرة على نفقة أصحابها الشخصية. ترك كريم (50) نسخة من (الحقائب)، هدية منه، إلى مكتبة "دار الرواد" الواقعة في الباب الشرقي. بعد شهرين قصدتُ بغداد لأمور خاصة. ذهبت إلى مكتبة (دار الرواد)، واقتنيت بعض الكتب المتوفرة فيها. وعندما شاهدت (الحقائب) معروضة، رغبت في معرفة مدى رواجها فاستفسرت برجاء وتهذيب من موظفتها عن ذلك، ففاجأتني بسؤالها عن علاقتي بها وهل أنا الشاعر!؟ وعندما أخبرتها باني صديقه، وقادم من البصرة، لأمور خاصة، ويهمني ذلك، فردت عليَّ باللهجة العامية :"يعني شنو.. حَضْرتكْ دلال كتب.. وتسأل هذا السؤال"!!. دُهشت حقاً لهذا الجواب غير المناسب تماماً، من سيدة أولاً، وتعمل في مكتبة معروفة الجهة التي تمتلكها أو التي أسستها ثانياً. فغادرت دون أن اجب عليها حتى بكلمة واحدة، ولم أذهب بعد ذلك خلال زيارتي المتكررة إلى بغداد، نهائياً، إلى مكتبة (دار الرواد). كنا، كريم ومهدي محمد علي وأنا، على موعد مسبق مع الفنان (فيصل لعيبي)، الذي قَدم إلى البصرة، وجلسنا صباحاً معه، وهو (بلحيته الكثة) في المقهى، ثم ذهب كريم لتبضع ما يجعل الجلسة هانئة ورائقة، وعند عودته، انتقلنا سريعاً إلى منزله المؤجر، بمنطقة (نظران) في البصرة القديمة ، والذي "يتساقط من سقفه الحصى" أحياناً. بعد نهار قضيناه معاً، وامتد حتى ما بعد المساء، تخلله قراءات شعرية لكريم من مجموعته الشعرية الثانية (النقر على أبواب الطفولة) والمعدة للطبع. أبدى فيصل رغبته في تصميم غلافها وأن يضع لصفحاتها الداخلية بعض التخطيطات. سَلَمَ (كريم)، مساءً، المخطوطة لـ (فيصل) الذي وعد أن ينهي كل شيء في البصرة، قبل سفره إلى بغداد، لغرض عودته لمواصلة دراسته في فرنسا، وهذا ما حدث فعلاً. وقد تكفل صديقنا الراحل الشاعر عزيز السماوي، شبه المقيم في بيت (كريم)، والذي كان مُنسباً للعمل في مديرية طرق البصرة، بمتابعة إجازة (النقر..) من قبل (هيئة رقابة المطبوعات) ،وحينما ذهب مجازاً إلى سكنه في بغداد، حمل المخطوطة معه. بعد أكثر من أسبوعين، هاتفني السماوي في مقر عملي عصراً، لأخبر كريم أنهم وافقوا على إجازتها، بعد أن تُحذف منها قصيدة (عبر بيوت الأرمن) كاملةً، وكذلك حذف (ثلاثة خراف سود ترعى) والوارد في إحدى القصائد، مع حذف مقاطع كاملة أخرى من بعض القصائد دون تبيان الأسباب من قبل الرقيب! وانه – السماوي– تسلم المخطوطة مع ملاحظات الرقابة عليها، و ينتظر موافقة كريم من عدمها لغرض طبعها. أخبرت كريم بذلك، تردد أول الأمر، في موافقته على

طبعها، لكن مع إلحاحنا عليه، مهدي وأنا، ليلاً في مسكنه، قرر السفر إلى بغداد لتسوية الأمر بنفسه مع (هيئة رقابة المطبوعات). وتم طبعها في مطبعة شفيق – بغداد ، وصدرت نهاية عام 1978، وواجهت مصيراً محزناً، إذ تركها كريم متناثرة لدى عدد من باعة الكتب والصحف، وبعض الأصدقاء، ومعروضةً في واجهات بعض مكتبات البصرة، التي سريعاً ما حجبتها عن العرض!! ثم غادر سراً المدينة إلى بغداد أولاً وتبعه بعد ذلك مهدي محمد علي. خلال ذروة الملاحقات التي طالت الناس جميعاً ، في العمل والسكن والدراسة والمقاهي والحانات والشوارع العامة ، وحتى (باصات) مصلحة نقل الركاب الحكومية، لغرض التوقيع ،بالإكراه، على قرار "مجلس قيادة الثورة" رقم (200)، الذي يقضي بعدم الانتماء إلى أي حزب غير حزب (البعث) ومنظماته فقط، والمخالف يحكم بالإعدام شنقاً حتى الموت، طال هذا الأمر بعض رواد المقهى، ممن اختفت آثارهم إلى الأبد. خلت المدينة منا، وتحولنا إلى ما يشبه الأشباح، عند سيرنا في الشوارع العامة للضرورة. اخترق فضاء المدينة، صوت رجل الأمن ((الشاعر ف . ع)) بهستيريا لا حد لها وبات يتردد صداه في الساحات العامة وفي مقدمتها (أم البروم)، والشوارع الفرعية، والمقرات الحزبية والنقابات العمالية والاتحادات المهنية والرياضية وأسطح المدارس والدوائر الحكومية ، والمحلات السكنية، وهو يجأر عبر مكبرات الصوت التي باتت تطاردنا، أينما حللنا، نهاراً وليلاً، وبأقصى صوت ممكن عبر كلمات سوقية مبتذلة، وبلهجة عامية قبيحة فجة:" لو لينين.. هَمْ وَقّعْ..على المِيتَيَنْ ".

***

(2)

" يوماً ما
سأغادر هذا الشارع
أو أهجر هذا المقهى
يوماً ما
سيبارحني الصحب " محمد علي الخفاجي

أقفرت (المقهى) و (دكّتها)، ولم نعد نتردد عليها وبدت الأيام والنهارات وحتى اللحظات، موحشة ومحزنة، والروح هامدة وخاوية، بعد أن تشرد في كل مكان من هذا العالم، أصدقاء الضمير والأحلام الإنسانية البسيطة والأفكار المشروعة العظيمة، سمار الليل والنهار والماضي، الذي قسم منه يمتد منذ الطفولة والصبا والشباب، وتلقفت غرف التعذيب والمعتقلات والمشانق بعضهم. بالنسبة إلى عدد كبير من المثقفين والكتاب والأدباء غير البعثيين، ومن رواد المقهى و (دكّتها)، ممن لم يغادروا البصرة، تمت مفاتحتهم أولاً (برفق) من قبل الأدباء البعثيين، ومحاولة استدراجهم إلى صفوف حزب البعث بهذا الشكل أو ذاك، وقد لعب أدباء وكتاب السلطة وحزب البعث، أو ممن تعاون معهم حينها ومن بعض رواد المقهى بالذات بعد أن غيروا قناعاتهم القديمة عبر الخوف وتحت طائلة التهديد والترغيب، هذا الدور بشكل لا يُحسدون عليه، وسقط في البدء في فخهم مَنْ كان لا يُتوقع سقوطه بسهولة أدهشتنا جميعاً!! وعندما لم يجدوا استجابة ما، مترافقة مع ممانعة شديدة وحادة، من قبل مجموعة كبيرة وكثيرة من

أدباء المقهى، تحولوا إلى كتاب تقارير ووشاة وإدلاء ، للأجهزة الأمنية والمخابراتية، التي أدت دورها بامتياز، في تلك الفترة الحرجة جداً من حياتنا، ويجعلني حيائي الشخصي والوضع الذي عليه العراق حالياً، وإيماني العميق بسياسة التسامح والتصالح بعد التصارح، والتي لا بد منها للعراقيين بالترافق مع الاعتذارات الصادقة، أترفع عن ذكر أسماء الأدباء والكتاب والمثقفين، في البصرة تخصيصاً، سواء منهم مَنْ استجاب بسهولة بالغة، لمجرد الحديث معه حول انتمائه لحزب البعث، أو لغرض الزج به ضمن ما أطلق عليه بـ (الصف الوطني)، أو الأدباء البعثيين عبر (غاراتهم) المتكررة علينا في أماكن عملنا، و تهديدنا ما لم نستجب لإرادتهم ! وعندما أخفقوا في كل ذلك، أصبحوا وشاة، وتحولوا إلى أدلاء لأجهزة القمع السلطوية، وحتى مرافقتهم لها، دون حياء، عند اقتحام مناطق السكن والعمل، بحثاً عنا، ومع أن كل ما جرى في تلك الفترة ،كان قاسياً وعصيّ على النسيان، إلا انه بات من الماضي وأطمح ويشاركني في ذلك ملايين العراقيين في أن لا يتكرر أيّ مقطع منه، تحت أية ذريعة ما، وبأي شكل أو مسمى ، الآن أو في المستقبل لأي آدمي يعيش، أو سيولد في قادم الأيام على الأرض العراقية، بأي شكل أو لون كان. في العام 2009 وفي استضافة صباحية من قبل (اتحاد أدباء وكتاب البصرة) للشاعر عبد الكريم كاصد ، بعد نهاية مهرجان المربد بأيام، تطرق، خلال حديثه ، لمسألة الرقيب وموقفه وحذفه بعض القصائد منها موضحاً: " أنه اجتمع مع مدير (هيئة الرقابة)، آنذاك، الشاعر علي الحلي شخصياً، حول (النقر..) وما حذفه الرقيب منها، وبعد مناقشة طويلة مضحكة معه، أرجع قصيدة (عبر بيوت الأرمن) بشرط حذف كلمة (الأرمن) من العنوان والمتن، وأفلح، كريم، أيضاً في إرجاع بعض المقاطع التي قررت الرقابة حذفها، رغم أنه لم يطلب سوى إجازتها لطبعها على حسابه الخاص. ذكر (كاصد) :"إن الشاعر علي الحلي، أخبرني، أن حذف قصيدة (عبر بيوت الأرمن)، جاء بسبب ما تثيره كلمة (أرمن) من حساسية في صفوف القوميين العرب عامة ، والعراقيين منهم بالذات". وأضاف:" أن حذف المقطع الشعري الذي ترد فيه عبارة (ثلاثة خراف سود ترعى)، كان سببه اعتقاد الرقيب أنه يقصد بها شعار "حزب البعث العربي الاشتراكي" المعروف (وحدة، حرية، اشتراكية)، أما الأبيات الشعرية الأخرى المحذوفة، فكانت لخلق معوقات لغرض عدم طبعها"!!. هذا ما اسر به أحد العاملين في هيئة الرقابة لصديقٍ له أخبر كريم بذلك في حينه.

*** نشر القسم الأول والثاني من هذه المادة في مجلة" الثقافة الجديدة" العدد/** 346 / **تشرين الأول/**2011 . **وهي مجموعة حلقات تشكل القسم الثاني من كتاب جاهز للطبع، بعنوان"تلك المدينة..."**

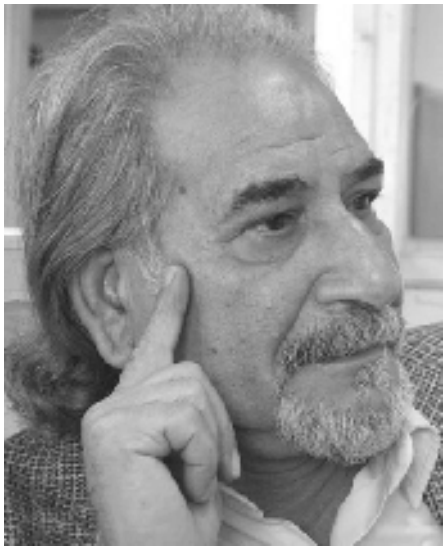

تجوال في (كلمات متقاربة المدى).. لجمال العتابي

قاسم العزاوي

قاسم العزاوي من مواليد 1952، يشتغل على أكثر من جنس إبداعي فهو فنان وناقد تشكيلي وقاص وناقد أدبي، مارس الأدب والفن منذ منتصف سبعينيات القرن الماضي ولا يزال. شارك الفنان قاسم في الكثير من المعارض الفنية في الداخل والخارج، وأقام عدة معارض شخصية عدة داخل الوطن أو خارجه، إضافة إلى العديد من الأعمال الأدبية المنشورة. والعزاوي عضو في العديد من الجمعيات والنقابات من بينها: اتحاد الأدباء والكتاب، جمعية التشكيليين العراقيين، نقابة الصحفيين العراقيين، جمعية الخطاطين العراقيين ... الخ... كما انه مدير تحرير مجلة (تشكيل) التي تصدر عن وزارة الثقافة وتعنى بالمشهد التشكيلي العراقي.

رؤية قصصية محايثة..

في يوم تموزي، يلوذ به العصفور ويحتمي بظل رجل واقف، وما أن يتحرك الرجل خطوتين حتى يتحول الطارب أخرى المسكين الى جمرة متأججة... لا ادري لم اقتحمت عالم جمال العتابي والولوج في هذا اليوم القائظ إلى (قلعة كلماته المتقابلة المدى)....؟! لعلي أريد تطهير نفسي من الم الحرارة التي تجاوزت درجة حرارة الجحيم.. ولا ادري لم خطر ببالي جحيم دانتي في كوميديته الإلهية...؟! بيد أني ما أن شددت الرحال متزودا بزوادتي وعصاي التي لي بها مآرب أخرى ..الم يوجد هناك ما يكفي رمقي من جوع وعطش..؟! داعبت وجهي البدوي نسمات طرية وأنا اتلصلص من كوة بحجم الكف تؤدي الى قلعة العتابي وكلماته التي راحت تقترب وتقترب أكثر من مداها.....

قلت: إني لمقتحمها لا محال..

قال: أخال أن العتابي قال: إياك...إياك أن تعبث بكنوزها...!

أسالت لعابي مفردة كنوز، مما زاد بي

الشوق لاقتحامها حتى وان سقطت صريعا قرب أسوارها...!!

اعتليت سورها الطيني وفاحت منه رائحة الفتها ..إنها رائحة الطين المتيبس المرشوش بالماء أو بزخات المطر.. ياه لكم هي تذكرني بأمي حين ترش سور بيتنا الطيني ...!

وكان الاكتشاف الأول الذي خزنته في ذاكرتي، من أن قلعة العتابي التي شيدها بكلماته المتقاربة المدى، معجونة بواقع محلي: لأحداث وشخصيات وأمكنة وأزمان قريبة مني حتى لأكاد ان المسها...وما ان تدحرجت الى الجانب الآخر من القلعة، حتى رحب بي صوت لم ار صاحبه: أهلا بك...انا إبراهيم السعيد..

قلت: أواه (يا واهب الارتقاء لصحافة الأطفال)...اقترب اكثر وقادني بحنان صوب حديقة تعج بكركرات الأطفال ومشاكساتهم المحببة..ويافطة بالخط الكيفي أو ما نسميه بالخط الحر له بريق الذهب ونعومة (الدعابل)..انها مجلتي التي ما زالت عالقة بذاكرتي رغم تكدس السنوات ..حينها تجمهر حول اناس أعرفهم وأحبهم: طالب مكي، فيصل لعيبي، صلاح جياد، وليد شيت، بسام فرج، ضياء الحجار، مؤيد نعمه ..وووووووو..من الرسامين الذين تركوا بصمتهم في ذاكرة الطفل... لا أدري لم تذكرت خيون دواي الفهد، رغم أني لم اجده في قلعة العتابي.. خيون يا صديق الأطفال اشتقت لك ..هل تسمعني، يا من كنت تستلم مكافآتي من أمينة صندوق مجلة مجلتي بغفلة مني وتنفقها على قناني البيرة .. (محلل وموهوب هي لك يا صديقي) هههههههه... ودعني السعيد بعد أن وهبني رزمة من مجلتي تأبطتها فرحا وخطر ببالي أطفالي وكيف أوزع عليهم هذه الهبة (الدسمة)...

هناك وعلى جدار آيل للسقوط، علقت يافطة وبخط الثلث (أعلن براءتي من يوم ميلادي)

قلت:عجيب...!

جاءني صوت اظن اني اعرف صاحبه

نعم: اعلن براءتي..

ولم..؟!

بكل بساطة لان رحم أمي رحمها اللّه لفظني في التاسع من نيسان عام 1946

قلت:وما به..؟!

قال مستغربا: وما به: أتقول ما به...!! وكل ما في نيسان مشؤوم، ناهيك عن ان تاريخ ميلادي انفرد بعيدا عن سرب مواليد 7/1..واست.. واسترسل: رحم اللّه ابي وهو يدون كل شيء عن اولاده بالدقائق والساعات..

ودعته، اقصد ودعت ابن حسن العتابي، جمال، وهو ما زال يعلن براءته من تاريخ ميلاده، يرهف السمع لأكثر من خمسين عاما (لإيقاع أخاذ وساحر لمطربة مصرية تترنم بأغنية عراقية صميمية لم يمحها الزمان ولا المكان وتجدد في كل الأزمنة والمواسم... قلت: من هي المطربة هذه التي تذكرني بهديل الفواخت.. قال: إنها (ملك) أيها المتطفل.. شكرت وتوغلت أكثر داخل قلعته المسورة بسور الطين الحري والمعجون بالتبن ..

من هناك، كنت أشم رائحة التاريخ وحشد من الخلق لا يربطهم زمان ولا مكان، كان ابن خلدون متربعا يعبث بلحيته وعمته ويستذكره بانسياب موجات الماضي وحاضره في نهر التاريخ الذي ما ملّ من

جريانه صباح مساء ..وميكافلي وهو يحتضن (الأمير) والكل يصرخ التاريخ يحيده المنتصف والتاريخ يتبع السياسة قلت: مالي والتأريخ وعبارة ترددت في ذهني لا أدري من قائلها (إذا قرأت التاريخ عليك أن تغتسل بعدها...!)

هناك.. وفي ما يشبه الحلم وفي حديقة غناء لاح لي وجه اعرفه جيدا، منذ التقيته لأول مرة، في اتحاد الأدباء في السبعينيات، كان وسيما وما زال (هو الشاعر الناقد والفنان والخطاط المنتج للدهشة دائما) انه صادق الصائغ

– صديقي ..الجميل قال .

قلت: ومن أجمل منك يا صادق يا ابن الصادق ..

لوح لي بترويساته: ترويسة (المدى) و (ألف باء) وجريدة (العالم)

قلت: جميل خط مغاير لكنه يمتلك الرشاقة والحلاوة قال: اعرف جميع الخطوط من نسخ وثلث وديواني وجلي ديواني وفارسي وجميع انواع الكوفي ... قلت اعرف صديقي... استودعت صديقي الجميل لان لي جولة جدا طويلة، وقد يهدني الإعياء ويدركني الليل، وأنا ما زلت في بداية تجوالي في متون قلعة العتابي وكلماته القريبة المدى في الطريق صادفني الشاعر هادي الحمداني وصوت جمال العتابي يرن في اذني (انه نموذج لثراء المبدعين وهو أستاذي في المرحلة الجامعية، وكان يتأبط (ديوان الحمداني) حينها تذكرت أبو فراس الحمداني، قال :لا تعجب لأن اسم ابني فراس ..قلت أحييك يا أبا فراس ..!

وها أني أحث الخطى صوب عوالم مملكة الكلمات ويغمرني الفرح مثلما يغمرني الحزن بلقاء الأصدقاء الذين عرفتهم واحزن لأشخاص وأماكن غادرونا بغفلة من الزمن، وها أني فرح الآن بلقاء (بشيخ المجددين في بناء وتشكيل الحرف العربي) محمد سعيد الصكّار، المجدد الرابع، إضافة الى كريم سلمان، مالك المقدادي، صادق الصائغ... قابلني الصكّار بقامته الرشيقة وحلاوة كلامه كحلاوة خطوطه وتصميماته العديدة والعديدة جدا، أصغيت السمع لصوت عرفته من الوهلة الأولى واجزم متأكدا انه صوت جمال العتابي وهو يهمس: (إن عالم الصكّار غني مضيء، فيه الكثير من القدرات الموحية، انه يقدم تجربة حسية حرة، بهدف لا يخلو من وحدة البناء، رشاقة الحرف وامتداداته وانسيابيته المطلقة ...) قلت :اعرف هذا بل اعرف الأكثر من هذا

قال: لم تتجول في مملكة كلماتي اذاً

قلت: لاقترب من المدى والتقي بالأحبة والأصدقاء

قال :.....!!

صافحت الصكّار وانصرفت، وها اني اهوي في نقرة السلمان (ياساتر...!) وما ان سقطت في جب النقرة حتى تلقفني الكثير من العلماء والأدباء والفنانين والشعراء ...معظم الوجوه أليفة محببة، طيبة... ومن هناك في احدى زوايا السجن تقرفص سجين وهو يردد بصوت مكتوم بعضاً من شعر السياب ... قلت ... من يكن ....؟ قالوا ...انه سجين يساري قلت: اعرف قالوا: يريد أن يكون شاعرا ... انه الشاعر عبد القادر العزاوي (نقرة السلمان صيرته شاعرا).

ياه.... لكم أنا فرح بـ....(أبو كَاطع) وحكاياته التي ما غادرتني يوما، والتي

تنتمي للحياة، للناس، للطبيعة ولكل الطيبين .... ومن الطابق الثاني من عمارة تطل على شارع يؤدي الى ساحة التحرير، وعلى يسارها يرتفع نصب جواد سليم، كان مكتب (الثقافة الجديدة) يحتل جناحا صغيرا... وكانت حكايا شمران الياسري تسري بالروح كنسمات ندية ... قال: جمال الذي قال :هنا التقيته للمرة الأولى قلت: وما اجمله من لقاء ... وراح ابن حسن العتابي، يقرأ ما تيسر له من ملح الأرض يتوقف قليلا ويتنهد –رحم اللّه ابو كَاطع ...

وما ان خطوت خطوتين حتى استوقفني صوت يترنم (ولدت بين موجتين من نهرها وأسمتني الحبوبة موفقا..)

قلت: ياه.. ابو خمرة... يا جمارة الشعر العراقي، صديقي الحلي موفق محمد ها اني احفظ عن ظهر قلب، غزلك الحلي، من حشرك هنا ؟ قال: انه جمال العتابي من ادخلني مملكة كلماته..قلت: خيرا فعل..قال: لكني اصلا في الحلة وعمقها التاريخي، من حمورابي الى صفي الدين الحلي وحيدر الحلي وطه باقر واحمد سوسة وعلي جواد الطاهر وعبد الكريم الماشطة وقاسم عبد الامير عجام الشهيد وقاسم محمد حمزة وووووو... فما حاجتي بمملكة العتابي، قلت: صحيح..

ففي مملكة كلماته أسماء لم أتعرف عليها مسبقا بيد أني أسعدت بالاقتراب منهم، ومنهم المناضل عيسى غيدان..

يالهذه المملكة أو القلعة سمها ما شئت، وهي تجمع كل هذا الحشد من: مناضلين، أدباء كتاب، فنانين، شعراء، صحفيين، ورؤساء، عبد الكريم والى أين قاد جمهوريته الأولى وكيف كانت صلاته وطقوسه، هل هو سني أم شيعي..؟ حقا لا ادري الى هذه اللحظة..! طبعا مملكة العتابي لا تخلو من العلماء، ها هو العالم عبد الجبار عبد اللّه.. أين ذهبت كل سجلاته هل ابتلعها الحوت لا احد يدري..؟! وعبد الرحمن الذي اعتلى عرش المحبة، وعشتار أتراها الآن (تلملم رسوماتك ولوحاتك وأشياءك...) ها أنت تحرق مشاعل ذاكرة العتابي..وتعتلي عرش المحبة...!

رشدي العامل، صديقي المرهف، هي (ابو علي) كيف هي بستان علي، انت هنا اذن؟ هل استضافك العتابي في مملكة كلماته لكنه الآن يستضيفك بعيدا عن الشعر...مازلت أتجول في قلعة كلمات العتابي لاعتلي رابية متطرفة وأنا أصغي لشهادات ودراسات وذاكرة تتلى لكاظم حبيب في ذكرى ميلاده الخامس والسبعين، ورحت استرجع تاريخ هذا الرجل ونشاطه في (طريق الشعب) و (الثقافة الجديدة) ومهامه الحزبية وإلقاء المحاضرات وهو يتنقل بحيوية وبروح شابة...

ومن فوق كرسي او منبر يتشح بالسواد، كانت دموعي تنهمر مدرارا وأنا اصغي لواقعة الطف بصوت عبد الزهرة الكعبي، وأنا أرنو لحوافر الخيول وهي تمزق جسد سبط النبي محمد وصليل السيوف تتلامع وهي تحز رأسه الشريف.. اه يا أبن رسول اللّه.. لكم أنت رائع يا عبد الزهرة الكعبي وأنت تجسد بصوتك هذه المذبحة التي لا مثيل لها....!

لقد أثرت مواجعنا بعد أن كنا نتجول بفرح داخل قلعة الكلمات لماذا يا جمال؟؟

قال: ومتى انعم العراقي بالفرح...؟!

هدني الإعياء من تجوالي وبدون أن أدري

استيقظت صباحا ورأسي يستند الى جذع شجرة سدر وارفة الظلال تتهدل أغصانها وهي تنوء بحملها الثقيل من (النبق) ومحمد الملا عبد الكريم يصبح علي وبعدها قال لبغداد وداعا... قبل فطوري استمتعت بمذكرات فؤاد عارف وحزمة من الضوء على تاريخ العراق المعاصر لأتجول بعدها في مشروع نوري جعفر الوطني.. استرحت قليلا في الدواية لانتقل إلى فالح عبد الجبار وواقعيته... حينها أقنعت نفسي لاقتحام عالم عبد الرحمن طهمازي وكسر عزلته وصمته الإرادي وهو يقف متفرجا او مراقبا لما يحدث ..شرب الشاي معه وراح يستذكر بعين ثاقبة ما يجري ...وحين عدت التقيت بمؤيد نعمة، من عليين هبط وكأنه يرفض الرحيل من على ارض التصق بها، أحبها وأحب ناسها..ابا داليا...لك وحشة كبيرة يا صديق العمر...بصعوبة غادرت مؤيد نعمة وأنا التفت صوب قامته المديدة وأنا أردد...افتقدناك صديقي ...لكن الذي خفف عني الم الفراق صوت ريسان الخزعلي يندهني (ها خوية) قلت: أهلا ابو طيف ها أني أراك تتوسد الماء في طريقة الغناء، قال: هل أراك في نادي اتحاد الأدباء قلت: ومن لي غيرك ...لم تخلو مملكة كلمات العتابي من أصحاب الفكر التنويري مثل الشيخ عبد الكريم الماشطة والشهيد كامل شياع وكذلك عزيزي السيد جاسم ...عفوا سيدي جمال العتابي، لم استأذنك بدخولي مملكتي كلماتك متقاربة المدى أولا، وثانيا أعدك بأني لم اعبث بكل كنوز موجوداتها ولم أزعج شخصياتها، وحافظت على أمكنتها بل سقيت زهورها وشذبت أشجارها واعدك أيضا بأني سأخرج من بابها وليس علي أن أتسلق أسوارها كما فعلت عند دخولي وسأحكم غلق بوابتها وانحني لها وانصرف ....

*** (كلمات متقاربة المدى)، كتاب ألفه جمال العتابي وصدر عن دار الثقافة والنشر الكردية عام 2012، ورؤيتي القصصية هذه إنما هي محاولة من التقرب إلى هذه الكلمات بأسلوب القص المحايث.**

قصائد للشاعرة حسينة بنيان

حسينة بنيان من مواليد الكاظمية/ بغداد، انتقلت مع عائلتها إلى مدينة الحلة حيث أكملت هناك دراستها الابتدائية والثانوية. واصلت دراستها الجامعية في كلية الهندسة/ قسم الهندسة الميكانيكية في جامعة بغداد وتخرجت في العام 1979. بدأت الشاعرة حسينة بنيان كتابة الشعر منذ أواسط السبعينات وشاركت بمهرجانات شعرية وأدبية ونشرت معظم نتاجها الشعري في الصحف والمجلات العراقية والعربية. صدرت لها العديد من الدواوين الشعرية من بينها: سمات بابلية، كلمات بعد الموت، عراقية في سطور، قبل 3 ظلمات.

اعتراف

أيتها النفسُ..الغيرُ
كيف تحولين بيني وبينهُ
وأنتِ الأكثرُ جدلا
لما تُحَرِّجي خلف الجدار
عرّفَ عرضه..وارتفاعه
منذ سنين
وحال بين الفجر وضوئهِ
إياك أن تُرشدي
فكلُّ الخلايا..اعترفت
وكلُّ الخطايا باتت في قمقمها
المخدر.....
عند سبات النهر
أبشري به
فلقد ظلَّ
أبعد من التيهان..قلبي
وأنتِ..أنتِ
طائرةٌ....إليه
بين أسراب الطيور

منذ الصفر *

منذ الصفر ..ومنذ اليوم الأول
من عشق الحرف .. وشوق الدرس
ووحيُ النفس أن تتكلم
بالشعر العربي الواحد
والقلم الواحد
أحمد شوقي..السياب
سميح القاسم أو درويش
أن أشدو في كل خميس في الساحات
أو أرسم فوق سوار السبورات
بالخطِّ الشاهد
ربِّ أرم الصهيونية
خلف حدودي
وأغرق خطوات مراكبها ..بدم بارد
وشهاداتي تترا...
تختم كلَّ أفول الليل
بالثورات التحريرية
ورحيل طغاة الفلوات
يا ثوريّ هيا ارحمينا
وكفى بنا من عاشقينا
الموج عار ولم يعد فيكِ سفينا
والهفوات تتوالى في كلِّ ربيع
البيت يصيح..والبيت يطيح
والفيل الجامح يرسو فيه
ربِّ هب لي عمراً آخر كي أحميه
البيت يصيح.. وجيوب الساسة
بالنفط تفوح
لم يتغير شيء بتة
من خطوات الدكتاتور
حتى صلوات المأجور
يا نفطنا يا راحلي
هب لي سلامي البابلي
وأحرق بقايا قاتلي
من أول فجر..لطلوع البدر
فوق النيران الموقوتة
والخوف يفوح ...والخوف يفوت
من كلِّ عباءات الجارات
والموت..سكوت
وخويطات الفسق الفاسق
تلتفُّ بأول تابوت
مُدَّ القهرُ جوارَ النهر
فغاض الموج بكلِّ الغدر
وفمٌ يسأل
ودمٌ يجري.
والأعلام خداع البصر
يا سيدي يا عالمي
قد مزّقوها .... قيمي
فأرحل بنا....قبل سقوط القمم

والأعمام ..رفاتُ الذئب
حملوه بنعش الحريةِ
نحو أريم الوادي المتقل
بالأكبار المحرومين
فأضِ واشرب كأس فراتك
وأحمل رجلةَ تلك الأخرى
وأحذر كُلَّ هوارٍ..صر
وتوكل مثل الناعور
لُفَ وليدك ..ظلاً آخرَ للتكفير
وليدك يصحو
فأجمع حبات الكافور
.....
ولدي أريمُ الراحلين
إلى مقابرهم طواعيةً وقسرا
ولدي جراحات الفرات
وكلُّ جُرحٍ عار جسرا
ولدي غيومك يا عراق
أن أمطرت ترتدُّ جمرا
.....
وليدك يصحو
فأطفئ ليلك ..ورع الحور
يحملن بقايا التنزيل
لملم كل رفات وليدك
وتكاتف بصلاةٍ أخرى
وبفاتحةِ البيت الأول ..والتبجيل
وهنيئاً لبيوت المضراء
سالمةً من كل فناء
وعاشت كلُّ كراسي العصر
ومات الشعب.. وضاع الربُّ
فتقبّل هذا التأويل

* القصيدة المربدية /دورة الفريد سمعان/
ألقيت في المربد / 2012

لا هديل في ذلك الغروب

بلقيس خالد

الشاعرة بلقيس خالد من مواليد البصرة.. تعمل في حقل الصحافة وتكتب في صحف عراقية وعربية عدة. صدرت لها مجموعة شعرية بعنوان (امرأة من رمل) عن (دار الينابيع / دمشق 2009)، و أخرى (بقية شمعة قمري).

قصائدها ضاجة بالأسئلة في محاولة لتأسيس تجربة تستحضر مرارة الواقع الذي عانته وما تعانيه المرأة في أزمان القسوة والعسف.

مسكونة بالهم حتى العظم.. خرجت من بيتها،
كالتميمة كفها على معصم حفيدتها..
ومضت ساهبة جسدها.. نحو الشارع العام..
همستها حفيدتها: ثمة طريق مختصر.
ضغطت على معصم حفيدتها قائلة: لا.. دعينا
نسير مع الموكب. ثم همست وكأنها تحدث
نفسها: (مشية شهر ولا طفرة نهر).
أكملتا المسير في الطريق الذي اختارته
الجدة.. وهي تنعي.. بصوتها المشروخ.. ثم
تأملت الماء محدثة نفسها: يا سبحان الله.. حتى
الطيور تنوح اليوم؟!

وبعد خطوات أصبحت وحفيدتها في جموع
الزائرين المتجهين نحو (الخطوة)*
الموكب على جانبي الطريق العام المؤدي
الى قضاء الزبير.. توزع الطعام والماء وكل ما
يحتاجه الزائر..
وفي لحظة لم يسجلها الوقت أفلتت الحفيدة
يدها من يد جدتها راكضة تجاه شخص يوزع
الكعك..
وهي تتناول من صندوقه كعكة..
.....
ثلاثة في واحدة نفخ في الصور. شهق

العصف بجسدها الطري وارتطمت على الإسفلت،

لاهثة ممزقة مبعثرة..مدت يدا مستغيثة..صارخة: جدتي..

مدي...

مدي يدكِ..تلقفي ضحكات قفزتي من يضمنهما:. سيرورة الشهر وقفزة النهر؟.

لا..

لا سلامة في التأني

سريعة..

سريعة هي التقاويم

وضوؤنا رغم سرعته :واقفٌ.

صدئة أحلامنا..ولا باب لا باب لا باب للفجر..

الليل: كالح الوجه

غطاه الصمت..

الظل: ظالمة.

لا وطن للنوافذ..

النوء يهز أشجارنا..

وحاصدنا يرفل في السيل.

مدي...

مدي..يا جدتي

يدك..

اشتعلي ضوءً..

لا شمس في السنابل

انتصبت الحقول شاهدة..وشهيدة.

أيتها الفلاحة اللابدة في قعر صبرك..

آن لك أن تحصدي..ولا تنتظري من المنجل سوى زراعيك..

مدي يدك..

تلقفي سنبلتي

نفثت الريح سمومها في وجه الحلم: تخثر الأمل.

حكمتك..لن أصطفيها مكانا

ولأستنشق غربتي

طي السكائر طويت حكاياتك

الحقيقة وطن الجمر

كيف..أعيشك حلما

ازهقتني حمامتي

ولا جدار. لأرسمني نافذة..

مدي يدك...تلقفي..حفيدتكِ

بأشلائها لملمت وطنا.

..تلقفي..

لا.....

ولا ضامن..

الجدة.. من الشظايا المتطايرة لم ينج جسدها النحيل..

حاولت أن تلتقط شيئا من أنفاسها الهاربة..

حاولت أن تنوشها بقامتها كلها..فشلت لكنها،

زحفت..

وضعت رأس حفيدتها بأحضانها ناحبة:

أيتها الصغيرة..
أيتها الغافية بأحضاني
حالمة بالعيد
انهضي..
انهضي...
الغفوة..غفلة
لا حلم..في حقيبة النوم
رعيه في النور: حلمك
في حاشية الفصول
في الخفيف
ليدنو منك الضياء
النوم: سراب الحياة
اختباء :الروح في الزوايا..
هروب الورد
في غفوة الفصول
انهضي..
انهضي..

صوغي الطريق..أقراطا. لا نهاية لها
اغرسي خطاك في أرض
لم تطمئها سوى قدميك
انهضي..
على صبحة الوقت انقشي السنابل
راهني..
راهني..هذه الأرض حياة..
ساعتكِ التي لن يمسسها عطل
يا صغيرتي..انهضي
لا تكوني (دانة..تابوتها الماء)
متأخر يصلك الوقت
ولا هديل..
لا هديل...
في زلك الغروب
لا...
لا هديل..

*جامع البصرة الكبير

مساء المواويل

رائدة جرجيس

رائدة جرجيس إحدى الشاعرات العراقيات المغتربات لها مؤلفات شعرية منها مجموعتها الشعرية الأولى (لي ما ليس للبحر) ومؤلفات أخرى.

صرختْ بوجهِ القابلةْ
تلمستْ حريرَ أمها
حينَ وضعتها
فنفيتْ كصبارةٍ إلى الصحراء
لا شيءَ حولها إلا هشيمُ العشبِ المحترق
أصفر
أصفر
وفوقها سماءٌ زرقاءُ تناجي حرَ الرمال
وتنتحبُ لها
بصمتها ألفُ آهٍ
تمطرُ المساءَ مواويلَ حزن
تنجرُ حزنها بأزاميلِ الفرح

(أبانا الذي في السماء)
لماذا تسوقُ سريَ كلَ ليلةْ
إلى معصرةِ الألم
اسقني نبيذَ الوجود
كأس
أحجيةً أجيدُ حلها
لأعانقَ فيه
انكسارتي طربا
فلطولِ انتظاري طعمَ الشعر
في ليلٍ عاشقْ
يهوى الصمتَ ويرقص
بسكونٍ على أنغامِ الروح

القطعة الخامسة من بينالي عواء وبسكويت

نضال القاضي

نضال القاضي، من مواليد الحلة، روائية وشاعرة عراقية تقيم حاليا في البرازيل، حاصلة على بكلوريوس هندسة كهرباء من جامعة السليمانية وعملت في قطاع هندسة الاتصالات. صدرت لها روايتان: (سيرة ظل) و (كناريا)، إضافة الى مجموعتين شعريتين: (ودائع المعوّل عليه)، و (بينالي عواء وبسكويت). وصدرت لها ايضا مجموعتان قصصيتان: مكان مألوف لدي/ 1999، عصفورة آدوم/2001

مخوّلُ الرملُ بالخاتمِ
تلك التقطر سفناً
وصيّادينَ
وغاباتٍ
وتقتلع الليلَ من السرّةِ
الليلَ وبتجنّ..

بعينِ النونِ المترنّحِ حول الألفِ
وخاتمِ الأماكنِ
بعد إذ لا أماكن في الذاكرةِ تفضحُ..
فعظمةُ الضحك أنّك لا تختار

ومسندٌ بتذكُّر..
ومسندٌ بنسيان..
كلّما أوقعتْ الرجّةُ في وجٍ..وجرٍ..وجهك
طبْقَ الأصل
بينكَ وبينكْ...

هي الحافرُ..إذن..
تجلس في حديقةٍ
ترتفع الحديقةُ..
في صحةٍ هنديٍّ مطليٍّ بالمعدنِ..
ومغطّى بالفقرِ وبالرقصِ وبالريشِ

ويُدْعى بالريش وبالرقص وبالفقر
بعدُ إذ لا كلامَ للأمهات في الغُرَف..
ولا ملاحمَ ولا إسبارطات
ضحكٌ فقط
ضحكٌ على الحيطان
ضحكٌ على الأرض
ضحكٌ في الأوراق الرسميّة
ضحكٌ في الملابسِ
ضحكٌ في الطعام
ضحكٌ ..
من نصْفِ الكرة الجنوبيّ
يتعرّجُ بين البيوت
ومن رأس الشجرة

حتّى سمكةٍ هنديٍّ
الكأسُ موضوعٌ إلى حافةٍ
وملآنٌ حتّى القمر ..
كم أهذي بضوءِ الذي يُدعى قريةً
وحافتُها غزيرةٌ ..

في القريةِ أقعُ..
في حنينٍ بقامتي وحافتُهُ غزيرةٌ
وقريةٌ..
ومن سفنٍ أيضا..
وصيارين
وغابات

بيلوتس/ البرازيل

شارات لا تعرف الغياب

جواد وادي

جواد وادي من مواليد 1949، حاصل على بكالوريوس آداب اللغة الإنجليزية –الجامعة المستنصرية 1975 .

شاعر ومترجم وكاتب، عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق. صدر له: ديوان تراتيل بابلية، ديوان رهبة المدارك، نشيد الفواخت، أما في الترجمة فله الأعمال الآتية: خطابات حالمة (رسائل حب عاطفية لمشاهير العالم) لبربارا كارتلاند، الأشذاب (ديوان الشاعر المغربي إسماعيل زويريق)، أغنية الغبار (ديوان الشاعر العراقي وديع العبيدي)، عانقت برجا خلته مئذنة (ديوان الشاعر باسم فرات). وللشاعر جواد وادي العديد من المخطوطات والمقالات التي تنتظر الإصدار.

(إلى من تسيّدوا القلب والوجدان. نفحات تعبق بالأريج. أرواح خلّدت قيم الرفض للمهادنة وأبت الخنوع. عبّدت لنا بدمائها الطاهرة طريق الحرية وصنعت قيما خالدة للشهادة. فلفظت كل العناكب الحاقدة وبقيت هي منارات إنسانية ما خبت يوما... إلى شهداء الحزب ومناضليه الميامين)

–١–

فهد

(يوسف سلمان يوسف)

–أ–

يقيمون في العتمة

وأنت المضيء دائما

لا تبرح عن هلعهم المأكث تحت جلودهم

قريب من نحورهم المدججة بالخنوع

رجّنوا أسلحتهم

بلغة المكر

وأنت فضحت خيلاءهم

المكتظ بالمراهنات

كانت يداك تطال النجوم

وكانت أياديهم مردودة لخيباتهم

سيد الشجر أنت والثمار وكل المسرات
صديق القطا وحامل شارات المباهج
أرحت كل خبايا هم وما أعلنوا
وأسعدت حاملي رايتك الحمراء
ما أن علت هامتك مقاصلهم الذليلة
حتى صعدت لعتبات المجد
لهامات الخلود ليظل صوتك هادرا بذات
الصدى
لتبقى الشيوعية:
أقوى من الموت وأعلى من أعواد
مشانقهم الخرساء
سيظلون وريث الطاعون
بخبايا هم الفاسدة
أعلم يا سيدي
أنك ستظل حجر الصواعق
ليعرف الصغار
أنهم ضئيلون دائما
أمام قامتك الشامخة.
ستبقى يسوعا يلعن أرض الجريمة
تطرز بين الجفون وحدقات الرفاق
أرصفة موشاة بالأزاهير تعلو الذرى
حين تعود أجسادهم بلا هامات
لتغدو نتن الأرض وبقايا رمم منسية.

- ب -

(ستبقى معلماً ورفيقاً عذباً)

في ليلية قمرية
زارني طيفك البهي
حاملا في يمناك
راية الآلتين
وفي يسراك كتاب البيان
لحظتها
استشعرني النبض
بدفء الحنان
والسعد والأريحية
عانقتك...
بكيت على كتفيك
كان طيفك بلسما
في زماني الرديء
وها أنذا
أعمد ذكراك بدمي
وأسمو بك مجدا ومزهرية
علمتني يا سيدي
أن المقاصل
تغدو محاريب
لا محض أعمدة
حين عار جسدك
صليبا...

لا جثة هامدة...

-2-
سلام عادل

أخبرني الكبار
أنك كنت تلفظ أنفاسك
وأنت تصيق بتراب الكرامة
على أرض أينعت من دمك المقدس
هم يموتون على أسرتهم خانعين
وفي إسطبلاتهم بيأس الحياة
وأنت تلثم الأرض وتعانق التراب
بعشق الوطن...
بجسد ينز عزة لا دما
كلما أزالوا منك شلوا
قال لي الكبار
يعود أقانيم شاسعة
ليترك اللهفة لشلو آخر
يتشهى أن يوسع الهوة بين
الشهادة والمنزلات
توارثتك الحكايات الجليلة
حين صاغت بطولتك
حلل من إباء
كانت لنا ملاذات ومسرى شموخ
ما تركت وراءك حكاية موت رجيف
أو رحيلا عابرا
وزعت عشقك وأنت تنبس بآخر الكلمات
أزاهير مورقة لتمضي على خطاك
ونشدو معا:
(سنمضي إلى ما تريد... وطن حر وشعب
سعيد)

-3-
شاكر محمود

هل من نهر يجف وعروقه مجرى عطاء؟
هل من قلب يتوقف ونياط أوتار عشق؟
هل من شموخ يعانق الهوان؟
هل من شهادة لا تجللها الملاحم؟
هكذا أراك يا سيدي
كأنك لم تمت منذ وقت بعيد
تورق بدمنا كلما زحفت خفافيشهم
لنشر الخراب...
كنت أنت من تطاردها كي لا يعترينا
الهوان
كلما غزاني الحنين لأيامك الباكرة
تطل عليّ بقسماتك المزججة بالماء والياسمين
كأن رذاذ الحكايات هناك
يناوش جسدك رماحهم الخرساء
تفقأ بغيضك حدقاتهم الماكرة

علمتني يا سيدي
أن الشجر لا يعبر أسماءه
للحراثف السائبة
والخالدين لا يعرفون العماء
فهم مبصرون فينا
مبصرون في الرفاق
وهم يهيئون أكفانهم على دروب الشهادة
والدفاتر القديمة لا تشيخ أبدا
هكذا علمني الكبار
لا ولن يعتريها الذبول
كلما عنّفتنا الأعاصير
تجدد رمك في أمانينا
لنمضي معا شهداء بانتظار
بزوغ مسرات قادمة...

-4-

محمد الخضري

فائرة كثيرا هذه الأجساد
كانت مثل الفراشات
وهي تبحث عن زادها من التساؤل
تعرف طريقها دونما نزق
إلى أين تمضي
وأين تدس رحيقها
وكيف تجدد الأشجار فتنتها
نراك هكذا تحوم حولنا بوجد المحب
تينع فينا كلما راهمنا الجدب
وغارت علينا الرياح الصفراء
فيخضّر فينا الشموخ
ما عاد بيننا وزاك الزمان
من هوة أو مدار
مهما تكالبت أوابد الزمن العتي
تدفعنا أنت لبر الأمان
لنصنع من الخيبات تباشير فرح قادم
ما عاد للصمت معنى
الشهداء هم من أسروا بنا
لنقبض على بوصلاتنا
كي لا تشذ الأقدام
وهي تشق طريقها للشهادة
طالما تبرعمنا فيك أسماء جديدة
لبذرة انتصارات ما تلفعت يوما بالهوان
انتظرناك طويلا...
كنا ننز أسى...
نمضي لمسراك مفعمين بالجديد الجديد
كأن الزمان لم يبرح عنا بمخالبه وهي تنشب
فينا
كلما تمادت معاولهم تلاحقنا
كنت أنت من يبعدها عن هاماتنا
كي لا تشيخ فينا السنين
صواعقهم ما عرفت كيف تنتهي

وما سقطنا وتبا لمن هادن منا
ما خذلتنا الأيام أيها الرفيق الجليل
طالما أنت منا، معنا، وفينا...

-5-

أبو سعيد
(عبد الجبار وهبي)

كان عمي بشكو الطيب
يرسلني كل صباح
لشراء اتحار الشعب
كنت وقتها في عقدي الأول
يطلب العم مني قراءة عموده
وهو ينصت بخشوع
لم أكن أفقه ما تقول بغاراتك البيضاء...
كان يطوق وجهه بيديه
وكأنه ينصت لعاصم النبيل ويضحك
ما تزال أصداء قهقهات عمي بشكو
ترن في أذني كلما سمع تهكما لزينا
وما تحظ من أفانين على البياض
وذات يوم رأيته غائرا في حزنه
يصدر نشيجا وهو متكئ على الأريكة
ما أن رآني ضمني إلى صدره
وبصوت أنهكه البكاء
قال لي قتلوه، نشروه، غابه عنا ألق
العراق
بعدها أدركت حجم الغياب
هم ما نشروك يا سيدي العذب
هم جعلوك نشورا لنا
لأيامنا العصيبة
تكحل عيوننا بمراودك الشفيفة
نشور يتناسل منه الإباء
هكذا هم الفرسان الرائعون
يتركون لنا الملاحم المسيجة
بالشمع والآس والنخل والياسمين
والإرادة
كلما مرت ذكراك
نسجنا نحن الأوفياء من بقايا جسدك الطاهر
طريقنا للخلاص
لنجمع شتات جسدك الغض
ندسه في موضع النور والفخر والكبرياء...
نعطره بالآس والحناء
فتسع فينا الأماني من جديد...

-6-

حسن سريع

رافقتك وأنا اليافع الغض
يوم كنت تلوك الكلمات حرا
فتقذفها حمما بوجه الأراذل

كم تهكموا عليك وأنت الخازن لأسرار
الرسالات النبيلة
قديسا كنت وكان الطغاة مرتهنين
بوصايا هم الرثة
شامخا كنت كنسر يفرد جناحيه
كلما استفزته مقاصدهم الرذيلة
كنت أراهم مثل الغربان الكسيحة
كان صوتك يهز الأرجاء فيكدر صفو
مقاعدهم
فتكحل عيوننا بالفرح
كلما حاصروك بحقدهم
كنت نداً لهم
أعابوا عليك أسمك
فكنت سريع التفكر عليهم
وأكتظ المكان بقهقهات الطيبين
لم تعد الشاشة لتلفاز صغير
كانت لنا موئلاً للخلاص
أحبك حتى من أنكر عليك حق امتلاك
القرار
فاهتزت في صدورنا هباتك الفذة
كلما خذلتنا المحن كنت معنا
وكأنها لم تكن عقود خمسة مضت
فتعلمنا كيف يكون الإباء
هكذا هو الخلود يجدد اخضراره
كلما خبى الألق لحين...

-7-

ستار خضير

لا أحد يزورني الليلة
وأنا المسور بالمتاهات
لا أنصت إلا لوقع خطاك
وأنت تحث المسير نحوي
أرتق نسياني عبر كل هذا المدى
بلغت أقصى الأسارير
ولا من جديد
عبأت نفسي بكل احتمال
كي تليق بك أحلى ما تكون الحفاوة
لبست أبهى الثياب
لكنك ظهرت لي بلون التراب
غافلتني اللحظة الباهرة
وسرنا نحث الخطى صوب
الرفاق الطيبين...
وهم يهيئون لطلتك
نواميسهم مثلما تركتها
تستوطن كل القلوب.

-8-

محمد حسين أبو العيس

هكذا كانت البدايات
تسمو بنا وقتها
ونحن نفرش للأرض جسدك

لينعم به الياسمين
فيينع فيك الوقت
ويدون الرفاق آخر الكلمات
عن وطن كان يتسع بجروحك الفاغرة
كلما تكالبت سياطهم
قلت لهم هل من مزيد
محقين كان الرفاق
حين بايعوك بوجدهم وأنت تعرج لسمت
الخلود
يعتلي قامتك قمر وتسامرك الكواكب.
والشهداء نجوم يحنون الخطى نحوك
رفاق بأعجمية لا يفك رموزها
إلا من خبر عشق من تكون أنت...

-9-
سعدون كاظم

ضعت في زحمة النحيب
كلما تذكرت حديقة بيتنا الصغيرة
وكوكبة الأصدقاء الطيبين حولك
خرجت قهقهاتك من عتمات لا أعرف
من أين تأتيني
تفزوني ذكراك
وأنا القابع هنا في ملازي البعيد
قبل أن تسر أمي حكاية نحرك
انهمرت دموعها ولم تنبس بشيء
كنت أعلم أنها ستخبرني بشيء مهول
ما بصدرك يا أمي
أعتقتنت وجنتاها
وفي نشيج هزني
قالت: مات سعدون
شنقوه يا ولدي
تركته هناك لعذابات أمه
كان لم يبق له وقت طويل ويفي بوعده
ليعاين سقمي كما قال لي طبيبا حبيبا
لكنهم أوصلوه بملحفة ورموه في عتبة دارها
من هول ما حدث
راحت أمه توزع الحلوى والعصير
للمارة احتفاء بعرس سعدون
وكلما زاد في العراء الضجيج
زغردت فرحا بعرس الزين
نعم أيها الرفيق الحبيب
ستظل عريسا للوطن الذبيح
عريسا لي ولرفاقك الوديعين
عريسا تكلل هاماتنا بالشموخ
عريسا لا تخبو طلتك الفاتنة أبدا
أيها الوسيم الجميل.
كلما شع فيك حرف
فاض بذكراك الحنين.

شهرزادُ * : قدري

علي السباعي

القاص علي السباعي من جيل نشأ في حضن الحروب والقيامات المتعددة، فهو من مواليد مدينة الناصرية في عام 1970. نشر أولَ قصةٍ قصيرةٍ في مجلة " الإنحاف" التونسية عام 1977، والموسومةُ بعنوان : "عرس في مقبرة" ، وموضُوعُها مستلٌ من الحصارِ، أذ باعَ رجلٌ بناتهُ لبيتِ دعارةٍ كونهُ لا يستطيع أعالتَهنَ، فأصيبت أمهُن بالجنون . له مجموعتان قصصيتان: الاولى بعنوان (ايقاعات الزمن الراقص) وصدرت من دمشق عن اتحاد الكتاب العرب (2002)، والثانية بعنوان: (زليخات يوسف) الصادرة في بغداد 2005 عن دار الشؤون الثقافية العامة. ويعتبر النقاد علي السباعي من القصاصين الجادين الذين يعملون في منطقة الحداثة عبر اصرار على التجريب العميق من خلال اشتغالات على التراث والرمز، فمثلا تعتبر مجموعته القصصية (زليخات يوسف) بمثابة "مشروع قصصي يأخذ أبعاده الحداثوية من إصرار القاص على التجريب المضني في عالم قصصي متشابك تتصل أبعاده بالتراث من جهة، وتتواصل في الانجاهات الحديثة من جهة أخرى".

– أنا أكبرُ عاشقٍ في الناصريةِ ...

وقعتُ في غرام القصة التي طَرَقَتْ بابَ قلبي ولم تغادرْهُ، فصرتُ أُؤمنُ بأنَ القصةَ هيَ: الحبُ !

... تعلَمتُ من مدرسةِ الحياةِ أنَ الموسيقى والشعرَ هما أجملُ ما يمكن أنْ تعطيهِ الحياةُ في هذهِ الدنيا باستثناء الحبِ .لذا أحببتُ القصةَ .. "لأن العلاقةَ بينَ الإنسان واللغة هي كالعلاقةِ بينَ الرجل والمرأة، إنها علاقةُ حبٍ".. أغرمتُ بالقصةِ ...

نذرتُ نفسيَ لها. ويومَها قالت لي:

– أنا حبيبةُ أكبرُ عاشقٍ في الناصريةِ.

ولدتُ في مدينةِ الناصريةِ التي يقسمُها نهرُ الفراتِ الأسمرِ نصفينِ متساويينِ ، وهذا الأسمرُ الفراتُ دائبُ الحضورِ في قصصي ...إذ أنفقتْ أمي من عمرِها عذاباً وألماً ليومين ونصف اليوم في الطَلْق، وبمساعدة القابلةِ " لندا بشاره" التي جاءَتْ إلى العراقِ ممرضَةً مع القواتِ البريطانيةِ التي احتلت العراقَ عامَ أربعةَ عشر وتسعمائة بعدَ الألف، وأحبتْ ضابطاً عراقياً من أهالي الناصريةِ، وتزوجها بَعدَ أنْ أشهرتْ إسلامَها، وبَنَتْ جامعاً في الناصريةِ، ولقد ولدتْ أغْلَبَ نسوة المدينةِ، أظهَرتْني إلى النورِ يومَ الخميسِ العاشرَ من شهرِ حزيرانَ عامَ سبعينَ وتسعمئة بعدَ الألف صباحاً عند الساعةِ التاسعةِ والنصف تماما. إذ خَرَجَتْ القابلةُ "لندا" لتقول لجدي لأُمي:

– يا حاج "جابت" ابنتُكَ ولداً فماذا ستسميهُ؟

– علي ... علي .. "صارلنه يومين ونص نقول ياعلي".

كانَ جدي لأُمي صاحبَ صوتٍ شجي، كانَ رَحمهُ اللّهُ إذا غنى يُفطِرُ القلوبَ، كانت عائلةُ أمي عائلةً شيوعيةً، وكانَ خالي الأكبرُ عضَو لجنةِ محليةِ الناصريةِ في سبعيناتِ القرنِ المنصرمِ، وكانت عائلةُ أبي عائلةً متدينةً، وكانت كِلتَا العائلتينِ تشترك بحبِ العراق .. حباً جماً عجيباً لا مثيلَ لهُ، وأذكرُ هنا قولاً لأبي (المهندس الزراعي):\– بُني عليْ . إنَ العراقَ مِثلُ شجرةٍ مثمرةٍ تُرمَى بحجرٍ، والعراقُ أنْفَقَ عُمْرَهُ على مدى الدهورِ نخلةً مباركةً تُرمَى دائماً بحجرٍ ،والعراقُ يَردُ بأحلى الثمر.

كان أخوالي يسحبُونَيَ صوبَهم، ومثلهم يفعَلُ أعمامي، كلَ واحدٍ مِنْهم يُريدُني أنْ أنتمي إليهِ، وكانَ جدي الثالث لأبي قد حاربَ مَع الشاعر – محمدَ سعيدَ ألحبوبي –عامَ أربعةَ عشر وتسعمئة بعد الألف ضدَ البريطانيينَ، بَعد استشهادهِ أخَذَ الإنكليزُ رأسَهُ مَعَهمْ إلى بريطانيا بحسب أوامر الملكةِ فيكتوريا، وكانَ جدي لبسالتهِ وشجاعتهِ استطاع أنْ يُنْزِل عَلَمَ الملكيةِ من على قصر "الزهور" إبانَ قيامَ الجمهوريةِ بعَد أنَ فَشَلَ كلُ أقرانهِ الجنود، فَعلَها رغمَ غزارةِ الرصاصِ، وَكانَ أحدُ أعمامي خطاطاً ماهراً تتلمذَ على يدِ الخطاطِ المعروفِ "هاشم محمد البغدادي" أسرّتني حروفه التي يصوَغُها من الحبر الصيني، واستهواني الخطُ العربيُ وسحرتني "القصبةُ" وكيفيةَ "قَطها" لأخطَ بَها حروفي، كانتْ أغلبُ بيوتاتِ الناصريةِ من القصبِ، كانَ لنا جيرانُ منزلُهم من قصبٍ، فكنتُ أذهبُ إليهم لأطلبَ منهم

القصبَ، فتستقبلُني أبنتُهم الزنجيةُ "شهرزادُ" التي كلما ذهبتُ لأطلُبَ القصبَ كنتُ أجدَها مُمسكةً بكتابٍ تقرأُ فيه ومن حولِها أمُها وأخواتُها، فسألتْني ذاتَ ضحىً : لماذا تحبُ الخطَ؟

أجبتُها بما كنتُ أسمَعُهُ من عميَ الخطاط:

– الحرفُ كالمرأةِ الفاتنة، فلو أخذْنَا حرفَ الألفِ في خطِ الثُلثُ ففيهِ صدرٌ وعجزٌ، إذنْ هو كالمرأة!

ضحكتْ لكلامي بملءِ روحِها البيضاءَ حتى أنَ عينَيها السوداويين الحرّاقتين لم تستطيعا أنْ تكتما فرحةَ روحِها، وأمُها وأخواتُها يسألْنَ: "ماذا يقولُ" و"لِمَ تَضحكن؟"، تجاهلْتهُم وقالت لي بحنو وضحكتُها إلى الانَ تملأُ روحيَ محبةً:

– ابنُ عربي يقول : "إنَ الحروفَ أمم".

لحظتَها صمتُ لأنَنَي لم أعرفْ بماذا أجيبُ، فمسدَتْ على فروةِ رأسي، وقادْتَني شهرزادُ من يدي اليمنى داخلَ "الصريفة" وأعارتني كتاباً قائلةً بحزمٍ:

– يا علي انك خُلِقتَ لتكتُب.

كانَ الكتابُ "السيد معالي الوزير" لنوال السعداوي، بعدها، أعارتني روايةَ "الصخب والعنف" لوليم فوكز، أعدتُ لها فوكز، فأعادتْ إليَ فوكز في "نور في آب"، فصارت شهرزاد تشرحُ لي كلَ شيءٍ وعلى مرِ الأيامِ صرتُ أقرأُ، وأقرأ بنَهم دونَ أنْ أفْهمَ شيئاً مما أقرَأُهُ ، ذاتَ مَساءٍ جميلٍ مثلَها سألتني شهرزادُ بعدَ أنْ أعدتُ لها "الشيخَ والبَحر":

– علي ما الأدبُ؟

لحظتها خجلتُ ولم أُجبْهَا، وأطرقتُ باكيا، لأنني ِ حقيقةً لا أعرفُ ما هو الأدبُ؟!

مسحت شهرزادُ بيدها السمراءَ على رأسي بحنانٍ وكأنَها تعتذرُ عن إحراجي، وقالت:

– يا علي سارتر يقول: ((إن الأدبَ تمظهرٌ لحريةِ الإنسانِ.)) لَحظَتها أجهشَتُ ببكاءٍ مرٍ، وهَربتُ من خَربَتِهمْ لأنَني لا أعرفُ ما تقولَهُ ولا أعرفُ من هو سارتر؟

لقد أربكتني!

انقطعتُ عن زيارةِ شهرزادَ لأيامٍ، زارتني شهرزادُ تسألُ عني، وأهدتني "ناظم حكمت"، ومن يومها وأنا أتعذبُ!

جئتُها ذاتَ يوم فَرِحاً بعد أنْ خرجتُ من المدرسة، فقلتُ لها مسروراً والدنيا كُلها لا تسعُنَي :

– شهرزادُ. لقد قبلني المحافظُ.

فقبلتني هي بدورها فرِحةً وطلبَتْ مِني أنْ أروي لها ما حدثَ، فرويتُ:

" جاءَنا المحافظُ، وزارَ صفَنا، وطلبَ منا أنْ نُعرفَ الاشتراكيةَ؟، فملأتُ الصفَ صراخاً: أستاذ .. أستاذ.. لأنَ زملائي

لم يعرفُوها، وكانَ مديرُ مدرستنا ينظرُ إلي متوعداً ومرشدُنا يؤشرُ بيدهِ أن أصمتَ وهو يعضُ بأسنانه على شفته السفلى بعصبية أنْ أجلس، فطلبَ مِنْي المحافظُ أنْ أعرفَها، فعرفتُها له مثلما عرفها خالي عضُو لجةِ محليةِ الناصريةِ لأحدِ رفاقه، فتقدم المحافظُ إلى رحلتي التي كُتِبَ عليها بطلاءٍ أحمرَ فاقع كالدمِ: جيلُ الثورةِ. وانحنى عليَ وحملني بينَ ذراعيهِ وقبلَني، أقفلَ راجعاً وهو يخاطبُ حاشيَتَهُ: أتعرفونَ أنَ لي رِفاقاً لا يعرفونَ الاشتراكيةَ

وغادرَ ...

كانت شهرزادُ تنظرُ إلي بفرحٍ وهي تبكي، فأخذتَني من يديَ اليمنى داخلَ "الصريفةِ"، وأعطتني دعوةً لحضور عرضٍ مسرحي هيَ بطلُتُه يُقامُ على بهوِ الإدارةِ المحليةِ في الناصريةِ .

ذهبْتُ أنا ووالدي لحضور المسرحيةِ، شاهدتها تطيرُ على خشبةِ المسرحِ كفراشةٍ سوداءَ ببدلَة حمراءَ زاهيةٍ ، تردِدُ:

" نهايَة الترتيل "

((يأتي الميلادُ دونَ أنْ يفهَمهُ أحدٌ ، ويأتي الموتُ دونَ أنْ يفهَمهُ أحدٌ ، وبينُهما تُدركُ الكائناتُ كلَ شيءٍ ...)).

في اليومِ الذي أعقبَ العرضَ المسرحي ذهبتُ كعادتي إلى خَربتَهم فوجدتُ شرطةِ الخيالةِ يملئونَ الزقاقَ، نهروني بعنفٍ، ولم أتزحزح، فعلمتُ بأن أحدَ أخوالِها قد ذَبَحها! ذبحَ شهرزادَ، لأنها جلبتْ العارَ لهم كونَها تُمَثلُ، فحزِنتُ، ولم أبك لأنني علمتُ بأن الزهورَ عمرَها قصيرٌ، انتهى بي الأمر إلى الخيبة التي غمرتْ حياتي، حياتي صارت كلُها باهتةً. بلا طعمٍ مِثلَ فيلم باهت، صارت حياتي تطبعُها العزلةُ والقراءةُ والفشَلُ المتواصلَ، كان حزني شديداً على شهرزادَ الذبيحةِ التي ما انفكت ترددُ دوماً على مسمعي ما قالَهُ جوادُ سليم :"لا يمكنُ لكَ أن تأتي. بجديد ما لم ترتكزْ على القديم". ترى هل ذبْحُها هو الجديدُ الذي أتت به الحياةُ إلي. آهٍ؟! كنتُ ذاهباً لأخبرَها أنها في العرضِ المسرحي كانتْ جميلةً بالبدلة الحمراء.

******

إبانَ حربِ الثمان سنوات عشتُ حَدثاً مروعاً فَتَح في قلبي جرحاً سوفَ يظلُ مفتوحاً ما حييتُ . إنني ما زلتُ أرى، رأي العينِ والقلبِ، ذلكَ اليومَ القاتمَ من تاريخِ بلدي الأكثرَ عنفاً ودمويةً وحزناً، حيث وقفتُ مهموماً وسطَ شارع الهوى سابقاً، والحبوبي حالياً في الناصرية، بعد خروجي مَن المدرسةِ وبرفقتي زميلٌ

لي، عندما وصلنا ساحة الحبوبي التي يتوسطُها تمثالُ الشاعرِ المجاهدِ (محمد سعيد الحبوبي)، مر رتل عسكري من : ((اللاندكروزات والوازات والأيفات والفوانات يحملنَ الدباباتِ وناقلاتِ الجنود، والجنود يلوحونَ لطلابِ المدارسِ والمارةِ المتعبين بعلامةِ النصرِ)). شاهدَ زميلي مثلما شاهدتُ أَمَهُ الشابة الجميلةَ زوجةَ الشهيدِ، وقد وقفتْ أمامَها سيارةً نوع تويوتا "سوبر" حمراءُ اللون يقودُها ضابطٌ يضعُ على متنه ثلاثةَ نجومٍ ذهبيةٍ، راودَها، فصعدتْ إلى سيارته ونحن نتطلع مبهوتين بعيون سومرية سودٍ تلتهبُ دماً، في أثناءِ مرورِ السيارةِ من أمامنا رمى الضابطُ عُقبَ سيجارته بوجوهنا وراحَ عُقبُ سيجارته يعربدُ في الهواءِ حتى تلقفتَهُ الأرضُ. أرضُ العراقِ، وحماةُ البوابةِ الشرقيةِ يلوحونَ بعلامةِ النصرِ لنا. سألتُ نفسي آنذاك :

– كيفَ أنحازُ وبشكلٍ مطلقٍ لمحنةِ الإنسانِ أياً كانَ موقُعهُ؟

فكانَ هذا السؤالُ ثيمةً جوهريةً في كتاباتي ... يومها حاولتُ أنْ تكونَ حياتي مِثلَ حياةِ (ناظم حكمت)، من بدايتها حتى نهايتِها كِفاحاً مستميتاً دفاعاً عن المظلومينَ والمقهورينَ والمضطهدينَ، فكتبتُ أولَ قصةٍ قصيرةٍ في حياتي وذلكَ في الرابعِ والعشرينَ من نيسان عام أربعة وثمانين وتسعمائة بعد الألفَ ، وقد وسْمتُها بعنوانِ :"عربدة عقب سيجارة الضابط العراقي". بهذهِ القصةِ أكون قد انتميتُ إلى الإنسانيةِ بدلَ أنْ أنتمي لأعمامي وأخوالي، ساعةَ الانتهاءِ من إنجازِها لم تكُن شهرزادُ حيةً لأعرضَها عليها، فعرضتُها على والدي، بعدَ أن فَرِغَ من قراءتِها،

قالَ لي:

– بُنيَ. لقد اخترتَ المهنةَ التي تجلِبُ الفقرَ!

فبادرتهُ فَرِحاً:

– لقد اخترتُ المهنةَ التي تُغيرُ العالمَ.

عقبَ والدي بحنو:

– ستبقى طَوالَ حياتِكَ تطاردُ خيطَ دخانٍ.

فبكيتُ في سِري، وقدْ لاحظَ حُزني وثباتي، فأوصاني مُرغماً:–

– بُني. هنالكَ كونٌ بديعٌ من نورٍ خالُقُهُ اللّهُ، وإنَ أرضَ العراق ... أرضُ الأنبياءِ والأولياءِ والأوصياءِ، إنها "أرضُ عَبقر" ، أرضُ نورٍ، واعلمْ جيداً أنَ الظلمةَ دائماً ضدَ النورِ، والشرَ دائماً ضد أرضِ النور أرض الخيرِ، أرض العراقِ وإياكَ وأنتَ تكتبُ أنْ تُديرَ ظهركَ للإنسانيةِ.

لحظَتَها عرفتُ كيفَ أكونُ نوراً. لكنْ! حتى الآنَ لم أعرفْ لماذا الآخرونَ يُصرونَ على أنْ يكونوا شراً في أرضِ النور، وأقول إن ما يحدث من ويلات على هذه الأرض، أرضِ العراقِ هو بسببِ النورِ الذي يشع فيها.

وهكذا يستمرُ انطفائي، انطفاءَ عُمرِي قصةَ بأثرِ قصة.

******

كبر كبُرَ هم وأنا أقرأ واقرأ وأكتب فكانت الكتابةُ صمامَ أمانٍ يفرغُ ألمي وحزني وغضبي وجعلتني الكتابةُ أقفُ على قَدمي.

دَخلنا الكويتَ بحجةِ أنْ الماجدةَ العراقيةَ صارتْ بعشرة دنانير،

******

إبانَ الحصارِ كنتُ أنظرُ إلى الحمارِ وأحسدُهُ ، وكانَ الحمارُ ينظرُ إلي ويشيحُ بوجههِ عني يزدريني، أليسَ هذا بكافٍ بأن يجعلني أكتبُ ؟

كنتُ أكتبُ واقرأُ من أجلِ ذاتي، الآنَ صرتُ أقرأُ وأكتبُ من أجلِ الآخرينَ. حاولتُ الكتابةَ عن قناعاتي دونَ خوفٍ فالعمرُ واحدٌ، والعمر قصير.

كنت أُحسُ الحياةَ، حياةَ الآخرين وأحققُ ذاتي في الكتابةِ، نشرتُ أولَ قصةٍ قصيرةٍ ليَ في مجلةِ "الإتحاف" التونسيةَ عام سبعة وتسعين وتسعمائة بعد الألف ، والموسومةُ بعنوان : " عرس في مقبرة " ، وموضُوعُها مستلٌ من الحِصارِ، إذ باعَ رجلٌ بناتهُ لبيتِ دعارةٍ كونهُ لا يستطيع أعالتَهنَ ، فأصيبت أمهُن بالجنونِ .

إنَ طولَ الحياةِ يعتمدُ على ثراءِ لحظاتِها لا على طولها ، ويستمرُ انطفاءُ عمريِ قصةً بأثر قصةٍ، حاولتُ بكتابتي أنْ أجُسدَ أحداثاً تجرحُ الإنسانَ العراقيَ في الصميم، في كرامته، أحداثاً حطمتْ إنسانية العراقي ، وجردْتْهُ من أبسطِ حقوقهِ في وطنٍ يعتريهِ الظلمُ والعنفُ والفوضى والعقمُ.

فصدرتْ مجموعتي القصصية البكر "إيقاعات الزمن الراقص" عام ألفين واثنين عن اتحاد الكتاب والأدباء العرب .. التي كتبتُها بصدقٍ عن نبضِ واقعنا العراقي البائس وإنسانهِ المسحوق إبان فترةِ الحصارِ، الذي يشكلُ أغلبيةً جائعةً، مريضةً، جاهلةً، مظلومةً تتفرجُ على همومها ليلَ نهارَ، وتنظرُ إلى الغدِ بعيونٍ متشائمةٍ ونفوس سوداويةٍ لإنسانهِ الذي أضناه القهرَ. استطعتُ التعبيرَ عمن يعيشونَ على حافة الحياةِ في

قاعها العراقي الساخنِ ... استطعتُ منذُ البدايةِ أن أنتبهَ لخطورةِ وأهميةِ القصةِ هذا هوَ التحدي.

القصةُ كائنٌ بدائي متوحشٌ مثلَ الشعرِ إلى حد كبيرٍ، الشعرُ والقصة أجدهُما يمثلان طهرَ الإنسان. لأنهما متمردانِ على الأعرافِ كونَهما محبانِ لحرية فجاءت ولادةُ ابنتي الثانية :" زليخات يوسف " بعدَ سقوطٍ من كتبَ على رحلاتِ دراستنا وبالصبغِ الأحمرِ الفاقع: "جيل الثورة" عام ألفين وخمسة عن (دار الشؤون الثقافية العامة) ببغدادَ.

******

أجدُني أعيشُ إلا من أجل القصةِ، أعيشُ حياتي بكلِ تفاصيلها ولكنني لا أغفلُ عن القصةِ أبداً . كلُ تفصيلٍ في حياتي مضمخٌ بالقصة، وأنا اليومَ أكثرُ ثباتاً على أن القصةَ هيَ خلاصي الأولَ في هذه الحياةِ لأني أجدُ فيها ذخيرةَ عمري كلَهُ، وينطفئُ عمري قصةً بأثر قصةٍ .. وما زلتُ إلى الآنَ أُطاردُ خيطَ دخانِ ... وأنا الآنَ أسقطُ في النسيانِ.

بغداد الاثنين 12 / آذار / 2012

*** شهرزاد : القصة القصيرة .**

قصة مترجمة

الطير السعيد*

مختار لوبس ❖
ترجمها عن الهولندية: نزار محمد سعيد ❖❖❖

(جونات) شاب ذو سبعة وعشرين ربيعا، مواطن اندونيسي يعيش في شقة بإحدى العمارات. يتقاضى جونات 325 روبية في الشهر، متزوج وله طفلان، أحدهما لديه سنتان والآخر سنة واحدة وزوجته حامل منذ بضعة أشهر. استقل عربة كانت تنتظرهم أمام احدى العمارات، مع ثلة من العاملين معه، من ذوي الدرجات الدنيا في المؤسسة التي يعملون فيها.

تحركوا مع مجموعة أخرى من العربات، كانت تقل هي الأخرى زملاء لهم، اتجهوا معا نحو ميدان "بانتك"، جونات كان ينشد دون توقف نشيد "ئيريان بارات" بصوت مبحوح مع سائر المجموعات، وحينما كانوا يصلون الى هذا المقطع "صبرنا طويلا، لقد نفد صبرنا، لم نعد نطيق الوضع بعد"، كان ينشدها بكل صدق الى حد، لو وضعوا الآن القرار في يده، لنظف أرض ئيريان بارات من المحتلين الهولنديين.

قلما يغيير جونات هندامه، تراه في أكثر الأحايين ببدلته الرسمية الخضراء، يطوق رقبته بمنديل أحمر وهو يحمل بندقية ذات حربة طويلة.

حينما تطأ قدمه أرض ئيريان بارات،

استقبال الأبطال، وسيقبل طفلاه يدَه، أما أصدقاؤه فسيكلفونه بتنظيم وتمشية معاملاتهم الرسمية.

حينئذ لن يعمل كسائق أجير على العربة من الساعة السادسة مساءً وحتى الثالثة صباحا، الى جانب عمله الدؤوب ونضاله المستميت من أجل وطنه، فانه يعمل كسائق عربة لنقل المسافرين، لطالما كان يقول لزوجته: عليَّ ان أعيلك وأطفالي بكدي وعرق جبيني، ولذلك فإنني لن أختار ما حييت، سبلا أخرى لا تليق باسم المناضلين وقيمهم ومثلهم العليا، لأجل كسب قوتهم اليومي.

مرتبه الشهري لا يكفي لسد رمق افراد عائلته، لهذا اتخذ من سياقة العربة عملا إضافيا يحصل منه على قرابة عشرين روبية في اليوم، تكفي مع مرتبه الشهري لتدبير أمور عائلته، ودفع شبح الفقر عنهم، جسده الناتئ العظام، أمسى كما لو أنه خبز الرقاق، لم يبق من ساقيه غير عظم وجلد، وعيناه الحمراوتان تبدوان غائرتين من قلة النوم.

حين يسأله أصدقاؤه: علي هذا المنوال ستقتل نفسك يا رجل، أليس لجسدك حق عليك؟

كان يرد: لن أعيش طويلا! هذا هو مصيري المحتوم. كان يؤمن بصواب ما يذهب إليه فما هو مكتوب على جبينه، لا بد ان تراه عينه. ولهذا السبب كان راضيا مرضيا من عيشه، لم يتذمر منه أحد قط، ولم يتذمر هو يوما من أحد.

لم يكن ينتقد الحكومة والقادة البتة، كان يؤمن مئة بالمئة بقادته. فكلام القادة جله حقائق مطلقة، ومن غير الجائز لكائن – من يكون – الطعن فيه، أو انتقاده، وإذا أبدى صديق من أصدقائه ذات يوم ملاحظة ما على أقوال القائد، كان يغتاظ منه ويقول له:

هل تعرف أنت الأمور أحسن من القائد؟ ان لم يكن عليما، ذكيا، فطنا، كيف له أن يصبح قائدا؟! علينا أن نسير على خطاه، نعمل بما يأمرنا، ونطبق أفكاره على أرض الواقع.

منذ الصباح الباكر لهذا اليوم الجاف، كان تونات ونحو ما يربو على عشرة آلاف من رفاقه، تواقين وبفارغ الصبر الى إطلالة قائدهم، لكي يستمعوا الى كلماته النارية.

لا يرى تونات شيئا غير ذي أهمية، وهو يقف بمعدته الخاوية تحت الشمس الحارقة، ينتظر وصول القائد الى هذا الميدان بعرباته الفارهة اللماعة.

طبيعي عنده، بأن ليس ثم شيء أحب الى قلبه، من رؤية القادة وهم جالسين في المقعد الخلفي لسياراتهم. وما ان

يبدأ ه؟لاء القادة بإلقاء كلماتهم، حتى يشرع تونات بنسيان الشمس الحارقة، ومعدته الخاوية، وكذلك ينسى الألم الشديد في ساقيه. وينسى أيضا أن العربة تنتظره هذه الليلة. وحينما يطلقون الشعارات، كان يرددها وراءهم بكل ما أوتي من قوة.

كان يؤمن إيمانا عميقا بجل آراء وأفكار القائد، يسير خلف قيادته السياسية ولا يحيد عنها مهما كلف الأمر، كما كان يؤمن بعودة دستور سنة 1945، لطالما كان يعبر عن إخلاصه للثورة أمام رفاقه، كان لتونات مآخذ على والديه، فحينما بدأت الثورة في سنة 1945 كان هو في العاشرة من عمره، كان يحبذ أن يولد عشر سنوات، قبل يوم مولده الحقيقي. فهو لا يجد في حياته شيئا أجل وأحلى من الثورة. وفي تظاهرة اليوم يبدو في قمة النشوة، حين عودته الى المنزل أخذ شيئا من الطعام ثم شرب كأسا من الماء البارد، وبعد هنيهة أحس بالإعياء، انتابه ألم شديد في الرأس، دعا زوجته الى أن تفرك له ظهره.

– لقد ألقى رئيس الوزراء كلمة قيمة – قال تونات لزوجته – لو كانت نار القادة الآخرين متقدة، حامية ومؤججة كناره، لكنا قد انتصرنا منذ زمن بعيد.

قدم صاحب العربة في تمام الساعة السادسة، أحضر له عربته التي يعمل هو عليها حتى الساعة السادسة. صلى صلاة المغرب وبدأ مشواره في سياقتها.

كانت الساعة تشير الى التاسعة والنصف حينما تعرض لحادث! قبلها بلحظات كان قد قرر الانتهاء من العمل والعودة الى المنزل، اذ شعر بعودة الألم الى رأسه، فضلا عن انه الى جانب إيجار العربة، قد حصل على خمس عشرة روبية.

كانت ثمة عربة تود اجتيازه، وعلى حين غرة انفتحت بابها اليمنى، فاصطدمت بكتف تونات فانقلبت به العربة رأسا على عقب لمرات متتالية.

لم يتوقف السائق بل انطلق بأقصى سرعة، تاركا (تونات) جثة هامدة وسط الطريق، في نفس اللحظات هرع نحوه جمع غفير من المارة، مع عدد من أصحاب العربات غاضبين وهم يصرخون:

لقد قتله! يا للمسكين .. نادوا على الشرطة؟

ئووووووي .. إنه ينزف دما غزيرا، لا تمسوه، لو كنت قد قبضت على السائق لقتلته!

من منكم انتبه الى رقم العربة، من يعرف كم كان؟

كان ظلاما يحول دون رؤية الرقم، نحن بأمس الحاجة الى ثورة أخرى، لنقضي على هذه الظواهر.

تقاطر نحوه أعداد غفيرة من كل حَدَب وصوب، سواق العربات التي شكلت طابورا طويلا، يطلقون اصوات ابواق عجولة لإفساح المجال لهم للعبور، حضرت الشرطة الى مكان الحادث، نقل تونات بعربة الإسعاف الى المشفى، اتصلوا بعائلته، لم يحضر الطبيب إلا بعد انقضاء ساعات من الحادثة.

– هذا الرجل بحاجة الى الدم، أين زوجته؟

فحصوا دم زوجته (تينها) إلا أنه ثبت أنها نفسها بحاجة الى الدم.

– هل ثم آخرون من أفراد أسرته من بين الحاضرين؟

– أجل.

رجعت (تينها) خطوات إلى الوراء، وتقدم خمسة من أفراد أسرة تونات وأصدقائه.

بان من نتائج فحص دمائهم، إنهم يعانون جميعا من فقر الدم، والأسوأ من ذلك، فقد ظهر أن بعضا منهم يحملون أمراضا معدية!

– من أين ستحصلون على الدم لتونات؟

زوجته لا تملك دما، ودم أفراد العائلة لا تناسبه، كذلك دم أصدقائه، هل ثم إنسان سليم ومعافى يبادر الى التبرع بدمه لتونات؟

بنك الدم التابع للصليب الأحمر يملك دما للحالات الطارئة، لكنهم يشترطون على من يقترض منهم، أن يعيد نفس الكمية في غضون ايام.

ومن حسن حظ تونات أبدى أحد العاملين في الصليب الأحمر، الذي كان متواجدا هناك في تلك الليلة، استعداده للتبرع بدمه، ما أن سحب منه الدم حتى أخذه أحد المرضين مسرعا الى احدى الغرف الخاصة، إستبشرت زوجة تونات خيرا وإنفتحت أساريرها.

وحينما حضرت المشفى في اليوم التالي، أبلغها أحد المسؤولين بأن الامر قد قضى، وكان تونات في حالة غيبوبة حتى لحظاته الأخيرة قبل أن يموت. وبإمكانكم تسلم جثته من الغرفة المبردة، ولا تنسوا الحصول على شهادة وفاته من مدير المشفى. صراخ تينها وعويلها ملآ أرجاء المشفى حتى أغمي عليها.

لا تونات ولا تينها لاحظا الحرب الكلامية بين العامل في الصليب الأحمر والطبيب.

فلقد سمع العامل في الصليب الأحمر من أحدهم بأن الدم الذي تبرعه لتونات، أعطي لمسؤول كان قد تعرض هو الآخر

لحادث سير. اذ انقلبت عربته حينما كان يسوق بسرعة جنونية. كان هو أيضا بحاجة الى دم، الدم المتبرع لتونات كان من نفس صنف دمه، فأعطوه إياه!

– لماذا؟ قال العامل في الصليب الأحمر غاضبا، لقد تبرعت بدمي لسائق العربة، لان صحة أفراد عائلته وأصدقائه لا تسمح لهم بالتبرع، إنهم لا يملكون دما مناسبا كافيا.

– لا أعرف لم تثقل إلى هذا الحد حملك يا رجل! قال الطبيب..ألم يكن هذا الرجل بأحسن وأكثر أهمية للبلد، من سائق العربة بألف مرة؟!

لم تشف هذه الكلمات غليل العامل في الصليب الأحمر، ولكن لو كان تونات قد سمع ما قاله الطبيب، لكان قد ابتسم بقلب مفعم بالسعادة، ذلك انه كان يقول دائما، سأقدم حياتي قربانا للثورة.

فقد هو حياته لكي يعيش المسؤول حياة سعيدة هانئة وليحقق أهداف الثورة! لتحيا الثورة، ليحيا الاستقلال!

* "الطير السعيد"، قصة قصيرة من إندونيسيا.

** مختار لوبس ولد عام 1919 في (بادانك) غرب سومطره، عمل في بداية حياته صحافيا مناضلا في سبيل الديمقراطية والاستقلال. أمضى سنوات من حياته في السجن، من عام 1956 وحتى نهاية عام 1965. كتب مجموعة من الروايات منها "الطريق التي لا نهاية لها".

*** المترجم نزار محمد سعيد، من مواليد دهوك 1952.. عمل في مجال التدريس والصحافة، وهو اختصاصي في حقلي التنمية الثقافية والبحث الاجتماعي. له مجموعتان قصصيتان: (الطاحونة) و (صهيل الجبل الأبيض) اضافة الى اعمال اخرى.

المصدر:

Korte verhalen
Uit Afrika, Azie, en Latijn Amerika
Het Wereldvenster, Baarn
NOVIB. S'Gravenhege, NCOS, 1987, Brussel.

مطبوعات وصلتنا..

- يحيى علوان، تقاسيم على وطن منفرد، دار كنعان دمشق 2012.
- يحيى علوان، همس الجثة لا تسبح ضد التيار، دار كنعان دمشق 2003.
- لطفي حاتم، التشكيلة الرأسمالية العالمية والشرعية السياسية للدولة الوطنية، الأكاديمية العربية المفتوحة في الدنمارك، 2012.
- علي عرمش، أبجدية حب في مدرسة العصافير، رواية، 2012.